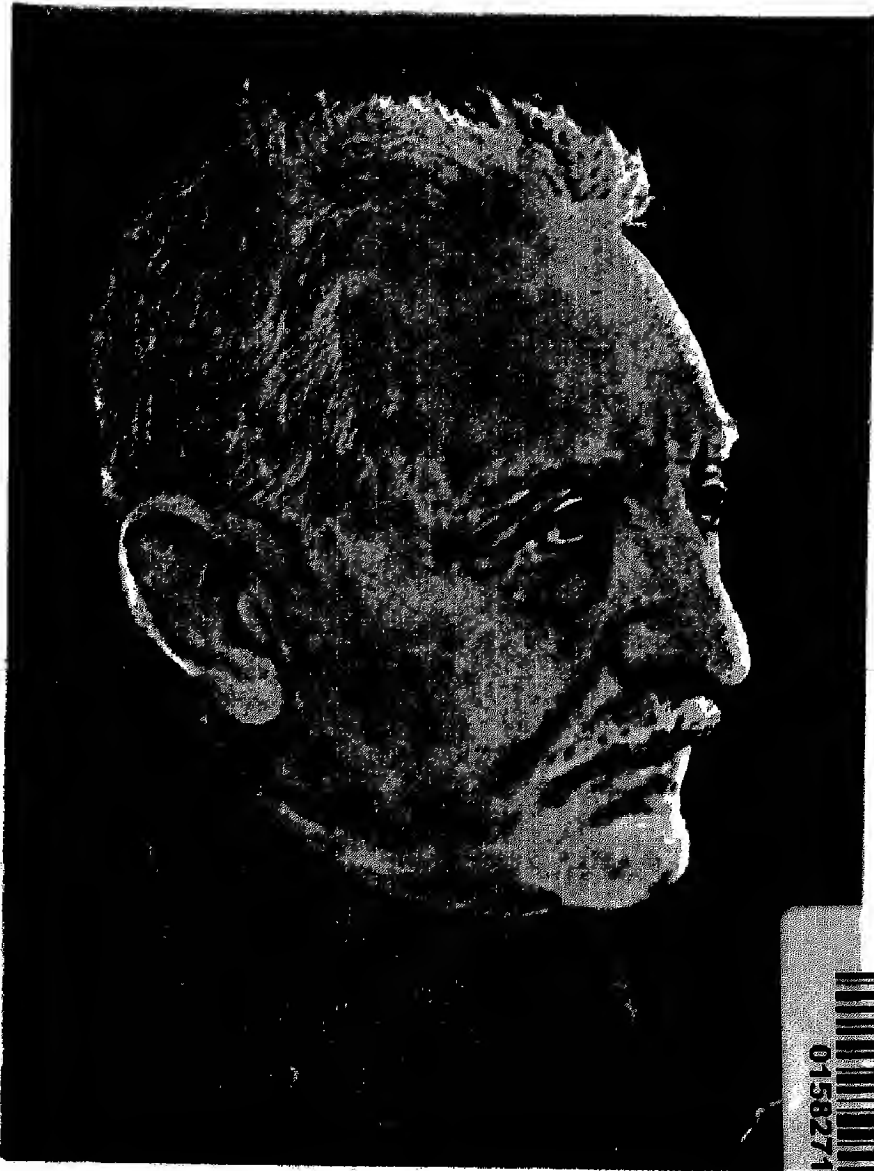


# عبقورية الإمام علي



Bibliotheca Alexandrina



# عبقورية الإمام علي

بقلم

عباس محمود الصفا

منشورات المكتبة العصرية  
طيدا - بيروت



## مَقْدِمَةٌ

أحمدك اللهم حمدا يوافي نعمك ، ويكافئ مزيدك ، وأسألك يا الهي أن  
تصلي وتسلم وتبارك على سيدنا محمد ، وعلى آله ، كما صليت وسلمت  
وباركت على سيدنا إبراهيم ، وعلى آله في العالمين ، انك حميد مجيد ..  
وبعد ..

فمع السماحة والعدل ، والنجابة والفضل ، والشجاعة القاهرة ،  
والبطولة النادرة .. مع القوة التي خذلتها القوة ، والهمة التي اثقلت من  
حولها الهمة ، والمروءة التي استعصت عليها المروءة .. مع الحكمة التي خلقت  
مواريثها للأجيال ، فكانت نورا يشع ، وزادا يشبع .. مع كريم الوجه وعظيم  
الخلق .. مع الامام وكفى .. نسيج بين صفحات هذا الكتاب .

وفي الحديث عن الامام صلة بالنفس الانسانية في كل مناحيها ، وفي  
سيرته ملتقى بالعواطف الجياشة ، والاحاسيس المتطلعة الى الرحمة والاكبار ،  
لانه الشهيد أبو الشهداء .. وملتقى بالخيال ، حيث دار حول شجاعته منزع  
الحقيقة ، ومنزع التخيل .. وملتقى بالفكر ، فهو صاحب آراء لم تسبق في  
التصوف والشريعة والاخلاق ، ويعتبر صاحب مذهب حكيم بين حكماء  
العصور ، أوتي من الذكاء ما هو أشبه بذكاء الباحثين المنقبين منه بذكاء  
الساسة المتغلبين ، وملتقى مع الذوق الادبي أو الفني ، تراه في نهجه البلاغي  
والادبي .. وملتقى مع خلاف الطبائع والاذهان ، أو الخصومة الناشئة أبدا  
على رأي أو حق أو وطن ، فتنازع الناس حوله ، وتناقضت آراؤهم فيه ، حتى  
عبر عن ذلك بقوله : « ليحبني أقوام حتى يدخلوا النار في حبي ، ويبغضني  
أقوام حتى يدخلوا النار في بغضي » . « يهلك في رجلان : محب مفرط بما  
ليس في ، ومبغض يحمله شنائي على أن يبهتني » .. وملتقى مع الشكوى  
والتمرد ، أو الرغبة في التجديد والاصلاح ، فصار اسمه علما يلتف به كل  
مغصوب ، وصيحة ينادي بها كل طالب انصاف ، وصارت الدعوة « العلوية »  
كانها الدعوة المرادفة لكلمة « اصلاح » .

فالتقت النفوس مع علي في وجه من وجوهه ، وعلى حالة من حالاته ،  
وتلك مزية تفرد بها الامام .

وعن صفات الامام .. بين الكاتب أنه أول هاشمي ولد من أبوين  
هاشميين ، فتجمعت لديه كل صفات تلك الاسرة الكريمة من نبل ، وأيد ،  
وشجاعة ، ومروءة ، وذكاء .. وأبوه هو الذي سماه « عليا » بعد أن كانت  
أمه قد سمته « حيدرة » وعاش علي مع النبي - صلى الله عليه وسلم - ، وكان  
سريع النماء ، متفوقا على أقرانه ، ونشأ قوي البنية ، واحتفظ بمكانة تركيبه  
في شبابه وكهولته .. وعدد الكاتب صفاته الخلقية ، مشيرا الى أنه كان

—٤—

يشتميز بقوة جسدية فائقة ، وأنه كان لا يبالي بحر ولا برد ، ولا يعني ذلك أنه كان فاقد الحس ، وإنما كانت عنده مناعة لم يحظ بها معظم الناس . .  
ثم عدد صفاته الخلقية . . فبين أنه كان شجاعا لا ينهض له أحد في ميدان مناجزة ، وجريئا على الموت لا يخشى قرنا من الاقران مهما كانت قوته ، وذاعت شهرته ، واستدل على ذلك بتجرئه وهو فتى ناشئ على ملاقات فارس الجزيرة العربية « عمرو بن ود » الذي كان يقوم بألف رجل عند أصحابه وعند أعدائه . . وكان يزين تلك الشجاعة النادرة التورع عن البغي ، والمروءة مع الخصم ، وسلامة الصدر من الضغن على العدو بعد الفراغ من القتال . .  
واقترنت شجاعته بالاعتزاز والثقة ، وتمكنت الثقة من نفسه ، فحملها من ميدان الشجاعة الى ميدان العلم والرأي ، فكان يقول : « اسألوني قبل أن تفقدوني ، فوالذي نفسي بيده لا تسألوني في شيء فيما بينكم وبين الساعة ، ولا عن فئة تهدي مائة ، وتضل مائة ، الا أنبأتكم بنائعها ، وقائدها ، وسائقها ، ومناخ ركابها ، ومحط رحالها » . . . وحملها الى ميدان العبادة والطاعة ، فكان يقول : « ما أعرف أحدا من هذه الامة عبد الله بعد نبينا غيري . . عبت الله قبل أن يعبده أحد من هذه الامة تسع سنين » .

وهذه الثقة جعلته لا يتكلف ، ولا يحتال على أن يتألف ، ولا يقبل التكلف من مادحيه ، ولا يمكن أن تسمى هذه الثقة زهوا ، لان العجب كان من أبغض الصفات لديه . . وكانت قلة التكلف توافق منه خلقته الكبرى من الشجاعة ، والبأس ، والامتلاء بالثقة ، والمنعة ، فكان يخرج لمبارزته حاسر الرأس وهم مقنعون بالحديد . . كما وافقت منه خليقة الصدق الصراح الذي يجترئ به الرجل على الضر والبلاء ، كما يجترئ به على المنفعة والنعماء ، فما تجاوز قول الصدق في شدة ولا رخاء ، وكان يقول : « علاقة الايمان أن تؤثر الصدق حيث يضرك على الكذب حيث ينفعك ، وألا يكون في حديثك فضل على علمك . . . » .

وصاحبه صدقه الصراح في تقواه وايمانه ، فكان زاهدا كأعظم ما يكون الزاهد . . وكان أبعد الناس من كزادة طبع ، وضيق حظيرة ، وجفاء عشرة . . وكان يتبسط في سماحته حتى قيل : « ان فيه دعاية » ، وبالح عمر بن العاص فوصفها بدعاية شديدة ، في محاولة منه للقذح في صلاحيته للخلافة ، ورد الكاتب على هذا الادعاء ، مبينا أن تاريخ علي وأقواله ونوادره مع صحبه وأعدائه ليس فيها دليل على خلق الدعاية ، فضلا عن الدليل على الافراط فيه ، وأن دعة علي حسبت من الدعاية البريئة ، ثم بالغ فيها المبالمون ، وليس لديهم اثبات على ما يدعون . .

وكان للامام مزايا فكرية لا تقل عن صفاته النفسية ، ومحاسنه الخلقية ، فاتفقت الآراء على بلاغته ، وعلمه ، وفطنته .

—٥—

وآداب الفروسية اعتبرها الكاتب مفتاح شخصية الامام ، ولخصها في النخوة التي فطر عليها ، وكانت من آداب أسرته الهاشمية ، وعادة من عادات الفروسية العملية ٠٠ فكانت نخوته تمنعه من أن يعمل في السر ما يورى به في العلانية ، ومن أن يهتبل فرصة سانحة الا اذا قامت على الشرف ، وخير دليل على ذلك ما حدث في صفين ، حين استولى جيش معاوية على الماء ، وحرموا منه عليا وجنده ، واستطاع جيش علي أن يتقلب على جيش معاوية ، ويستولي على الماء ، فقال لاصحابه : « خذوا من الماء حاجتكم ، وارجعوا الى عسكركم ، وخلوا عنهم ، فان الله عز وجل قد نصركم عليهم بظلمهم وبغيتهم » وكذلك وصاياہ لجنوده التي سن لهم فيها سنة النخوة في حرب البصرة ٠٠ وموقفه من عمرو بن العاص الذي عمد الى كشف سواته بعد أن تمكن علي منه في معركة صفين ، ولو كان غير علي ما ترك تلك الفرصة التي كانت ستريجه من مكمن عداء وهاء ٠٠

ونخوته هي التي حالت بينه وبين مجازاة خصومه في السباب ، لانه خير من يعلم بان النخوة لا تبيح للفارس أن ينال من عدوه بغير الجسم ، واذا كان قد قال في بعض الظروف ما جعله يشذ عن تلك السنة ، فليس ذلك الا كما يشذ الفرسان ، حين تغلبهم بواذر اللسان ، وهذه الغلطات شيء ، واتخاذ السباب صناعة وسلاحا وسبيلا الى الباطل شيء آخر ٠٠ وكانت نخوة الفروسية لدى الامام يصاحبها نزعة الى التصوف ، واعتبر المناقدون أن هذه النزعة لا تمازج الفروسية ، ورد عليهم الكاتب بأن التصوف في معدنه جهاد في الحق ، أو جهاد في الله .

ولد علي في الكعبة ، وكان ذلك كان ايذانا بعهد جديد لها ، وكاد أن يولد مسلما ، بل لقد ولد مسلما حقا ، فكرم الله وجهه عن السجود للاصنام ، وتفتحت عينيه على الاسلام ، وتربى في بيت النبوة ، وتطلع الى عبادة النبي وزوجه الطاهرة خديجة ، واسلم صغيرا ، ولم تكن قرابته من الرسول هي سبب اسلامه ، فكم من اقرباء الرسول من تصدى له ، وتمسك بدين الآباء زمنا طويلا ، كما لم تكن الالفه بينه وبين النبي - صلى الله عليه وسلم - هي السبب ، بل أوشكت أن تكون عائقا لاسلامه في طفولته الباكرة ، لولا أن علم أبو طالب بأمر الدعوة ، فنصر محمدا ، وأمر عليا بمتابعته ، فأقبل على الدين الجديد اقبالا لا تلجلج فيه ، فكان مسلما حقا في عبادته ، وفي علمه وعمله ، وفي قلبه وعقله ، وكان دينه له ولعدوه ، بل له ولعدو دينه ٠٠

وامتاز بالفقه الذي يراد به الفكر المحض ، والدراسة الخالصة ، فأمعن فيه ليفوص في أعماقه على الحقيقة العلمية ، أو الحقيقة الفلسفية - بلفظة العصر - ٠٠ ولذا يمكن القول بأن الامام أبو علم الكلام في الاسلام ٠٠ ونهج

٦٠

البلاغة قد حوى الكثير من الكلمات التي تنسب اليه ، ويصح أن تنسب أصلا للعلم الالهي ٠٠ كما يمكن القول بأنه كان يتعلم للقرآن الكريم ، ويستوحيه نصا في عرفان اسلامه ، وتقرير ايمانه ، فكان مبتكرا في نظراته الى الخلق والخالق ، وجاء في أقواله عن الخفاش والطاووس ما يدل على ذلك ، فكان مؤثرا للاجتهاد ما استطاعه ، معرضا عن التقليد ما استغنى عنه ، وكان اسلامه اسلام المطبوع الذي يبتكر دينه ، والحكيم المجتهد الذي يرجع في الحكمة والاجتهاد الى رياضة النفس ، وتمحيص الفكر ٠٠ والرجل الذي أتبع له أن يتعلم لربه ، ويتربى في حجر نبيه ، ويصبح اماما للمقتدين من بعده .

وعصر الامام انفراد بظاهرة اجتماعية لم تكن في عصور الخلفاء من قبله ، وهذه الظاهرة أن المجتمع صار ذا شقين : شق يؤيد النظام الاجتماعي القائم ، ويسعى الى بقاءه وتدعيمه ، وهو حصة معاوية في الشام وما جاورها ٠٠ وشق تآثر على هذا النظام ، ويسعى الى تقويضه ، وهو حصة علي في الجزيرة العربية بكل أحنائها ٠٠

والشام يمكن وصفها بأنها أرض أموية منذ عهد الجاهلية ، حين لجأ اليها أمية بعد أن صارت الزعامة لهاشم ، وبعد ظهور الاسلام حيث كان يقصدها الامويون في تجارتهم وهجرتهم ، وتولى امرتها يزيد بن أبي سفيان في عهد الصديق ، ومعاوية في عهد الفاروق ، وظل واليا عليها بضعة عشرة سنة الى أن بويع علي بالخلافة ، فثبت أركانه ، وأسس السلطان الاموي فيها ٠٠ وكانت سياسته مع السواد والإشراف وذوي الاخطار تقوم على أساس اجتذابهم نحوه كل بما يؤثر فيه ، الى حد أن قصده عقيل بن أبي طالب حين رفض أخوه الامام أن يجري عليه من بيت المال ، وكان يقول : « ان أخي خير لي في ديني ، ومعاوية خير لي في دنياي » . وساق الكاتب حادثة الدمشقي الذي ادعى على كوفي دخل دمشق بأن الناقة التي معه ملك له فقدها في صفيين ، وحكم معاوية للدمشقي بالناقة ارضاء له ، وعوض الكوفي وأحسن اليه لما أخبره أنه جمل وليس بناقة ، وقال له : « أبلغ عليا أنني أقبله بمائة ألف ما فيهم من يفرق بين الناقة والجمل » . وهذا خير شاهد على دهاء معاوية في سياسته التي رسمها لينال تأييد الجميع ، فاجتمع له كل منتفع بهذا النظام ٠٠ وكانت له سياسته مع صيحات التمرد ، فيبادر باسكاتها ٠٠ فمن أسكته المال جعل المال سلاحه معه ، ومن كان جادا مخلصا في العبادة والزهد ولا يغريه المال ، احتال على ابعاده ونفيه من الشام ، كما فعل مع أبي ذر ، وعبد الله بن سبأ ، وغيرهما ٠٠ وما مر عام الا وازداد رصيده من الرضا والاستقرار ، حتى تحيزت له الشام جميعها عند مبايعة علي ٠٠

أما علي ٠٠ فأوشكت أن تنعدم دواعي السكينة والرضا والاستقرار في حصته من الدولة ، وظهر تنافس شديد بين أهل مكة والمدينة والكوفة ،



—٧—

واستعصى عليه أن يرضي الجميع ، حتى ضاق به المقام في الحجاز ، فأوى الى الكوفة مأوى « المستجير من الرمضاء بالنار » ٠٠ وكانت قبائل البادية تنفس على قريش غنائم الولاية ومناصب الدولة ٠٠ وكان المحرومون من العبيد والموالي والاعراب غير راضين عن حظهم من العيس بعد أن شرع لهم الاسلام بالمساواة والانصاف ٠٠ وفي الوقت الذي كان فيه أجناده معاوية يستجيبيون للحق والباطل ، لانهم لا يميزون بينهما ، كان مع علي جمهرة القراء والحفاظ وأصحاب النسك والفقه والشريعة الذين يحتكمون في كل شيء الى الكتاب والسنة ، ولا يؤيدون القتال ، ولا يستجيبيون الا لما أباحوه أو استوجبوه ٠٠ كما كان في كفته الطامعون في الخلافة ، والمتطلعون إليها ٠٠ ومنهم من كان يحارب عثمان ثم صار يحارب عليا باسم عثمان ٠٠ ومنهم من كان يتعلل بقلّة المشاورة له والمبالاة بقوله ٠٠ ومنهم كبار الصحابة الذين انطلقوا في عهد عثمان ، فأثروا حتى ان أيدي الرجال كانت تمحل وهم يقطعون الذهب الذي خلفوه بالفؤوس ٠٠ وهؤلاء صاروا قادة التمرد على علي ، لانهم أدركوا أنه لن يقرهم على ما هم فيه ، وعرفوا مذهبه في حساب الولاية والخلافة ، فليس مذهبه واليا أو خليفة بمريح أولئك الاغنياء والذين ذاقوا حلاوة الغنى ، وكرهوا أن يحرموه ، أو يحاسبوا عليه ٠٠ هذه النماذج كانت نصيب علي في حصته ، فكانت من أقوى أسباب القلق والتبرم والنفور ، على عكس نظرائهم في حصة معاوية ٠٠ بالاضافة الى ذلك ٠٠ فهناك علة اعتبرها الكاتب من أكثر العلل التي تبتلى بها دولة أو حكومة ٠٠ وهي اعتمادها في مواردها على غيرها ٠٠ في حين أن حصة معاوية كان فيها من سعة الثروة ما يسع كل صاحب حاجة مقيم عنده أو ساع اليه ٠٠ وما يمكن قوله عن علي ومعاوية : أن أحدهما كان يعمل والحوادث حرب عليه ، والاخر يعتل والحوادث عدة في يديه .

ولقد بويع الامام بالخلافة بعد فاجعة مقتل عثمان ، التي كانت بلاء لا يدفع ، وقضاء لا حيلة لاحد في اتفائه وألقى الكاتب الضوء على المآخذ التي أخذت على عثمان ، فأثارت النفوس ، ودفعت الى التذمر والتمرد ، فتألب الناس عليه من كل صوب ، حتى فلت الزمام ، وكان ما كان ٠٠ وبرأ العقاد عليا من دم عثمان ، وذكر أنه كان يقوم دائما برد الثوار عنه ، وفي المرة الاخيرة توسط بين الخليفة والثوار ، حتى استمهلهم عثمان ثلاثة أيام يحقق خلالها مطالبهم ، ومضت المهلة ، ولم تتحقق المطالب ، فأدرك الثوار أنهم مأخوذون بالانتظار ، فتسوروا الدار ، وولغوا في دم طهور لو هان على صاحبه أن تسفك الدماء في سبيله لعز عليهم أن يسفكوه ٠٠٠ وأتى برواية شداد بن أوس عن مقتل عثمان ، وكل ما فيها يبرئ عليا مما اتهم به ٠٠ وقد لعب مروان بن الحكم

دورا في ايغار صدر الخليفة على علي ، وأوقع من روعه أن عليا على رأس الساعين بين الناس بالكيد له ، وتآليب الثائرين عليه ، حتى جعل عثمان لا ينظر الى علي بعين المودة والثقة ..

ولم يكن هناك أصعب ولا أخرج من موقف الامام ، فالثوار كانوا يعتبرونه المسئول الاول عن الاصلاح ، والخليفة يحسبه المسئول الاول عن تهدة الموقف ورد الثوار ، وكانت حيرته بين تقريب عثمان له ، وابعاده عنه ، أشد من حيرته بين الخليفة والثوار .. وبعد مقتل عثمان ظلت المدينة خمسة أيام يلتسمون من يجيبهم الى القيام بالامر ، ولا مجيب .. الحوا على علي ، وطلبوا الزبير ، وطلحة ، ثم سعد بن أبي وقاص ، وعبد الله بن عمر ، فلم يجدد الا الرفض .. فرجعوا الى علي ، وأخذوا الاشترا النخعي بيده ، فبايعه ، وبايعه الناس حتى طلحة والزبير ، ونهج علي سياسة من أحسن السياسات ، فأخذ في تجنيد قوى الخلافة الدينية لمواجهة قوى الملك الديونية ، وعزل الولاة المتهمين ، ورد أملاك المسلمين المسلوبة ، وسار على نهج الصديق والفاروق فسي تجنب كبار الصحابة المتطلعين الى الامارة فتنة الولايات .. ولعل هذا هو ما أثار عليه طلحة والزبير بعد أن بايعاه ، ولم تمضي أيام معدودة حتى تجمع على علي جميع الولاة المنتفعون في عهد عثمان ، وجميع الطامعين في الانتفاع بالولاية ، وحالت الخلافة الجديدة بينهم وبين ما يبغون ، فخرج الجميع وعلى رأسهم طلحة والزبير ، وطالبوا عليا بدم عثمان ، وهم لم يدفعوا عنه في حياته بعض ما دفع علي عنه ، وجمعوا حشودهم الى البصرة ، وكانت السيدة عائشة معهم تناصر طلحة القرابته ، والزبير زوج اختها أسماء ، ولم تكن قد نسيت موقف علي في حادثة الافك حين أشار على الرسول بتطليقها .. وكانت وقعة الجمل التي انتصر فيها علي ، وقتل الزبير ، ومات طلحة متأثرا بجراح المعركة .. غير أن المعركة كشفت عن مصاعب القيادة لجنود الامام ، فكانوا آراء متباينة ، وأهواء متناقضة .. الثوار لا يستندون الى فكر أو روية ، والحفاظ والقراء في اجتهادهم يقرون هذا ، ويرفضون ذلك ، بل كان في جيشه من يعمل لصالح خصمه كالاشعث بن قيس ..

ولم يبق أمام علي من الخصوم أقوى من معاوية ، فآثر علي — كعادته — خطة المسالمة ، والبدء بالاقناع في عدد من الرسائل المتبادلة بينه وبين معاوية ، والتي ظهر منها عنت معاوية ، ورفضه للمسالمة ، فوجد علي أن الصدام مع معاوية حتمي ، فزحف بجيشه الى صفين ، وكاد النصر أن يتم لعلي ، لولا خدعة رفع المصاحف ، وطرح قضية التحكيم ، واجبار علي من قبل أجناده على قبولها ، واکراهه على اختيار أبي موسى الاشعري ، وانتهت المأساة بتلك المهزلة ، أو انتهت المهزلة بتلك المأساة : خلع علي ، وتثبيت معاوية !! وصدق

قول علي في حق أنصاره : « ... ومن فاز بكم فقد فاز والله بالسهم الاخيبي ... » وازداد موقف علي حرجا وصعوبة بحركة الخوارج الذين مردوا على الشقاق ، واتهموه وأصحابه بالكفر لقبولهم التحكيم ، وحاول الامام ردهم واقناعهم ، فأصروا على قتاله ، وبعد أن بدأوه بالعدوان ، ونفذ صبره ، قاتلهم وهزمهم شر هزيمة ..

وتصدى الأشعث بن قيس لصرف الاجناد عن علي ، وتثييط همهم في محاربة معاوية ، في الوقت الذي علا فيه نجم معاوية ، وانضم اليه طلاب المنافع ، ولم يمض عامان ، حتى كانت معه مصر ، والمدينة ، ومكة ، وبقي علي في أرباص الكوفة يائسا منعزلا عن الناس ، يتمنى الموت كما قال في بعض خطبه ، ويوجس شرا من أقرب المقربين اليه ..

ونسجت المقادير نسجها الاخير حينما اتفق ثلاثة من الخوارج على قتل علي ، ومعاوية ، وعمرو بن العاص .. فنجا عمرو ، وأصيب معاوية ، وكانت الشهادة من نصيب الامام ، فضربه عبد الرحمن بن ملجم بسيف مسموم في جبينه وهو خارج للصلاة ، فمات بعد أيام ، وقبل أن يموت حذر بني عبد المطلب على العموم ، وابنه الحسن على الخصوص من المثلة القاتلة ، أو التعرض لغير قاتله ..

وانتهت الحياة النبيلة بعد أن قدمت معرضا حافلا بالعواطف الانسانية ، التقت فيه عوامل النخوة ، والشجاعة ، والوفاء ، والايمان ، والسماحة ، ولامست سيرة الامام النفس الانسانية في شتى نواحيها .. وتلك مزية الامام .

وقد لام الكاتب من جردوا الامام من خدع الحرب والسياسة . بحجة أنه لم يقبل مشورة الدهاة ، وأخفق فيما ارتآه وتساءل : أكان في وسعه أن يصنع غير ما صنع ؟ ولو كان في وسعه وصنع فهل العاقبة ستكون أسلم ؟؟ ورأى أن استجابته لأراء الدهاة لم تكن مضمونة النجاح ، ولا مأمونة الخطر ، وتناول الامور التي اعتبرت مأخذ عليه ، لمخالفته رأي الدهاة فيها .. كعزل معاوية من ولاية الشام ، وحزمه في معاملة طلحة والزبير ، وعزله لقيس بن سعد من ولاية مصر ، وعدم تسليمه لقتلة عثمان ، وقبوله للخلافة ، وحل هذه المواقف أعظم تحليل ، وقلبها على وجوها ، فكانت النتيجة أن عليا كان صاحب الحجة ، ورأيه كان الاصبوب ، أو أنه لم يكن ليستطيع أن يفعل غير ما فعل ، وأن الغلطة التي وقعت منه ويقل الخلاف فيها هي : عزله لقيس بن سعد عندما تشكك من مؤازرته لمعاوية ، وقد عرف الامام خطأه في ذلك ، فقال لصحبه : « ان مصر لا يصلح لها الا أحد رجلين : هذا الذي عزلناه — يعني قيسا — والاشتر » ولكن الاشترا مات في الطريق ..

ولقد سمع علي نفسه رأي أبطال الميدان في أسباب النصر والهزيمة ، وتمييزهم معاوية عليه بالدهاء والسياسة ، فقال : « ٠٠٠ والله ما معاوية بأدهى مني ، ولكنه يغدر ويفجر ، ولولا كراهية الغدر لكنت أدهى الناس ٠٠٠ » ٠٠ وعلل وضعه في قول آخر : « ٠٠٠ ولكنه لا رأي لمن لا يطاع » ٠٠ وعلل موقف أتباعه منه بقوله : « ٠٠ لم تكن بيعتكم إياي فلتة ، وليس أمري وأمركم واحدا ٠٠ اني اريدكم لله ، وأنتم تريدونني لانفسكم » ٠٠ أما خصمه معاوية ٠٠ فقد بين الأسباب التي أعانتة على علي بقوله : « انه كان رجلا لا يكتف سررا وكنت كتوما لسري ، وكان يسعى حتى يفاجئه الامر مفاجأة وكنت ابادر الى ذلك ، وكان في أخبث جند وأشدهم خلافا ، وكنت أحب الى قريش منه ، فنلت ما شئت » .

وكشف العقاد حقيقة أخرى ، وهي : أن معاوية لو كان في مكان علي لكانت هزيمة مرجحة بل مؤكدة ٠٠ ولم يقصد الكاتب بذلك أن يصف عليا بقوة الدهاء ، وسعة الحيلة ، وانما قصد أن يبرئه من عجز الرأي ، وضعف التدبير ، وساق أمثلة تكشف عن سداد رأيه ، وحسن مشورته ، وحزمه ، ومعرفته للرجال والجماهير ، وقال : ان هذا كاف لمهمة الحكم لو تصدى به الامام للخلافة والعصر عصر خلافة ، وليس بعصر دولة دنيوية مضطربة في دور تأسيسها ، وتلقيق أجزائها ، وأنه اذا كان لا بد من ملك أو خلافة ، فلا يمكن أن يكون ملكا بأدوات خليفة ، ولا خليفة بأدوات ملك ، ولن تبلغ به الحيلة أن يحارب رجلا يريد العصر والعصر يريده ، لانه عصر ملك تهيات له الدواعي الاجتماعية ، وتهيا له الرجل بخلائقه ، ونياته ، ومعاونة أمثاله ٠٠

ورد الكاتب على الناقدين لعلي فوات الخلافة عليه منذ وفاة الرسول حتى فاجعة عثمان ، وبين ان ذلك كان لأسباب خارجة عن ارادة علي ، فهناك عامل العصبية ، وعامل السن ، وعامل الصنعة العالمية للدولة الاسلامية ٠٠ ومهما يكن من حكم الناقدين لسياسة الامام ، فمن التعسف أن يطالب بدفع شيء لا سبيل الى دفعه ، وأن يحاسب على مصير الخلافة ، وهي منتهية لا محالة الى ما انتهت اليه ٠٠ ومن التعسف أن يلام الامام ، لانه باء بشهادة الخلافة ٠٠ ولا بد لها من شهيد ٠٠

لقد كان في سياسته فهم وعلم ، وان لم يكن فيها الحيلة العملية التي هي الى الغريزة أقرب منها الى الذكاء ، فكان نعم الخليفة لو صادف أوان الخلافة ، وكان نعم الملك لو جاء بعد توطيد الملك ، واستغنائاه عن المساومة والاسفاف . ولو انتقلنا الى حكومة الامام ٠٠ نرى ان الفترة التي قضاها في الخلافة لم يبارحها الصراع لحظة ، وكان الصراع داخليا لم يتجاوز الحدود ، فانقضت أيامه وليس للحكومة الاسلامية سياسة خارجية ، وانما كان لها سياسة داخلية ٠٠ فكانت سياسة مع رعاياه أساسها أن يكون الناس في الحقوق

- ١١ -

سواء ، فلا اجحاف بالضعفاء ، ولا محاباة للأقوياء . . . واستدل الكاتب على ذلك بموقفه من القطائع التي وزعت قبله على المقربين والرؤساء ، وفرضه على ولاته الرفق بالرعية ، وساق مثالا من وصاياه لولاته ، ووصاياه في تحصيل الخراج والصدقات ، ودستوره في تحصيل الضرائب ، ودستوره في الولاة والعمال . . .

ورد الاستاذ العقاد على من اتهموا عليا بأنه أثر الاقرباء بالولايات ، فأتى ما أنكره علي عثمان من قبله . . . وبين أن هذا نوع من المقارنة بالاشكال والحروف دون البواطن والغايات ، فظروف الامام قد اضطرت له لذلك بعد أن حاربتة قریش ، وشاعت الفرقة والشغب بين أعوانه من أبناء الامصار ، وأنه كان يحاسب أقاربه من الولاة على ما في أيديهم أعسر حساب ، حتى أنهم كانوا يتركون ولاياتهم ويستقيلون منها كما فعل ابن عباس حين هجر البصرة الى مكة ، وكان يؤنب ولاته على حضور الولائم التي لا يجمل بهم حضورها . . . فكان الروح الانساني هو قوام الحكومة الامامية كما ينبغي أن يكون . . . وأثبت الكاتب للامام عذره في حرقه للروافض الذين ألوهه ، وأشار الى أن الحقوق العامة في حكومة الامام كان لها شأن لا ينسى مع حقوق الافراد ، وإن اختياره للكوفة عاصمة للامامة العالمية كان أوفق اختيار ، لأنها كانت ملتقى الشعوب من جميع الاجناس ، لمكانتها التجارية الهامة ، ومركزها الثقافي الممتاز .

وعن النبي والامام . . . ذكر الكاتب أن هناك العديد من الاحاديث المتواترة في فضل علي ومحبته ، منها ما انفرد به كحديث الخيمة الذي رواه الصديق ، ومنها ما اشتهر فيه مع غيره كما جاء في رواية عائشة حين سئلت عن أحب الناس الى رسول الله ، واستخلص من آراء المتشيعين لعلي أو عليه في تأويل هذه الاحاديث ، ان عليا كان من أحب الناس الى النبي ان لم يكن أحبهم اليه على الإطلاق ، فهو ابن عمه الذي كفله ، وربيبه ، وزوج أحب بناته اليه ، وبديله في الفراش ليلة الهجرة ، ونصيره في غزواته ، وتلميذه الذي تعلم على يديه ، لذلك لم يقف الامر عند حب النبي له ، وإنما كان يحببه الى الناس ، وذكر الكاتب العديد من أقوال النبي في ذلك ، ومنها : « أيها الناس ، لا تشكوا عليا ، فوالله انه لجيش في ذات الله » ولاح له أن النبي بذلك ، وبما وكل اليه من أعمال ، كان يهيئه للخلافة في وقت من الاوقات ، على أن يكون اختيار الناس له طوعية وحبا . . .

وعن علي والصحابة . . . بين الكاتب أنها كانت علاقة زمالة مرعية ، وتنافس يشوب الى الصبر والتحمل والتقية ، فلم تربطه بهم الفة حميمة ، ولم تقصه عنهم عداوة وبغضاء ، فليست طبيعته بالتي تحقد على الناس ، وإن حقد الناس عليها وأفرطوا . . . وألح الى موقفه من الخلفاء السابقين ، وأنه كان يرى

نفسه أحق بالخلافة ، ولقد تخلف ستة أشهر عن مبايعة الصديق ، ثم قال له يوما : « انه لم يمنعنا من أن نبايعك يا أبا بكر انكار لفضيلتك ، ولا نفاسة عليك بخير ساقه الله اليك ، ولكننا كنا نرى ان لنا في هذا الامر حقا ، فاستبددتم به علينا » . . . ومع ذلك فقد أظهرت أحاديثه أنها أقل ما تشعر به النفس الانسانية في هذه الحالة من النفرة والنقمة ، ولم تسجل عليه كلمة تستغرب من مثله . . . وأعان الخلفاء السابقين برأيه وعلمه ، وجاملهم مجاملة الكريم بمسلكه ومقاله ، وكان وفياء معهم في حياتهم وبعد مماتهم ، ومخطيء من يستند الى فتواه في مقتل الهرمزان كدليل على كراهيته لعمر ، أو نقمة منه في أبنائه . . .

وكان أعرف بالعهد ، وأصون له حتى في حومة الحرب ، وليس أدل على ذلك من موقفه مع طلحة والزبير في وقعة الجمل . . . ولم يرزق الالفة الحميصة ، لانه من أصحاب المزايا التي تغرى بالمنافسة والحسد . . . فهو شجاع ، عالم ، بليغ ، ذكي ، موصول النسب بأعرق الارومات . . . فان لم يحسد هذا فمن يحسد ؟ وهكذا فرضت على الرجل العظيم ضريبة العظمة الغريبة في ديارها ، وبين آلهة وأنصارها . . .

فالعلاقة بينه وبين كرام الصحابة كانت علاقة الزمالة التي ينوب فيها الواجب مناب الالفة . . . والعلاقة بينه وبين خصومه كانت علاقة حسد غير مكفوف ، وبغض غير مكتوم . . . والعلاقة بينه وبين سواء العامة كانت علاقة غرباء يجهلون ، ولا ينفذون الى لبابه ، وإن قاربه اناس معجبون ، وباعده اناس نافرون . . . وتلك أيضا آية الشهيد .

وفي تناول العقاد لثقافة علي . . . تعرض للقب الامام الذي اختص به ، بحيث اذا أطلق لا ينصرف لسواه ، مع ان من سبقوه من الخلفاء كان كل منهم اماما !! وأرجع ذلك الى أن الامامة في عهد الخلفاء لم يكن عليها صراع ، فكلهم امام حيث لا اشتباه ولا التباس ، ولكن الامام بغير تعقيب ولا تزييل هو الامام كلما وقع الاشتباه والالتباس . . . ولقد تفرد الامام باتصاله بمذاهب الفرق الاسلامية منذ وجدت ، واتصلت الحلقات بينه وبين علماء الكلام والتوحيد ، كما اتصلت بينه وبين علماء الفقه والشريعة ، وعلماء الادب والبلاغة ، فهو استاذ هؤلاء جميعا ، ومن هنا كان الاجدر بلقب الامام واتفق للامام في صفة الامامة - كغيرها من جل صفاته - آية من آيات الشهداء ، وهي بخس حقهم في الحياة ، واعطاؤهم فوق حقوقهم بعد الممات . . . فنحلوه ديوانا من الشعر ، وعلماء يسمى بعلم الجفر ، ومقامات خلت من حرف الالف ، وأقوالا لم تعرف من مصطلحات علم الكلام ، وبعض ما نحلوه يزيد قدرا ، ويرفعه شأننا ألا تصح نسبته اليه . . .

—١٣—

والامام نظم الشعر ، ولكنه لم يمتلك الاجادة فيه ، وكان ناقدا خبيراً ، وما نسب اليه في التوحيد ، والقضاء ، والفقه ، وعلم النحو ، وفن الكتابة ، وفرائد الحكمة ٠٠ هذه كلها ذخائر يمكن أن تكون أساساً لموسوعة المعارف الاسلامية ٠٠

وللامام فضل كبير في انشاء علم النحو ٠٠ وهو الذي أضفى صبغة الانشاء على الرسائل والعظات ، وكلمة الجوامع طراز فريد في حكمة السلوك على اسلوب الامثال السائرة ، وكل نمط من أنماط كلامه شاهد له بالملكة الموهوبة من قدرة الوعي ، وقدرة التعبير ٠٠ فهو — ولا شك — من أبناء آدم الذين علموا الاسماء ، وأوتوا الحكمة وفصل الخطاب ٠٠

أما ثقافته العسكرية ٠٠ ففنه العسكري فن بطل مغوار يناضل الافراد ، وينفع الجيش الذي هو فيه بقدوة الشجاعة ، واذكاء الحماسة ، وتعزيز الثقة بين صفوفه ، ويعرف كيف يهجم في الوقت الملائم ، وكيف يحتال على عدوه لتوهين عزمه ، وساق الكاتب بعضاً من وصاياه في تسيير الجيوش ، وتأديب الجند ، ومعاملتهم لسكان البلاد ٠٠

وعلى العموم ٠٠ فثقافة الامام ثقافة الفارس المجاهد بسيفه وقلمه ، ويتشابه في الجهاد بأسه وتقواه ، فهو فارس يتلاقى في الشجاعة دينه ودنياه ، وهو عالم يتلاقى في الدين والدنيا بحقه ونجواه ٠

ولقد كان للامام رأي خاص في المرأة ، خلاصته : أنها شر كلها ، وشر ما فيها أنه لا بد منها ، وكان يرى أن « خيار خصال النساء شرار خصال الرجال : الزهو ، والجبن ، والبخل ٠٠ فاذا كانت المرأة مزهوة لم تمكن من نفسها ، واذا كانت بخيلة حفظت مالها ومال بعليها ، واذا كانت جبانة فرقت من كل شيء يعرض لها » ٠٠

وكان يتلطف بالمرأة ، ويصفح عن عدوانها ، متأثراً في ذلك بآداب الفروسية التي طبع عليها ٠٠

ولم يكن رأيه في المرأة مستمداً من حياته البيتية ، وإنما من ثقافته ومعرفته لأراء الاقدمين فيها ، والا فقد كانت حياته على أحسن ما وصفت به الحياة الزوجية بين أمثاله ٠٠ عاش مع السيدة فاطمة ، ولم يتزوج باخرى في حياتها حتى ماتت بعد النبي بستة أشهر ، وكان وفيها لها ، وأنجبت له الحسن ، والحسين ، ومحسن ، وأم كلثوم ، وزينب ٠٠ ولما ماتت تزوج بعدها ، وكان وافر الحظ من الذرية ٠٠

وكان أبا سمحاً يستريح الابناء الى عطفه ، ويجترئون على مساجلتهم الرأي ، وكان يشعر بالزهو حينما يحيط به أبناؤه في محافل الروع أو مشاهد الزخرف ، وزهوه كان زهو الشجاع الفخور بأشباله الشجعان ٠

ومن أقواله : « ان للوالد على الولد حقاً ، وان للولد على الوالد حقاً ،  
فحق الوالد على الولد أن يطيعه في كل شيء الا في معصية الله سبحانه ، وحق  
الولد على الوالد أن يحسن اسمه ، ويحسن أدبه ، ويعلمه القرآن » .  
وكانت عيشته عيشة زهد وكفاف : يطحن لنفسه ، ويأكل الخبز  
اليابس الذي يكسره على ركبته ، ويلبس الرداء الذي يرد فيه .  
وعموماً . لم يمت أحد من رعاياه عن نصيب أقل من النصيب الذي  
مات عنه وهو خليفة للمسلمين ، في وقت كانت الخلافة تناقض ملك الدنيا ،  
ولكن بيته كان تقيض القصر الذي تعرض الدنيا المملوكة بين أركانه وزواياه .  
ان الشجاع جريء على الدنيا ، لانه لا يبالي الحياة ، والزاهد جريء على  
الدنيا ، لانه لا يبالي النعيم ، وطالب الحقيقة جريء على الدنيا ، لان غايته من  
ورائها . . . والامام خلق متجرئاً على الدنيا بشجاعته ، وزهده ، وطلبه  
للحقيقة ، فأى مصير ينتظره غير الشهادة ؟ انه مستشهد حتى ولو مات على  
سريره ، وحياته آيات من آيات الشهادة . . . ولئن كان قد أخفق . . فانه  
أخفق حيث يشرفه الاخفاق ، وحيث يخفق الآخرون لو نصبتهم الاقدار في مثل  
مكانه ، ولا يمكن القول : بأنه أخفق في العمل لانه لم يغلب القدر ، فذلك  
تكليف بما لا يطاق . .

وبفوز الامام بالشهادة . . كانت نهاية البداية ، وبداية النهاية .  
ولا يسعني في النهاية الا أن اقدم تحية اعجاب بالبطل والكاتب . . هذا  
في طهارة نشأته ، وعراقة أرومته ، ونقاء سريره ، وعلو همته ، وقوة ارادته ،  
وغزارة علمه وثقافته ، وروعة زهده وحكمته ، وصدق ايمانه وشجاعته ،  
وثباته على الحق ونصرته ، وتضحيته في سبيله بروحه ومهجته . . والآخر . .  
في جمال عرضه ، وصحة نقده ، وقوة رده ، وحلاوة لفظه ، ودقة فهمه ،  
وبراعة فكره ، ونبل قصده . .  
تحية . . وألف تحية .

مهدي عبد الحميد مصطفى  
مبعوث الازهر الشريف في لبنان



## تقديم

في كل ناحية من نواحي النفوس الانسانية ملتقى بسيرة علي بن أبي طالب رضوان الله عليه ..

لأن هذه السيرة تخاطب الانسان حيثما اتجه اليه الخطاب البليغ من سير الأبطال والعظماء ، وتثير فيه أقوى ما يثيره التاريخ البشري من ضروب العطف ومواقف العبرة والتأمل .

في سيرة ابن أبي طالب ملتقى بالعاطفة المشبوبة<sup>(١)</sup> والاحساس المتطلع الى الرحمة والاكبار .. لأنه الشهيد أبو الشهداء ، يجرى تاريخه وتاريخ أبنائه في سلسلة طويلة من مصارع الجهاد والهزيمة ، ويتراءون للمتتبع من بعيد واحدا بعد واحد شيوخا جللهم<sup>(٢)</sup> وقار الشيب ثم جللهم السيف الذي لا يرحم ، أو فتيانا عوجلوا وهم في نضرة العمر يحال بينهم وبين متاع الحياة ، بل يحال بينهم أحيانا وبين الزاد والماء ، وهم على حياض المنية جِيعا<sup>(٣)</sup> ظمأ .. وأوشك الألم لمصرعهم أن يصبغ ظواهر الكون بصبغتهم وصبغة دمائهم ، حتى قال شاعر فيلسوف كأبي العلاء لا يظن به التشيع بل ظنت باسلامه الظنون :

وعلى الأفق من دماء الشهيد      ين علي ونجلاه شاهدان  
فهما في أواخر الليل فجرا      ن ، وفي أولياته شفقان

وهذه غاية من امتزاج العاطفة بتلك السيرة قلما تبلغها في سير الشهداء غاية ، وكثيرا ما تتعطش اليها سرائر الأمم في قصص الفداء التي عمرت بها تواريخ الأديان ..

وفي سيرة ابن أبي طالب ملتقى بالخيال حيث تحلق الشاعرية الانسانية

---

(١) أي المتوقدة . (٢) أي اكسبهم جلالا وعظمة . (٣) أي الموت .

فى الأجواء أو تغوص فى الأغوار<sup>(١)</sup>. فهو الشجاع الذى نزعته به الشاعرىة الانسانية منزع الحقىقة ومنزع التخیل ، واشترك فى تعظىمه شهود العىان وعشاق الأعاجىب ... ألم یحارب المردة فى فلواتها ؟ .. ألم یخلق له الرواة أندادا من المناجزین والمبارزین لم یخلقهم الله ؟ .. ألم ىستصغر علیه المحبون الغالبون فى الحب أن یصرع من عرفنا من خصومه فأنشئوا له من الخصوم المغلوبین من لم یعرفهم ولم یعرفوه ؟ .. ألم یوشك من وصفوه ووصفوا وقعاته وفتكاته أن یلحقوه بأبطال الأساطیر وهو هو أصدق الأبطال فى أصدق مجال

وتلتقى سیرته - علیه رضوان الله - بالفكر كما تلتقى بالخیال والعاطفة ، لأنه صاحب آراء فى التصوف والشریعة والأخلاق سبقت جمیع الآراء فى الثقافة الاسلامیة ، ولأنه أحجى<sup>(٢)</sup> الخلفاء الراشدين أن یعد من أصحاب المذاهب الحکىمة بین حکماء العصور ، ولأنه أوتى من الذكاء ما هو أشبه بذكاء الباحثین المنقبین منه بذكاء الساسة المتغلبن ، فهو الذكاء الذى تحسه فى الفكرة والخاطرة قبل أن تحسه فى نتیجة العمل ومجرى الأمور ..

وللذوق الأدبى - أو الذوق الفنى - ملتقى بسیرته كملتقى الفكر والخیال والعاطفة ، لأنه رضوان الله علیه كان أديبا بلیغا له نهج من الأدب والبلاغة یقتدى به المقتدون ، وقسط من الذوق مطبوع یحمده المتذوقون ، وان تطاولت بینه وبنهم السنون . فهو الحکیم الأدیب ، والخطیب المبین ، والمنشئ الذى یتصل انشاؤه بالعربیة ما اتصلت آیات النائرن والناظمین ..

وللنفس الانسانية نواحیها الكثیرة غیر نواحى العطف والتخیل والتفكير ، وتذوق الحسن الجمیل من التعبير

فمن نواحیها الكثیرة ناحیة لم تنقطع قط فى زمن من الأزمان ، وهى ناحیة الخلاف بین الطبائع والأذهان ، أو ناحیة الخصومة الناشئة أبدا على رأى من الآراء ، أو حق من الحقوق ، أو وطن من الأوطان

(١) أى الاعماق • (٢) العتاة • (٣) أى أجدر •

فقد يفتر العقل والذوق بعض حين ، وقد يفتر الخيال والعاطفة بعض حين ، ولكن الذى لم يفتر قط ولا نخاله يفتر فى حين من الأحيان خصام العقول وجدل الألسنة واختلاف المختلفين وتشيع المتشيعين وان ها هنا للمجال الرغيب<sup>(١)</sup> والملتقى القريب فى سيرة هذا الامام الأوحد التى لا تشبهها سيرة فى هذه الخاصة بين شتى الخواص ، وهو رضوان الله عليه قد قال فى ذلك أوجز مقال حين قال :

« ليجبى أقوام حتى يدخلوا النار فى حبى ، ويبغضنى أقوام حتى يدخلوا النار فى بغضى » .. أو حين قال : « يهلك فى رجلان : محب مفرط بما ليس فى ومبغض يحمله شنائى<sup>(٢)</sup> على أن يبهتنى<sup>(٣)</sup> »

وصدق الامام الكريم فى غلو الطرفين من محبيه ومن مبغضيه . فقد بلغ من حب بعضهم اياه أن رفعوه الى مرتبة الآلهة المعبودين ، وبلغ من كراهة بعضهم اياه أن حكموا عليه بالمروق<sup>(٤)</sup> من الدين : هنا الروافض الغلاة<sup>(٥)</sup> يعبدونه وينهاهم عن عبادته فلا يطيعونه .. ويستتبيهم فيصرون على الكفر أى اصرار ، ويأمر باحراقهم فيقولون وهم يساقون الى الحفيرة الموقدة : انه الله وانه هو الذى يعذب بالنار ! ..

وهناك الخوارج الغلاة يعلنون كفره ويطلبون منه التوبة الى الله عن عصيانه .. ويسبونه على المنابر كما سبه خصومه الأمويون الذين خالفوهم فى العقيدة ووافقوهم على السبب ..

ميدان من ميادين الملاحة لم يتسع قط ميدان متسعه فى تواريخ الأبطال المعرضين للحب والبغضاء : يقول اناس : اله . ويقول اناس : كافر مطرود من رحمة الله ! ..

وناحية أخرى من نواحي النفس الكثيرة تلاقيها سيرة الامام فى أكثر من طريق : وتلك هى ناحية الشكوى والتمرد أو ناحية الشوق الى التجديد والاصلاح ..

فقد أصبح اسم علي علما يلتف به كل مغصوب ، وصيحة ينادى بها كل طالب انصاف ، وقامت باسمه الدول بعد موته لأنه لم تقم له دولة فى

(١) فتر يفتر فتورا وفتارا : سكن بعد حدة ، ولان بعد شدة ، والفتر : الضعف . (٢) الواسع . (٣) بغضى . (٤) بهتنه : قال عليه ما لم يفعل . (٥) بالخروج . (٦) المجاوزون الحد .

حياته ، وجعل الغاضبون على كل مجتمع باغ ، وكل حكومة جائرة يلوذون بالدعوة العلوية كأنها الدعوة المرادفة لكلمة الإصلاح ، أو كأنها النفس الذي يستروح اليه كل مكظوم .. فمن نازع في رأى ، ففى اسم علي شفاء لنوازع نفسه ، ومن ثار على ضيم<sup>(١)</sup> ففى اسم علي حافز لثورته ومرضاة لغضبه ، ومن واجه التاريخ العربى بالعقل أو بالذوق أو بالخيال أو بالعاطفة فهناك ملتقى بينه وبين علي في وجهه من وجوهه ، وعلى حالة من حالاته ، وتلك هى المزية التى انفرد بها تاريخ الإمام بين تواريخ الأئمة الخلفاء ، فأصبحت بينه وبين قلوب الناس وشائج<sup>(٢)</sup> تخلقها الطبيعة الآدمية ان قصر في خلقها التاريخ والمؤرخون...

وكل ملتقى من هذه الملتقيات يدع الكاتب في حذر ما بعده من حذر ، لأن اشتباك العوامل النفسية يزيد صعوبة الباحث عن نفس من النفوس ، ولا ينقصها أو يثول بها الى البساطة والوضوح ، وكلما قلت هذه العوامل وانحصرت في ناحية من النواحي سهل الخلوصل الى مقطع الحق فيها ، فالبطل الذي يلتقى بالفكر وحده أسهل من البطل الذي يلتقى بالفكر والعاطفة ، وان هذا لأسهل من الذي يلتقى بالفكر والعاطفة والخيال ، وكل أولئك أسهل ممن يلتقى في ألف سنة متوالية بدخائل النفوس جميعا من طموح الى المثل الأعلى ، أو حرص على الملاحاة ، أو شغف بالبلاغة أو رياضة على التقوى ، مزيدا على الخيل والشعور والتفكير لهذا نعلم غير مترددين في علمنا أن واجبنا في « عبقرية الامام » مرسوم الغاية والطريق ، وهو واجب التبسيط والقصد الى الخطة الوسطى ، وفي علمنا بهذا بعض التيسير ، وان لم يكن فيه كل التيسير ، نرجع « بعبقرية الإمام » الى الحقيقة الوسطى

نرجع من عشرين طريقا الى بداية واحدة ، لأن الطريق الواحدة لا تؤدى اليها أقرب أداء . وحسبنا اننا عرفنا ضرورة الرجوع من كل هذه الطرق الى تلك البداية المقصودة فعلى بركة الله ..

**عباس محمود العقاد**

(١) ظلم . (٢) أي صلات . (٣) لاجاه ملاحاة ولحاء : نازعه .

## صفاته

المشهور عن علي كرم الله وجهه انه كان أول هاشمي من أبوين هاشميين .. فاجتمعت له خلاصة الصفات التي اشتهرت بها هذه الأسرة الكريمة وتقاربت سماتها وملامحها في كثير من أعلامها المقدمين ، وهي في جملتها النبيل والأيّد<sup>(١)</sup> والشجاعة والمروءة والذكاء، عدا المأثور في سماتها<sup>(٢)</sup> الجسدية التي تلاقت أو تقاربت في عدة من أولئك الأعلام

فهو ابن أبي طالب بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف ، وأمه فاطمة بنت أسد بن هاشم بن عبد مناف

وقيل ان اسمه الذي اختارته له أمه : حيدرة باسم أبيها أسد ، والحيدرة هو الأسد .. ثم غيره أبوه فسماه عليا وبه عرف واشتهر بعد ذلك ..

وكان علي أصغر أبناء أبويه ، وأكبر منه جعفر وعقيل وطالب ، وبين كل منهم وأخيه عشر سنين

قيل ان عقيلاً كان أحب هؤلاء الأخوة الى أبيه ، فلما أصاب القحط قريشاً وأهاب<sup>(٣)</sup> رسول الله عليه السلام بعمية حمزة والعباس أن يحملوا ثقل أبي طالب في تلك الأزمة جاءوه وسألوه أن يدفع اليهم ولده ليكفوه أمرهم ، فقال : دعوا لي عقيلاً وخذوا من شئتم . فأخذ العباس طالباً وأخذ حمزة جعفر وأخذ النبي عليه السلام علياً كما هو مشهور . فعوضه إيثار النبي بالحج عن إيثار أبيه ، ولكنه عرف هذا الإيثار في طفولته الأولى فكان سابقة باقية الأثر في نفسه على ما يبدو من أطوار حياته التالية ، وجاءت لهذه السابقة لواحقها الكثيرة على توقع واستعداد

(١) جمع يد ، ومن معاني اليد : القوة والنعمة والاحسان . (٢) أي علاقاتها . (٣) أهاب بعمية : أي دعاها .

فتعود أن يفوته الحق والتفضيل وهو يدرج في صباه وربما صح من أوصاف عليٍّ في طفولته أنه كان طفلاً مبكر النماء سابقاً لأنداده في الفهم والقدرة ، لأنه أدرك في السادسة أو السابعة من عمره شيئاً من الدعوة النبوية التي يدق فهمها والتنبه لها على من كان في مثل هذه السن المبكرة . فكانت له مزايا التبكير في النماء كما كانت له أعباؤه ومتاعبه التي تلازم أكثر المبكرين ، ولا سيما المولودين منهم في شيخوخة الآباء ..

ونشأ رضى الله عنه رجلاً مكين<sup>(١)</sup> البنيان في الشباب والكهولة ، حافظاً لتكوينه المكين حتى ناهز<sup>(٢)</sup> الستين ..

قال واصفوه وهو في تمام الرجولة انه كان رضى الله عنه ربعة أميل الى القصر ، آدم — أى أسمر — شديد الادمة ، أصلع مبيض الرأس واللحية طولها ، ثقل العينين في دعج وسعة ، حسن الوجه واضح البشاشة ، أعيد<sup>(٣)</sup> كأنما عنقه ابريق فضة ، عريض المنكبين لهما مشاش كمشاش<sup>(٤)</sup> السبع الضارى لا يتبين عضده من ساعده قد أدمجت ادماجا . وكان أبجر — أى كبير البطن — يميل الى السمنة في غير افراط ، ضخم عضلة الساق دقيق مستدقها ، ضخم عضلة الذراع دقيق مستدقها ، شثن<sup>(٥)</sup> الكفين ، يتكفأ في مشيته على نحو يقارب مشية النبى ، ويقدم في الحرب فيقدم مهرولاً لا يلوى على شىء

وتدل أخباره — كما تدل صفاته — على قوة جسدية بالغة في المكافحة والصلابة على العوارض والآفات . فربما رفع الفارس بيده فجلد به الأرض غير جاهد ولا حافل ، ويمسك بذراع الرجل فكأنه أمسك بنفسه فلا يستطيع أن يتنفس ، واشتهر عنه انه لم يصارع أحدا الا صرعه ، ولم يبارز أحدا الا قتله ، وقد يزحزح الحجر الضخم لا يزحزحه الا رجال ، ويحمل الباب الكبير يعبى بقلبه الأشداء ، ويصيح الصيحة فتتخلع لها قلوب الشجعان

(١) قوي . (٢) قارب . (٣) الانسان المائل العنق . (٤) شاش : جمع مشاشة ، وهي : رأس العظم الممكن المضغ ، وأمش العظم : أقح . (٥) شثنت كفه : خشنت وغلظت .

ومن مكانة تركييه رضى الله عنه انه كان لا يبالي بالحر والبرد ، ولا يحفل بالطوارئ الجوية في صيف ولا شتاء ، فكان يلبس ثياب الصيف في الشتاء و ثياب الشتاء في الصيف ، وسئل في ذلك فقال : « ان رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث الى وأنا أرمد العين يوم خير فقلت : يا رسول الله ، انى أرمد العين . فقال : اللهم اذهب عنه الحر والبرد ، فما وجدت حرا ولا بردا منذ يومئذ .. »

\*\*\*

ولا يفهم من هذا أنه رضوان الله عليه كان معدوم الحس بالحر والبرد بالغاً ما بلغت بهما القساوة والايذاء . فقد كان يردد للبرد اذا اشتد ولم يتخذ له عدة من دثار يقيه . قال هرون بن عنترة عن أبيه : دخلت على على بالخورنق وهو فصل شتاء وعليه خلق<sup>(١)</sup> قطيفة وهو يردد فيه . فقلت : يا أمير المؤمنين ، ان الله قد جعل لك ولأهلك في هذا المال نصيباً وأنت تفعل هذا بنفسك ؟ .. فقال : والله ما أرزؤكم شيئاً ، وما هي الا قطيقتي التي أخرجتها من المدينة ...

فليس هو انعدام حس بالصيف والشتاء ، انما هي مناعة قوية خصت بها بنيته ، لم يخصص بها معظم الناس .

وكان الى قوته البالغة ، شجاعاً لا ينهض له أحد في ميدان مناجزة<sup>(٢)</sup> ، فكان لجرائته على الموت لا يهاب قرناً من الأقران بالغاً ما بلغ من الصولة ورهبة الصيت ، واجترأ وهو فتى ناشئ على عمرو بن ود فارس الجزيرة العربية الذي كان يقوم بألف رجل عند أصحابه وعند أعدائه ، وكانت وقعة الخندق فخرج عمرو مقنعا في الحديد ينادى جيش المسلمين : من يبارز .. فصاح على : أنا له يانبي الله .. قال النبي وبه اشفاق عليه : انه عمرو . اجلس . ثم عاد عمرو ينادى : ألا رجل يبرز؟ .. وجعل يؤنبهم قائلاً : أين جنتكم التي زعمتم انكم داخلوها ان قتلتم ؟ .. أفلا تبرزون الى رجلا ؟ .. فقام على مرة بعد مرة وهو يقول : أنا له يارسول الله ، ورسول الله يقول له مرة بعد مرة : اجلس . انه عمرو ، وهو يجيبه :

(١) كل ما كان من الثياب فوق الشعار . (٢) البالي . (٣) أي ما انتقصكم ، أو ما أصيب من أموالكم . (٤) مقاتلة . (٥) القرن : كفؤك في الشجاعة .

وان كان عمرو .. حتى آذن له فمشى اليه فرحا بهذا الاذن الممنوع كأنه الاذن بالخلاص .. ثم نظر اليه عمرو فاستصغره وأتف أن يناجزه وأقبل يسأله : من أنت ؟ .. قال ولم يزد : أنا علي . قال : ابن عبد مناف ؟ .. قال : ابن أبي طالب . فأقبل عمرو عليه يقول : يا ابن أخي .. من أعمامك من هو أسن ، واني أكره أن اهريق دمك ، فقال له علي : لكنني والله لا أكره أن اهريق دمك . فغضب عمرو وأهوى اليه بسيف كان كما قال واصفوه كأنه شعلة نار ، واستقبل علي الضربة بدرقته فقلدها السيف وأصاب رأسه ، ثم ضربه علي<sup>(١)</sup> على حبل عائقه فسقط ونهض ، وسقط ونهض ، وثار الغبار ، فما اتجلى الا عن عمرو صريحا وعلي يجار بالتكبير وكأنما كانت شجاعته هذه القضاء الحتم الذي لا يؤسى<sup>(٢)</sup> علي مصابه ، لأنه أحجى المصائب ، وأقلها معابة الا يدفع . فكانت أخت عمرو بن ود تقول على سبيل التأسى بعد موته :

لو كان قاتل عمرو غير قاتله  
بكيته أبدا ما دمت في الأبد  
لكن قاتله من لا نظير له  
وكان يدعى أبوه بيضة البلد

\*\*\*

فكانت شجاعته من الشجاعات النادرة التي يشرف بها من يصيب بها ومن يصاب ..

ويزيدها تشريفا انها ازدانت بأجمل الصفات التي تزين شجاعة الشجعان الأقوياء .. فلا يعرف الناس حلية للشجاعة أجمل من تلك الصفات التي طبع عليها علي بغير كلفة ولا مجاهدة رأي . وهي التورع عن البغي ، والمروءة مع الخصم قويا أو ضعيفا على السواء ، وسلامة الصدر من الضغن<sup>(٣)</sup> على العدو بعد الفراغ من القتال ...

فمن تورعه عن البغي ، مع قوته البالغة وشجاعته النادرة ، انه لم يبدأ أحدا قط بقتال وله مندوحة<sup>(٤)</sup> عنه ، وكان يقول لابنه الحسين : « لا تدعون

(١) من معاني القد : التقطيع . (٢) من الأسى هو الحزن . (٣) الحقد .  
(٤) أي سعة .



—٢٣—

الى مبارزة . فان دعيت اليها فأجب . فان الداعي اليها باغ والباغى مصروع » ..

وعلم أن جنود الخوارج يفارقون عسكره ليحاربوه ، وقيل له : انهم خارجون عليك فبادرهم قبل أن يبادروك ، فقال : « لا أقاتلهم حتى يقاتلونى . وسيفعلون ! .. »

وكذلك فعل قبل وقعة الجمل ، وقبل وقعة صفين ، وقبل كل وقعة صغرت أو كبرت ووضح فيها عدااء العدو أو غمض : يدعوهم الى السلم وينهى رجاله عن المبادأة بالشر ، فما رفع يده بالسيف قط الا وقد بسطها قبل ذلك للسلم ...

كان يعظ قوما فبهرت عظته بعض الخوارج الذين يكفرونه فصاح معجبا اعجاب الكاره الذى لا يملك بغضه ولا اعجابه : قاتله الله كافرا ما أفقهه .. فوثب أتباعه ليقتلوه . فنهاهم عنه ، وهو يقول : انما هو سب بسب أو عفو عن ذنب ..

وقد رأينا أنه كان يقول لعمر بن ود : انى لا أكره أن اهريق دمك .. ولكنه على هذا لم يرغب فى اهراق دمه الا بعد يأس من إسلامه ومن تركه حرب المسلمين .. فعرض عليه أن يكف عن القتال فأنف ، وقال : اذن تتحدث العرب بفرارى ، وناشده : يا عمرو . انك كنت تعاهد قومك الا يدعوك رجل من قريش الى خلتين<sup>(١)</sup> الا أخذت منه احداهما . قال : أجل . قال : فانى أدعوك الى الاسلام أو الى النزال . قال : ولم يا ابن أخى ؟ .. فوالله ما أحب أن أقتلك .. فلم يكن له بد بعد ذلك من احدى اثنتين : أن يقتله أو يقتل على يديه

وعلى ما كان بينه وبين معاوية وجنوده من اللدد فى العدااء لم يكن ينزلهم ولا يأخذ من ثاراته وثارات أصحابه عندهم الا بمقدار ما استحقوه فى موقف الساعة : فاتفق فى يوم صفين أن خرج من أصحاب معاوية رجل يسمى كرز بن الصباح الحميرى فصاح بين الصنفين : من يبارز ؟ .. فخرج اليه رجل من أصحاب علي فقتله ووقف عليه ونادى :

(١) الخلة : الخصلة . (٢) أي الشدة فى العدااء .

من يبارز ؟.. فخرج اليه آخر فقتله وألقاه على الأول ، ثم نادى : من يبارز ؟.. فخرج اليه الثالث فصنع به صنيعه بصاحبه ، ثم نادى رابعة : من يبارز ؟ .. فأحجم الناس ورجع من كان في الصف الأول الى الصف الذى يليه ، وخاف علي أن يشيع الرعب بين صفوفه فخرج الى ذلك الرجل المدل بشجاعته وبأسه فصرعه ثم نادى نداهه حتى أتم ثلاثة صمع بهم صنيعه بأصحابه ، ثم قال مسمعا الصفوف : يا أيها الناس . ان الله عز وجل يقول : « الشهر الحرام بالشهر الحرام والحرمات قصاص<sup>(١)</sup> » ، ولو لم تبدءونا ما بدأناكم .. ثم رجع الى مكانه .

أما مروءته في هذا الباب فكانت أندر بين ذوى المروءة من شجاعته بين الشجعان . فأبى على جنده وهم ناقدون أن يقتلوا مدبرا أو يجهزوا على جريح أو يكشفوا سترا أو يأخذوا مالا . وصلى في وقعة الجمل على القتلى من أصحابه ومن أعدائه على السواء ، وظفر بعبد الله بن الزبير ومروان بن الحكم وسعيد بن العاص وهم ألد أعدائه المؤلبن<sup>(٢)</sup> عليه فعفا عنهم ولم يتعقبهم بسوء ، وظفر بعمر بن العاص وهو أخطر عليه من جيش ذى عدة فأعرض عنه وتركه ينجو بحياته حين كشف عن سوائته اتقاء لضربه .. وحال جند معاوية بينه وبين الماء في معركة صفين وهم يقولون له : ولا قطرة حتى تموت عطشا .. فلما حمل عليهم وأجلاهم عنه سوغ<sup>(٣)</sup> لهم أن يشربوا منه كما يشرب جنده ، وزار السيدة عائشة بعد وقعة الجمل فصاحت به صفيّة أم طلحة الطلحات : أيتم الله منك أولادك كما أيتم أولادى . فلم يرد عليها شيئا ، ثم خرج فأعادت عليه ما استقبلته به فسكت ولم يرد عليها . قال رجل أغضبه مقالها : يا أمير المؤمنين . أتسكت عن هذه المرأة وهى تقول ما تسمع ؟ .. فأنهزها وهو يقول : ويحك ؟.. انا أمرنا أن نكف عن النساء وهن مشركات أفلا نكف عنهن وهن مسلمات ؟.. وانه لفى طريقه اذ أخبره بعض أتباعه عن رجلين ينالان من عائشة فأمر بجلدتهما مائة جلدة . ثم ودع السيدة عائشة أكرم وداع وسار في ركابها أميالا وأرسل معها من يخدمها ويحف بها . قيل

(١) أي المعجب المفرور . (٢) من الآية : ١٩٤ من سورة البقرة .

(٣) الذين يجمعون الناس عليه بالظلم والعداوة . (٤) أجاز .

انه أرسل معها عشرين امرأة من نساء عبد القيس عمه بالعمائم وقلدهن السيوف .. فلما كانت ببعض الطريق ذكرته بما لا يجوز أن يذكر به وتأفقت<sup>(١)</sup> وقالت : هتك سترى برجاله وجنده الذين وكلهم بى .. فلما وصلت الى المدينة ألقى النساء عمائمهن وقلن لها : انما نحن نسوة وكانت هذه المروءة سنته<sup>(٢)</sup> مع خصومه ، من استحق منهم الكرامة ومن لم يستحقها ، ومن كان في حرمة عائشة رضى الله عنها ومن لم تكن له قط حرمة ، وهى أندر مروءة عرفت من مقاتل في وغر<sup>(٣)</sup> القتال ..

وتعدلها في النبيل والندرة سلامة صدره من الضغن على أعدى الناس له وأضرهم به وأشهرهم بالضغن عليه . فنهى أهله وصحبه أن يمشوا بقاتله وأن يقتلوا أحدا غيره ، ورثى طلحة الذى خلع بيعته وجمع الجموع لحربه رثاء محزون يفيض كلامه بالألم والمودة ، وأوصى أتباعه الا يقتلوا الخوارج الذين شقوا صفوفه وأفسدوا عليه أمره وكانوا شرا عليه من معاوية وجنده ، لأنه رآهم مخلصين وان كانوا مخطئين وعلى خطئهم مصرين ..



وتقترن بالشجاعة — ولا سيما شجاعة الفرسان المقاتلين بأيديهم — صفة لازمة لها متممة لعملها قلما تنفصل عنها وكأنها والشجاعة أشبه شيء بالنضج<sup>(٤)</sup> للماء ، أو بالاشعاع للنور ، فلا تكون شجاعة الفروسية الا كانت معها تلك الصفة التى تشير اليها ، وهى صفة « الثقة » أو « الاعتزاز » أو الادراع بالهيبة والتهويل على الخصوم ولا سيما فى مواقف النزال وقد يسميها بعض الناس زهوا وليست هى به ولا هى من معدنه وسمته ، وان شابهته فى بعض الملامح والألوان فالزهو المذموم فضول لا لزوم له ولا خير فيه ، وهو لون خادع قد يوجد مع الضعف كما يوجد مع القوة ، وقد يبدو على الجبان كما يبدو على الشجاع ..

أما هذا الاعتزاز الذى تشير اليه ، أو هذه الثقة التى تظهر لنا فى

- (١) أظهرت ضجرتها ، أو قالت : أف . (٢) أي طريقته . (٣) حقه ، والضغن ، والعداوة ، والتوقد من الغيظ ، ووغر القتال : أي شدته . (٤) بالرسن .

صورة الاعتزاز ، فهي جزء من شجاعة الفارس المقاتل لا يستغنى عنه ولا يزال متصلا بعمله في مواجهة خصومه ، وهو عرض للقوة يساعد الفارس في ارباب عدوه واضعاف عزيمة من يتصدى لحربه .. مثله هنا كمثل العروض التي تعتمد اليها الجيوش لاعلان بأسها وتخويف الأعداء من الاستخفاف بها والهجوم عليها . فهو كالشجاعة أداة ضرورية من أدوات القتال لا تنفصل عنها ، وليس كل ما فيها ضربا من الخيلاء يرضى به الشجاع غروره ويتيه به في غير حاجة الى التيه

ولهذا تحمس الناس للفخر العسكري من قديم الزمن وعهدوه وتحدثوا به وتناقلوه ، فسمحوا للفارس — بل لعلهم أوجبوا عليه — أن يروغ من خصمه بالفخر المرعب اذ يتقدم لنزاله ، وأن يلاقيه وهو ينشد الأشعار في ذكر وقعاته والتهويل بضرباته والاشادة بغزواته ، وعلموا انهم — وقد احتاجوا الى شجاعته — محتاجون كذلك الى فخره وحماسته وايقاع الرعب في جنان<sup>(١)</sup> قرنه ، فشاعت قصائد الفخر والحماسة كما شاعت قصائد الحب والمناجاة ، وهي أحب القصائد الى القلوب

### \*\*\*

ومن تأصل هذه العادة في الطبائع انها تشاهد في جميع الأحياء فطرة وارتجالا بغير اصطناع ولا تعمد . فلا نرى حيا من الأحياء الناطقة أو العجماء ينازل قرنا له الا حاول ما استطاع أن يهوله بتكبير حجمه واستطالة قدره واثمار نظره وتنفيش ريشه أو شعره ، ويقف الانسان مثل هذا الموقف فيطيل قامته ويبرز صدره ويدق يده عليه ويقول بلسان حاله ما يقال باللسان ، فاذا هو الفخر والحماسة واذا هو عنوان الثقة والاقدام ..

هذه الصفة لازمة لفارسان الميدان ، ولا سيما فرسان العصور الأولى الذين يقفون للقتال وجها لوجه ، وينظر أحدهم الى قرنه وهو يهجم عليه وكانت هذه الصفة من صفات علي رضي الله عنه ، يفهمها من يريد أن يفهم ولا يضيق صدرا بفضلته ، وينكرها من ينفس<sup>(٢)</sup> عليه فيسميها الزهو

(١) يتكبر . (٢) الجنان : القلب . (٣) أي يحسده .

—٢٧—

أو يسميها الجفوة والخيلاء . قال له قيس بن سعد بعد عزله من ولاية مصر : انك والله ما علمت لتنظر الخيلاء .. ومرو الزبير بن العوام مع رسول الله في بني غنيم ، فرأى رسول الله علياً على مقربة منه فضحك له وضحك علياً يحييه . فقال الزبير : لا يدع ابن أبي طالب زهوهُ . قال رسول الله : انه ليس به زهو ، ولتقاتلنه وأنت له ظالم ..

فليس هو بالزهو المكروه ، ولكنها الشجاعة التي يمتلئ بها الشجاع والثقة التي تتراءى مكشوفة في صراحتها واستقامتها ، لأن صاحبها لم يتكلف مداراتها ولم يحس انه يحتاج الى مداراتها ، ولأنه لا يقصدها ولا يعتمد ابداءها ..

\*\*\*

وقد كان مدار هذا الخلق في ابن أبي طالب على ثقة أصيلة فيه لم تفارقه منذ حبا ودرج ، وقبل أن يبلغ مبلغ الرجال . فما منعت الطفولة الباكرة يوماً أن يعلم انه شيء في هذه الدنيا وانه قوة لها جوار يركن اليه المستجير . ولقد كان في العاشرة أو نحوها يوم أحاط القروم<sup>(١)</sup> القرشيون بالنبي عليه السلام ينذرونه وينكرونه وهو بقلب عينه في وجوههم ويسأل عن النصير ولا نصير .. لو كان بعلي أن يرتاع في مقام نجدة أو مقام عزيزة لارتاع<sup>(٢)</sup> يومئذ بين أولئك الشيوخ الذين رفعتهم الوجاهة ورفعتهم آداب القبيلة البدوية الى مقام الخشية والخشوع . ولكنه كان علياً في تلك السن الباكرة كما كان علياً وهو في الخمسين أو الستين .. فما تردد وهم صامتون مستهزون أن يصبح صيحة الواثق الغضوب : أنا نصيرك .. فضحكوا منه ضحك الجهل والاستكبار ، وعلم القدر وحده في تلك اللحظة أن تأييد ذلك الغلام أعظم وأقوم من حرب أولئك القروم ..

علياً هذا هو الذي نام في فراش النبي ليلة الهجرة ، وقد علم ما تأتمر به مكة كلها من قتل الراقد على ذلك الفراش وعلياً هذا هو الذي تصدى لعمر بن ود مرة بعد مرة والنبي يجلسه

ويحذره العاقبة التي حذرها فرسان العرب من غير تحذير ، يقول النبي : اجلس . انه عمرو . فيقول : وان كان عمرا .. كأنه لا يعرف من يخاف ولا يعرف كيف يخاف ، ولا يعرف الا الشجاعة التي هو متملىء بها واثق فيها في غير كلفة ولا اكتراث .

وتمكنت هذه الثقة فيه لطول مراس القروسية التي هي كما أسلفنا جزء منها وأداة من أدواتها

وزادها تمكيننا حسد الحاسدين ولجاجة المنكرين ، وكلاهما خليق أن يعتصم المرء منه بثقة لا تتخذل ، وأتفة لا تلين . فمن شواهد هذه الثقة بنفسه انه حملها من ميدان الشجاعة الى ميدان العلم والرأى حين كان يقول : « أسألوني قبل أن تفقدوني ، فوالذي نفسى بيده لا تسألوني في شيء فيما بينكم وبين الساعة ، ولا عن فئة تهدى مائة وتضل مائة الا أنبأتكم بناعقها وقائدها وسائقها ، ومناخ ركابها ومحط رحالها » .

ومن شواهدا انه كان يقول والخارجون عليه يرجمونه بالمروق : « ما أعرف أحدا من هذه الأمة عبد الله بعد نبينا غيري ، عبدت الله قبل أن يعبده أحد من هذه الأمة تسع سنين » .

وزاده اتهام من حوله معتصما بالثقة بنفسه ، فلما عتب عليه خصماه طلحة والزبير أنه ترك مشورتهم قال : « نظرت الى كتاب الله وما وضع لنا وأمرنا بالحكم به فاتبعته ، وما استن النبي صلى الله عليه وسلم فاقتديته ، فلم أحتج في ذلك الى رأيكما ولا رأى غيركما ، ولا وقع حكم جهلته فأستشيركما واخواني المسلمين ، ولو كان ذلك لم أرغب عنكما ولا عن غيركما ... » .

وأبدى هذه الخليفة منه أنه كان رضى الله عنه لا يتكلف ولا يحتال على أن يتألف . بل كان يقول : « شر الاخوان من تكلف له » ويقول : « اذا اجتثتم<sup>(١)</sup> المؤمن أخاه فقد فارقه » ، فكان الذين ينتظرون منه الاصطناع والارضاء يخطئون ما انتظروه ، ولا سيما اذا هم انتظروه من أرزاق رعاياه وحقوقهم التي أوّتمن اليها ، فيحصبون انها الجفوة البينة

(١) مزاوله . (٢) يرجمونه بالمروق : يرمونه ويتهمونهم بالكفر .

(٣) جشيم الامر جشما وجشامة وتجشمه : تكلفه على مشقة .

وأنه الزهو<sup>(١)</sup> المقصود وما هو بهذا ولا بتلك .. انما هي شجاعة الفارس بلوازمها التي لا تنفصل منها ، وانما هو امتعاض<sup>(٢)</sup> المغموط المسىء ظنا بمن حوله يترأى على سجيته في غير مداراة ولا رياء . فما كان يتكلف اظهار تلك الخلائق زهوا كما يسمونه أو جفوة كما يحسبونها ، بل كان قصارة<sup>(٣)</sup> ألا يتكلف الاخفاء ، فاذا التفت قاصدا الى ما في نفسه فهو لا يقصد العجب ولا يرضاه ، بل ينهى عنه ويشدد في اجتنابه ، ويوصى من أحب : « اياك والاعجاب بنفسك والثقة بما يعجبك منها » ... « واعلم ان الاعجاب ضد الصواب ، وآفة الالباب<sup>(٤)</sup> »

نعم كان ملاك الأمر في أخلاق على عليه السلام انه كان لا يتكلف اظهار شيء ولا يتكلف اخفاء شيء ولا يقبل التكلف حتى من مادحيه ، فربما أفرط الرجل في الثناء عليه وهو متهم عنده فلا يدعه حتى يعلن له طويته ويقول له : « أنا دون ما تقول وفوق ما في نفسك » -



وكانت قلة التكلف هذه توافق منه خليقته الكبرى من الشجاعة والبأس والامتلاء بالثقة والمنعة ، وكانت تسلك معه مسلك الحقيقة والمجاز على السواء .. كأنه يعنى ما يصنع وهو لا يعنيه ، وانما يجىء منه على البديهة كما تجىء الأشياء من معادنها : كان مثلا يخرج الى مبارزته حاسر<sup>(٥)</sup> الرأس ومبارزوه مقنعون بالحديد . أفعجيب منه أن يخرج اليهم حاسر<sup>(٦)</sup> النفس وهم مقنعون بالحيلة والرياء ؟ .. وكان يغفل الخضاب أحيانا ويرسل الشيب ناصعا وهو لا يحرم خضابه في غير ذلك من الأحيان . أفعجيب منه ، مع هذا ، أن يقل اكترائه لكل خضاب ساترا ما ستر ، أو كاشفا ما كشف ، من رأى وخليقة ؟

بل كانت قلة التكلف هذه توافق منه خليقة أخرى كالشجاعة في قوتها ورسوخها .. أو هي قريبة للشجاعة في نفس الفارس النبيل وقائما تقارقها ، ونعنى بها خليقة الصدق الصراح الذى يجترى به الرجل على الضر والبلاء كما يجترى به على المنفعة والنماء . فما استطاع

(١) من معاني الزهو : الكبر والفخر . (٢) غضب . (٣) أي غايته

(٤) العقول . (٥) حاسر الرأس : مكشوف الرأس . (٦) أي الحناء .

—٣٠—

أحد قط أن يحصى عليه كلمة خالف فيها الحق الصراح في سلمه وحره ، وبين صحبه أو بين أعدائه ، ولعله كان أحوج الى المصانعة بين النصراء مما كان بين الأعداء ، لأنهم أرهقوه باللجاجة وأعتوه بالخلاف ، فما عدا معهم قول الصدق في شدة ولا رخاء ، حتى قال فيه أقرب الناس اليه : انه رجل يعرف من الحرب شجاعتها ولكنه لا يعرف خدعتها . وكان أبدا عند قوله : « علامة الايمان أن تؤثر الصدق حيث يضرك ، على الكذب حيث ينفعك ، وألا يكون في حديثك فضل على علمك ، وأن تتقى الله في حديث غيرك » ..

\*\*\*

وصدق في تقواه وإيمانه كما صدق في عمل يمينه ومقالة لسانه .. فلم يعرف أحد من الخلفاء أزهد منه في لذة دنيا أو سيب<sup>(١)</sup> دولة ، وكان وهو أمير للمؤمنين يأكل الشعير وتطحنه امرأته بيديها ، وكان يختم على الجراب الذي فيه دقيق الشعير فيقول : « لا أحب أن يدخل بطني ما لا أعلم » .. قال عمر بن عبد العزيز وهو من أسرة أمية التي نبغض عليها وتخلق له السيئات وتخفى ما توافر له من الحسنات : « أزهد الناس في الدنيا على بن أبي طالب » . وقال سفيان : « ان عليا لم يبن آجرة<sup>(٢)</sup> على آجرة ولا لبنة على لبنة ولا قصة على قصة » وقد أبى أن ينزل القصر الأبيض بالكوفة ايثارا للخصاص<sup>(٣)</sup> التي يسكنها الفقراء . وربما باع سيفه ليشتري بثمانه الكساء والطعام . وروى النضر ابن منصور عن عقبة بن علقمة قال : « دخلت على علي عليه السلام فاذا بين يديه لبن حامض آذنتي حموضته وكسريابسة . فقلت : يا أمير المؤمنين ، أتأكل مثل هذا ؟ .. فقال لي : يا أبا الجنوب ، كان رسول الله يأكل أبيض من هذا ويلبس أخشن من هذا — وأشار الى ثيابه — فان لم آخذ بما أخذ به خفت ألا ألحق به » ..

<sup>(١)</sup> وعلى هذا الزهد الشديد كان على رضى الله عنه أبعد الناس من كرازة طبع وضيق حظيرة وجفاء عشرة ، بل كانت فيه سماحة يتبسط فيها حتى

(١) العطاء ، والعرف ، ومردى السفينة ، وشعر ذنب الفرس (٢) ما يبنى به ، وهو معرب . (٣) جمع خص ، وهو البيت من القصب (٤) اليبس والانقباض .



—٣١—

يقال: دعابة ، وروى عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه انه قال له : « الله أبوك لولا دعابة فيك » وانه قال لمن سألوه في الاستخلاف : « ما أظن الا أن يلى أحد هذين الرجلين : علي أو عثمان . فان ولى عثمان فرجل فيه لين ، وان ولى علي ففيه دعابة ، وأحر به أن يحملهم على الطريق » .

\*\*\*

وأغرق ابن العاص في وصف الدعابة فسماها « دعابة شديدة » وطلق<sup>(١)</sup> يرددها بين أهل الشام ليقدر بها في صلاح الامام للخلافة ، وانما نقول: ان ابن العاص أغرق في هذا الوصف ، وان الدعابة المعيبة لم تكن قط من صفاته ، لأن تاريخ علي<sup>(٢)</sup> وأقواله ونوادره مع صحبه وأعدائه محفوظة لدينا لا نرى فيها دليلا على خلق الدعابة فضلا عن الدليل على الافراط فيه .. فان كان لهذا الوصف أثر أجاز لعمر بن الخطاب أن يذكره فرما كان مرجع ذلك أن عليا<sup>(٣)</sup> خلا من الشغل الشاغل سنين عدة ، فأعفاه الشغل الشاغل من صرامته وأسلمه حيناً الى سماحته وأحاديث صحبه ومريديه فحسبت هذه الدعة من الدعابة البريئة ثم بالغ فيها المبالغون ، ولم يشبهوها بقصة واحدة أو شاردة واحدة تجيز لهم ما تقولوه .

وقد كانت للامام صفات ومزايا فكرية تناصى المشهور المتفق عليه من صفاته النفسية ومزاياه الخلقية . فاتفق خصومه وأنصاره على بلاغته ، واتفقوا على علمه وفطنته ، وتفرقوا فيما عدا ذلك من رأيه في علاج الأمور ودعائه في سياسة الرجال .

والحق الذى لا مرأى فيه انه كان على نصيب من الفطنة النافذة لا ينكره منصف ، وانه أشار على عمر وعثمان أحسن المشورة في مشكلات الحكم والقضاء ، وانه كان أشبه الخلفاء بالباحثين والمنقبين أصحاب الحكمة ومذاهب التفكير وعنه أخذ الحكماء الذين شرعوا علم الكلام قبل أن يتطرق اليه علم فارس أو علم يونان .. وكان يفهم أخلاق الناس فهم العالم المراقب لخدائيا الصدور ويشرحها في عظاته وخطبه شرح الأديب اللبيب ..

(١) أي اخذ . (٢) أي ليعيب

الى هنا متفق عليه لا يكثر فيه الخلاف ، ثم يفرق الناس في رأيه  
رأين وان لم يكونوا من الشائئين<sup>(١)</sup> المتحزين ، فيقول أناس: انه كان على  
قسط وافر من البهم والمشورة ، ولكنه عند العمل لا يرى ما تقضى به  
الساعة الحازبة<sup>(٢)</sup> ولا ينتفع بما يراه . ويقول أناس: بل هو الاضطراب  
والترحج يقيده ولا يقيدان أعداءه وانهم لدونه في الفطنة والسداد .  
وهو رضى الله عنه قد اعتذر لنفسه بعشابه من هذا العذر حين قال :  
« والله ما معاوية بأدهى منى ، ولكنه يغدر ويفجر ، ولولا كراهية الغدر  
لكنت من أدهى الناس » ..

\*\*\*

أما مقطع الرأى بين الرأيين فنرجو أن نفصله في مواضعه من الفصول  
التالية مشفوعا بمناسباته ، ولكننا نستطيع أن نجزم<sup>(٣)</sup> هنا بحقيقتين تجملان  
ما نبسطه في مواضعه من الكتاب ، ولا نحسبهما تتسعان لجدل طويل ،  
وهما: أن أحدا لم يثبت قط أن العمل بالآراء الأخرى كان أجدى وأنجح<sup>(٤)</sup>  
في فض المشكلات من العمل برأى الامام ، وان أحدا لم يثبت قط أن  
خصوم الامام كانوا يصرفون الأمور خيرا من تصرفه ، لو وضعوا في  
موضعه واصطلحت عليهم المتاعب التى اصطلحت عليه . وكلتا الحقيقتين  
حرية<sup>(٥)</sup> أن تضبط لسان الميزان قبل أن يميل فيغلو به الميل هنا أو هناك  
هذه صفات تنتظم في نسق موصول : رجل شجاع لأنه قوى ،  
وصادق لأنه شجاع ، وزاهد مستقيم لأنه صادق ، ومثار للخلاف لأن  
الصدق لا يدور بصاحبه مع الرضا والسخط والقبول والنفور ،  
وأصدق الشهادات لهذا الرجل الصادق ان الناس قد أثبتوا له في حياته  
أجمل صفاته المثلى ، فلم يختلفوا على شئ منها الا الذى اصطدم  
بالمطامع وتفرقت حوله الشبهات ، وما من رجل تتعسف المطامع أسباب  
الطعن فيه ثم تنفذ منه الى صميم .

(١) المبغضين . (٢) الامر الحازب : الشديد . (٣) نقطع . (٤) الناجح :

المفيد . (٥) أي جديره .

## مفتاح شخصيته

« آداب الفروسية » هي مفتاح هذه الشخصية النبيلة الذي يفض منها كل مغلق ويفسر منها كل ما احتاج الى تفسير  
وآداب الفروسية هي تلك الآداب التي فلخصها في كلمة واحدة وهي : النخوة<sup>(١)</sup>.

وقد كانت النخوة طبعا في علي فطر عليه ، وأدبا من آداب الأسرة الهاشمية نشأ فيه ، وعادة من عادات « الفروسية » العملية التي يتعودها كل فارس شجاع متغلب على الأقران ، وان لم يطبع عليها وينشأ في حجرها . لأن للغلبة في الشجاع ثقة تأبى عليه أن يسف<sup>(٢)</sup> الى ما يخجله ويشينه<sup>(٣)</sup> ، ولا تزال به حتى تعلمه النخوة تعلما ، وتمنعه أن يعمل في السر ما يزرى<sup>(٤)</sup> به في العلانية .

وهكذا كان علي رضي الله عنه في جميع أحواله وأعماله : بلغت به نخوة الفروسية غايتها المثلى ، ولا سيما في معاملة الضعفاء من الرجال والنساء . فلم ينس الشرف قط ليغتنم الفرصة ، ولم يساوره<sup>(٥)</sup> الريب قط في الشرف ، والحق انهما قائمان دائما كأنهما مودعان في طبائع الأشياء . فاذا صنع ما وجب عليه فلينس من شاءوا ما وجب عليهم ، وان أفادوا كثيرا وباء<sup>(٦)</sup> هو بالخسار ..

أصاب المقتل من عدوه مرات فلم يهتبل<sup>(٧)</sup> الفرصة السانحة بين يديه ، لأنه أراد أن يغلب عدوه غلبة الرجل الشجاع الشريف ، ولم يرد أن يغلبه أو يقتصص منه كيفما كان سبيل الغلب والقصاص ..  
قال بعض من شهدوا معركة صفين : لما قدمنا على معاوية وأهل الشام

---

(١) الفخر والعظمة . (٢) يطلب الامور الدنيئة . (٣) يعيبه  
(٤) يحتقر . (٥) يأخذ برأسه . (٦) باء : رجع . (٧) يغتنم وينتهاز .

بصفين وجدناهم قد نزلوا منزلا اختاروه مستويا بساطا واسعا وأخذوا  
الشريعة — أى مورد الماء — فهي في أيديهم .. وقد أجمعوا على أن  
يمنعونا الماء . ففزعنا الى أمير المؤمنين فخبّرناه بذلك فدعا صعصعة  
ابن صوحان فقال له : ائت معاوية وقل له : انا سرنا مسيرنا هذا اليكم  
ونحن نكره قتالكم قبل الاعذار اليكم ، وانك قدمت الينا خيلك  
ورجلك فقاتلتنا قبل أن تقاتلك وبدأتنا ، ونحن من رأينا الكف عنك  
حتى ندعوك ونحتج عليك ، وهذه أخرى قد فعلتموها اذ حلت بين  
الناس وبين الماء ، والناس غير منتهين أو يشربوا فابعث الى أصحابك  
فليخلوا بين الناس وبين الماء ويكفوا حتى ننظر فيما بيننا وبينكم  
وفيما قدمنا له وقدمتم له ... »

ثم قال راوى الخبر ما معناه ان معاوية سأل أصحابه فأشاروا عليه أن  
يحول بين علي وبين المورد غير حافل بدعوته الى السلم ولا بدعوته الى  
المفاوضة فى أمر الخلاف ، فأخذ معاوية مددا الى حراس المورد يحمونه  
ويصدون من يقترب منه ، ثم كان بين العسكرين تراشق بالنبل فطعن  
بالرماح فضرب بالسيوف حتى اقتحم أصحاب علي طريق الماء وملكوه  
وهنا الفرصة الكبرى لو شاء علي أن يهتبلها ، وأن يغلب أعداءه  
بالظما كما أرادوا أن يغلبوه به قبيل ساعة .. وقد جاء أصحابه يقولون :  
والله لا نسقيهموه . فكأنما كان هو سفير معاوية وجنده اليهم يتشفع لهم  
ويستلين قلوبهم من أجلهم . وصاح بهم : « خذوا من الماء حاجتكم  
وارجعوا الى عسكركم وخلوا عنهم ، فان الله عز وجل قد نصركم عليهم  
بظلمهم وبغيهم »

ولاحت له فرصة قبل هذه الفرصة فى حرب أهل البصرة ، فأبى أن  
يهتبلها وأغضب أعوانه انصافا لأعدائه ، لأنه نهاهم أن يسلبوا المال  
ويستبيحوا السبى وهو فى رأيهم حلال . قالوا : أترأى يحل لنا دماءهم  
ويحرم علينا أموالهم ؟.. فقال : « انما القوم أمثالكم ، من صفح عنا فهو  
منا ونحن منه ، ومن لجج حتى يصاب فقتاله منى على الصدر والنحر »

—٣٥—

وسن لهم ستة الفروسية أو ستة النخوة حين أوصاهم ألا يقتلوا مدبرا ولا يجهزوا على جريح ولا يكشفوا سترا ولا يدوا يدا الى مال .  
ومن الفرص التي أبت عليه النخوة أن يهتلبها فرصة عمرو بن العاص وهو ملقى على الأرض مكشوف السوأة<sup>(١)</sup> لا يبالى أن يدفع عنه الموت بما حضره من وقاء . فصدف<sup>(٢)</sup> بوجهه عنه آثما أن يصرع رجلا يخاف الموت هذه المخافة التي لا يرضاها من منازل في مجال صراع . ولو غير عليّ أتيج له أن يقضى على عمرو لعلم أنه قاض على جرثومة عداء ودهاء فلم يبال أن يصيبه حيث ظفر به ، ولا جناح<sup>(٣)</sup> عليه .

\*\*\*

لقد كان رضاه من الآداب في الحرب والسلام رضا الفروسية العزيزة من جميع آدابها ومآثراتها ..  
فكان يعرف العدو عدوا حيثما رفع السيف لقتاله .. ولكنه لا يعادى امرأة ولا رجلا موليا ولا جريحا عاجزا عن نضال ولا ميتا ذهبت حياته ولو ذهبت في سبيل حربه .. بل لعله يذكر له ماضيه يومئذ فيقف على قبره ليبيكه ويرثيه ويصلى عليه .

وهذه الفروسية هي التي بغضت اليه أن ينال أعداءه بالسباب وليس من دأب<sup>(٤)</sup> الفارس أن ينال أعداءه بغير الحسام<sup>(٥)</sup>  
فلما سمع قوما من أصحابه يسبون أهل الشام أيام حروبهم بصفين قال لهم : « انى أكره أن تكونوا سبائين ، ولكنكم لو وصفتم أعمالهم وذكرتهم حالهم كان أصوب في القول ، وأبلغ في العذر ، وقلتم مكان سبكم إياهم : اللهم احقن دماءنا ودماءهم ، وأصلح ذات بيننا وبينهم ، واهدهم من ضلالهم حتى يعرف الحق من جهله ، ويرعوى<sup>(٦)</sup> عن الغى والعدوان من لهج به »

وربما شذ عن سنته هذه في بعض الأحيان فاذا به لا يشذ عنها الا كما يشذ الفرسان حين تغلبهم بوادى اللسان .. فنذر بين رجال السيف من يسمع الكلمة المغضبة فلا ينطق لسانه بكلمة عوراء<sup>(٧)</sup> يجارى بها

(١) العورة . (٢) صدف عنه : أعرض . (٣) اثم . (٤) الدأب : العادة والطبيعة . (٥) السيف . (٦) ويكف . (٧) قبيحة .

غضبه الذى طبع على ابدائه ولم يطبع على كتمانته ..  
ومن قبيل هذا كلمات قالها علي<sup>(١)</sup> في ابن العاص وفي معاوية وفي  
الأشعث بن قيس وغير هؤلاء . ولكنه لم يجعلها ديدناً<sup>(٢)</sup> له كما سبوه  
على المنابر وأشاعوا مذمته بين أهل الأمصار ..  
شغب عليه الأشعث بن قيس ومرد عليه الجند وأفشى بين أنصاره  
الفتنة وقاطعه مرة وهو يخطب على منبر الكوفة فأغضبه وهاج غيظه  
فبدره بقوله : « عليك لعنة الله ولعنة اللاعنين : حائك بن حائك ، منافق  
ابن كافر ، والله لقد أسرك الكفر مرة والاسلام أخرى ، فما فداك من  
واحدة منهما مالك ولا حسبك ، وإن امرأ ولى على قومه السيف وساق  
اليهم الحتف لحرى أن يمتته الأقرب ولا يأمنه الأبعد » .



وظفق ابن العاص ينعته بين أهل الشام بالهزل والدعابة ويأمر بسبه  
على المنابر حتى وجب رده وادحاض<sup>(٣)</sup> زعمه . فقال رضى الله عنه في بعض  
خطبه : عجبا لابن النابغة ! .. يزعم لأهل الشام ان في دعابة واني امرؤ  
تلعابة<sup>(٤)</sup> : اعانس وامارس<sup>(٥)</sup> .. لقد قال باطلا ونطق آثما . أما — وشر  
القول الكذب — انه ليقول فيكذب ، ويعد فيخلف ، ويسأل فييخل ،  
ويخون العهد ويقطع الآل<sup>(٦)</sup> ، فاذا كان عند الحرب فأى زاجر وآمر  
هو ما لم تأخذ السيوف مأخذها . فاذا كان ذلك كان أكبر مكيدته  
أن يمنح القوم سبته . أما والله انى ليمنعنى من اللعب ذكر الموت . وانه  
ليمنعه من قول الحق نسيان الآخرة انه لم يبايع معاوية حتى شرط أن  
يؤتية آتية ويرضخ له على ترك الدين رضيخة<sup>(٧)</sup> .

وكذلك كان يحبه معاوية وغيره بنظائر هذه الكلمات حين يجترئون  
عليه بما يغض من حقه ويقدح في دعوته . فلا يشذ عن ديدن الفرسان  
في روية فكره ولا في بوادر لسانه ، ولكن القلتات التى من هذا القبيل

(١) الديدن : الدأب والعادة (٢) الموت . (٣) ابطال . (٤) أي كثير  
للعب غير جاد . (٥) مضاربة الناس مزاحا ومغازلة النساء . (٦) القراصة  
والرحم . (٧) العطية . ومثلها الرضيخة مع قلة .

—٣٧—

شيء واتخاذ السباب صناعة دائمة وسلاحا مشهورا وسبيلا الى القول  
الباطل شيء آخر ..

ولقد كانت للامام رضى الله عنه شواغل أخرى غير الفروسية تجرى  
في مجراها حيناً وتبدو غريبة عنها حيناً آخر في عرف بعض الناقدين ،  
ومنها التفقه والنزوع الى « التصوف » واستنباط حقائق الأشياء ..

\*\*\*

فهذه في عرف بعض الناقدين ليست من مزاج الفروسية على ظاهر  
ما قدروه .. ولكن ما التصوف أو التجرد للحقيقة ؟ .. أليس هو في  
معدنه جهادا في الحق أو جهادا في الله ؟ .. أليست طبيعة الجهاد وطبيعة  
الفروسية من معدن واحد ؟ .. ألم نعهد في كل ملة وكل زمان فئات من  
الناس يجاهدون لأنهم متدينون متنتطسون<sup>(١)</sup> ، أو يتدينون ويتنتطسون  
لأنهم مجاهدون ؟ ..

فالامام علي رضى الله عنه فارس لا يخرج من الفروسية فقه الدين  
بل هو أخرى أن يسلكه فيها . ولا يخرج من الفروسية بعض المقال  
في خصومه بل هي بؤادر الفرسان بعينها ، ولا تزال آداب الفروسية  
بشتى عوارضها هي المفتاح الذي يدار في كل باب من أبواب هذه  
النفس فاذا هو منكشف للناظر عما يليه .

---

(١) التنطيس : التأنيق في الطهارة ، وفي الكلام ، والطعم ، والملبس ،  
وفي جميع الامور ، والتنطيس : العالم .





## اسلامه

ولد على في داخل الكعبة ، وكرم الله وجهه عن السجود لأصنامها ، فكأنما كان ميلاده ثمة<sup>(١)</sup> أيذانا بعهد جديد للكعبة وللعبادة فيها وكاد على أن يولد مسلما ..

بل لقد ولد مسلما على التحقيق اذا نحن نظرنا الى ميلاد العقيدة والروح ، لأنه فتح عينيه على الاسلام ولم يعرف قط عبادة الأصنام فهو قد تربى في البيت الذي خرجت منه الدعوة الاسلامية وعرف العبادة من صلاة النبي وزوجه الطاهرة قبل أن يعرفها من صلاة أبيه وأمه ، وجمعت بينه وبين صاحب الدعوة قرابة مضاعفة ومحبة أوثق من محبة القرابة . فكان ابن عم محمد عليه السلام وربيه الذي نشأ في بيته ونعم بعطفه وبرمه . وقد رأينا الغرباء يحبون محمدا ويؤثرونه على آبائهم وذويهم . فلا جرم يحبه هذا الحب من يجمعه به جد ، ويجمعه به بيت ، ويجمعه به جميل معروف : جميل أبي طالب يؤديه محمد وجميل محمد يحسّه ابن أبي طالب ويأوى اليه ..

واختلفوا في سنّه حين اسلامه من السابعة الى السادسة عشرة ، ولعله أسلم في نحو العاشرة لأنه كان يناهزها<sup>(٢)</sup> عند اعلان الدعوة المحمدية ، وكان النبي عليه السلام يتعبد في بيته عبادة الاسلام قبل الدعوة بفترة غير قصيرة ، وليس ما يمنع عليا أن يألّف تلك العبادة في طفولته الباكّة فاذا هو نقر منها ، وأعرض عنها لغير سبب في تلك الطفولة الباكّة فالعجيب انه يعود الى ألّفها والرضا بها بعد أن بلغ السن التي يعرف فيها معنى الغضب لعبادة الآباء والأجداد ..

---

(١) هناك . (٢) أي يدنو منها ويقاربها .

ولولا ألفة على لابن عمه وكافله لما قربته القرابة وحدها من الدين الذي دعى إليه ، فقد أصرَّ كثير من أقرباء النبي على الشرك زمنا طويلا ، منهم عقيل أخوه وأحب أخوته الى أبيه . فحارب المسلمين في بدر ولم يسلم وقد وقع في أسر النبي وصحبه .. بل افتداه عمه العباس وخرج من الأسر وهو على دينه ، ثم أسلم بعد صلح الحديبية مع طائفة من الغرباء والأقربين ..



على ان الألفة بين ابني العم الكريمين قد أوشكت أن تكون عائقا لاسلام عليّ في طفولته الباكّة .. لأن النبي عليه السلام أبى أن ينتزع الطفل من دين أبيه وأبوه لا يعلم ، وأشفق أن يكون برُّه بعمه وبابن عمه سيلا الى التفرقة بين الأب وابنه وهو لا يدرك ما يفعل ، ولم يشأ أن يعوّد الطفل الصغير أن يخفى سرا عن أبيه كأنه يخدعه باخفائه ولو في سبيل الهداية والخير . فظل هذا الحرج الكريم عائقا عسيرا أعسر ما فيه انه عائق اختيار يهون معه الاضطرار ، أو عائق حيرة تقل فيها حيلة الكريم .. حتى شاع أمر الدعوة المحمدية وعلم بها أبو طالب ونصّر ابن أخيه وأمر عليا بمتابعة ابن عمه ونصّره . فأقبل الغلام البر بأبيه وبكافله اقبالا لا تلجئ فيه على الدين الجديد ..

وملأ الدين الجديد قلبا لم ينازعه فيه منازع من عقيدة سابقة ولم يخالطه شوب<sup>(١)</sup> يكدر صفاءه ويرجع به الى عقائده<sup>(٢)</sup> .. فبحق ما يقال: إن عليا كان المسلم الخالص على سجيته<sup>(٣)</sup> المثلى ، وان الدين الجديد لم يعرف قط أصدق اسلاما منه ولا أعبق نفاذا فيه .

كان المسلم حق المسلم في عبادته ، وفي علمه وعمله ، وفي قلبه وعقله ، حتى ليصح أن يقال: انه طبع على الاسلام فلم تزده المعرفة الا ما يزيده التعليم على الطباع ..

كان عابدا يشتهي العبادة كأنها رياضة تريجه وليست أمرا مكتوبا عليه .. وكان يرى في كهولته وكأنما جبهته ثمة<sup>(٤)</sup> بعير من ادمان السجود

(١) لا تردد • (٢) الخلط • (٣) العقابيل : بقايا العلة ، والعداوة ، والعشق • (٤) السجية : الخلق والطبيعة • (٥) أي ركبة •

—٤١—

وكان عليٌّ محجةً في الاسلام لا يجيد عنها لبغية ولا لحشية ، فكلموا زينوا له الهوادة أبي « أن يداهن<sup>(١)</sup> في دينه ويعطى الدنية في أمره » وآثر الخير كما يراه علي الخير كما يراه الناس ..

وكان دينه له ولعدوه ، بل له ولعدو دينه ، فما كان الحق عنده لمن يرضاه دون من يتلوه<sup>(٢)</sup> ، ولكنه كان الحق لكل من استحقه وان بهته<sup>(٣)</sup> وآذاه ..

\*\*\*

وجد درعه غند رجل نصراني فأقبل به الى شريح - قاضيه - يخاصمه مخاصمة رجل من عامة رعاياه ، وقال : انها درعى ولم أبع ولم أهب ، فسأل شريح النصراني : ما تقول فيما يقول أمير المؤمنين ؟ .. قال النصراني : ما الدرع الا درعى وما أمير المؤمنين عندى بكاذب ! .. فالتفح شريح الى عليٍّ يسأله : يا أمير المؤمنين هل من بينة ؟ .. فضحك عليٌّ وقال : أصاب شريح . ما لى بينة ! .. ففضى بالدرع للنصراني فأخذها ومشى و « أمير المؤمنين » ينظر اليه ... الا ان النصراني لم يخط خطوات حتى عاد يقول : أما أنا فأشهد ان هذه أحكام أنبياء .. أمير المؤمنين يديننى الى قاضيه يقضى عليه ! .. أشهد أن لا اله الا الله وان محمداً رسول الله ، الدرع والله درعك يا أمير المؤمنين .. اتبعت الجيش وأنت منطلق الى صفين فخرجت من بعيرك الأورق<sup>(٤)</sup> فقال : أما اذا أسلمت فهي لك .. وشهد الناس هذا الرجل بعد ذلك وهو من أصدق الجند بلاء في قتال الخوارج يوم النهرون .

وأحسن الاسلام علما وفقها كما أحسنه عبادة وعملا . فكانت فتاواه مرجعا للخلفاء والصحابة في عهود أبي بكر وعمر وعثمان ، وندرت مسألة من مسائل الشريعة لم يكن له رأى فيها يؤخذ به أو تنهض له الحجة بين أفضل الآراء ..

الا ان المزية التي امتاز بها عليٌّ بين فقهاء الاسلام في عصره انه جعل

---

(١) يميل • (٢) أي لما رب • (٣) اللين • (٤) يوافق ويفش • (٥) قلاه : أبغضه وكرهه غاية الكراهة فتركه ، أو قلاه في الهجر ، وقلية في البغض • (٦) قال عليه ما لم يفعل • (٧) ما في لونه بياض الى سواد

الدين موضوعاً من موضوعات التفكير والتأمل ولم يقصره على العبادة وإجراء الأحكام ، فإذا عرف في عصره أناس فقهوا في الدين ليصححوا عباداته ويستنبطوا منه أقضيته وأحكامه ، فقد امتاز على<sup>١</sup> بالفقه الذي يراد به الفكر المحض<sup>(١)</sup> والدراسة الخالصة ، وأمعن فيه ليغوص في أعماقه على الحقيقة العلمية ، أو الحقيقة الفلسفية كما نسميها في هذه الأيام

\*\*\*

ويصح أن يقال: إن علياً ، رضى الله عنه ، أبو علم الكلام في الاسلام ، لأن المتكلمين أقاموا مذاهبهم على أساسه كما قال ابن أبي الحديد في شرح نهج البلاغة . فواصل بن عطاء كبيرهم تلميذ أبي هاشم عبد الله ابن محمد بن الحنفية ، وأبو هاشم تلميذ أبيه ، وأبوه تلميذ علي<sup>٢</sup> رضى الله عنه . وأما الأشعرية فانهم ينتمون الى أبي الحسن علي<sup>٣</sup> بن أبي الحسن علي بن أبي بشر الأشعري وهو تلميذ أبي علي الجبائي ، وأبو علي الجبائي أحد مشايخ المعتزلة الذين علمهم واصل بن عطاء .. أما الفقه فإمامه الأكبر أبو حنيفة قرأ على جعفر بن محمد وجعفر بن محمد قرأ على أبيه وهكذا ينتهي الأمر الى علي<sup>٤</sup> رضى الله عنه . وقد قرأ مالك بن أنس على ربيعة الرأي ، وقرأ ربيعة على عكرمة ، وقرأ عكرمة على عبد الله ابن عباس وقرأ عبد الله بن عباس على علي<sup>٥</sup> رضى الله عنه . وقيل لابن عباس : أين علمك من علم ابن عمك ؟ .. فقال : كنسبة قطرة من المطر الى البحر المحيط ..

\*\*\*

قال ابن أبي الحديد : « ومن العلوم علم الطريقة والحقيقة وأحوال التصوف . وقد عرفت أن أرباب هذا الفن في جميع بلاد الاسلام اليه ينتهون وعنده يققون . وقد صرح بذلك الشبلي والجنيد وسرى وأبو زيد البسطامي وأبو محفوظ معروف الكرخي وغيرهم . ويكفيك دلالة على ذلك : الخرقه التي هي شعارهم الى اليوم ، وكونهم يسندونها باسناد متصل اليه عليه السلام .. »

وقد جمع « نهج البلاغة » نماذج شتى من الكلمات التي تنسب اليه

—٤٣—

ويصح أن تحسب أصلاً « للعلم الالهي » أو لأسرار التصوف في صدر الاسلام قبل اشتغال المسلمين بفلسفة اليونان وحكمة الأمم الأجنبية . وربما وقع الشك في نسبة بعض الكلمات الى علي رضي الله عنه لأنها تجمعت بعد عصره بزمان طويل وامتزج بها ما لا بد أن يمازجها من علوم القرن الثالث وما بعده .. ولكن شيئاً على هذا النهج لا بد أن يكون قد صدر منه حقاً حتى جاز أن يتصل النسب بينه وبين أئمة التوحيد وعلم الكلام على النحو الذي تواترت به الأقوال ، وأجمله ابن أبي الحديد فيما تقدم ..

\*\*\*

ولنا أن نقول، انه كان رضي الله عنه يتلمذ للقرآن الكريم ويستوحيه نصاً في عرفان اسلامه وتقرير ايمانه . فكانت نظراته الى الخالق والخالق نظرة قرآنية يبتكر ما شاء ابتكار التلميذ في الحكاية عن الأستاذ ، فكلامه عن الطاووس والخفاش والزرع والسحاب انما هو الدرس القرآني الذي وعاه من أمر الكتاب بالنظر في المخلوقات ووصف الكتاب لطوائف منها كالنمل والنحل والطير والأجنة في الأرحام . فهو تلميذ ربه جلّ وعلا في قوله عن الخفاش : « من لطائف صنعته وعجائب حكمته ما أرانا من غوامض الحكمة في هذه الخفافيش التي يقبضها الضياء الباسط لكل شيء ويبسطها الظلام القابض لكل حي ، وكيف غشيت أعينها عن أن تستمد من الشمس المضيئة نورا تهتدي به في مذهبها .. فسبحان من جعل الليل لها نهاراً ومعاشاً . والنهار لها سكناً وقراراً ، وجعل لها أجنحة من لحمها تعرج بها عند الحاجة الى الطيران كأنها شظايا الآذان<sup>(١)</sup> ، غير ذوات ريش ولا قصب .. تطير وولدها لاصق بها لاجئ إليها ، يقع اذا وقعت ، ويرتفع اذا ارتفعت ، لا يفارقها حتى تشتد أركانه ، ويحملة للنهوض جناحه ، ويعرف مذهب عيشه ومصالح نفسه ، فسبحان الباري<sup>(٢)</sup> لكل شيء على غير مثال خلاف غيره » .

ومثله قوله عن الطاووس : « ومن أعجبها خلقا الطاووس الذي أقامه

(١) أي اختلط . (٢) جمع شظية ، والشظية : كل فلفة من شيء .

(٣) الخالق .

في أحكم تعديل ونضد ألوانه في أحسن تنضيد ، بجناح أشرج قصبه  
وذنب أطل سحبه ، اذا درج الى الأثني نشره من طيه ، وسما به مظللا  
على رأسه .. وقد ينحسر من ريشه ويعرى من لباسه فيسقط تترى  
وينبت تباعا ، فينحت من قصبه نحتات أوراق الأغصان ، ثم يتلاصق  
ثانيا حتى يعود كهيئته قبل سقوطه لا يخالف سالف ألوانه ولا يقع  
لون في غير مكانه » ..

ونحن لا نستغرب ابتداء هذا النمط من النظر الفلسفى على نحو  
من الأنحاء في عصر الامام على<sup>(١)</sup> رضى الله عنه . لأنه كان عهدا نبت  
فيه أصول الفرق الاسلامية جميعا من الخوارج والشيعة والقائلين  
بالرجعة وتناسخ الأرواح والمجتهدين في قراءة القرآن وتفسيره على  
شتى المذاهب .. فأقرب شيء الى المعقول أن يكون امام العصر كله  
قدوة في الاجتهاد والنظر وعنوانا للنوازع التى تفرقت بين أهل زمانه  
وتعبيرا صادقا لتفكيره ووعيه ، وصاحب أقوال من قبيل هذه الأقوال  
التي قدمناها وان لم تكن هى اياها بالنص والتفصيل ..

ويستقيم مع هذا التقدير أن يكون الامام على سجيته مؤثرا  
للاجتهاد ما استطاعه ، معرضا عن التقليد ما استغنى عنه ، فوافق  
الخلفاء من قبله في أمور وخالفهم في أمور ، وأبى أن يأتم بعملهم فيما  
يراه وما لا يراه ، وأوصى ابنه الحسن وقد بلغ الستين فقال : « .. اعلم  
يابنى ان أحب ما أنت آخذ به الى من وصيتى تقوى الله والاقتصار  
على ما فرضه الله عليك والأخذ بما مضى عليه الأولون من آباءك  
والصالحون من أهل بيتك ، فانهم لم يدعوا ان نظروا الى أنفسهم كما  
أنت ناظر وفكروا كما أنت مفكر .. فان أبت نفسك أن تقبل ذلك دون  
أن تعلم كما علموا فليكن طلبك ذلك بتفهم وتعلم . لا بتورط الشبهات ،  
وعلق الخصومات ، وابتدىء قبل نظرك<sup>(٢)</sup> في ذلك بالاستعانة بإهلك ،  
والرغبة اليه في توفيقك ، وترك كل شائبة أولجتك في شبهة أو أسلمت  
الى ضلالة ، فان أيقنت أن قد صفا قلبك ، وتم رأيك فاجتمع ، وكان

(١) أي نسقها وجعل بعضها فوق بعض . (٢) الشوائب : الاقذار  
والادناس . (٣) أدخلتك .

—٤٥—

هيك في ذلك همًا واحداً ، فانظر فيما فسّرت لك .. «  
 وربما كانت هذه الوصية وحدها كافية للتعريف بإسلام عليّ كما  
 ارتضاه لنفسه وارتضاه للقادرين عليه من أتباعه .. فانما هو اسلام  
 المسلم « المطبوع » الذي يبتكر دينه لأنه يعتمد فيه على وحى بصيرته  
 وارتجال مزاجه ، وانما هو اسلام الحكيم المجتهد الذي يرجع في الحكمة  
 والاجتهاد الى رياضة النفس على سنّة النساك<sup>(١)</sup> وتمحيص<sup>(٢)</sup> الفكر على  
 سنّة العلماء ، وانما هو اسلام الرجل الذي أتيح له أن يتلمذ لربّه  
 ويتربى في حجر نبيّه ويصبح اماما للمقتدين من بعده ..

---

(١) النساك جمع ناسك ، والناسك : العابد . (٢) التمحيص : الابتلاء  
 والاختبار .





## عصر الامام

كانت الظاهرة الكبرى في عصر « علي » ظاهرة اجتماعية خاصة به دون عصور الخلفاء من قبله ، ولم تكن في حقيقتها ظاهرة سياسية أو حرية عسكرية ، على شدة القتال فيها وغزارة الدماء التي أريقت في حروبها ..

فعصر أبي بكر كان هو العصر الذي نشأت فيه الدولة الإسلامية وعصر عمر كان هو العصر الذي تم فيه انشاؤها ..

وعصر عثمان كان هو العصر الذي تكون فيه المجتمع الاسلامي بعد نشأة الدولة الجديدة . فبرز فيه نظام جديد على أساس الثروة المملوكة من الأقطار المفتوحة ، وعلى أساس الولايات التي تولاها بعض الطبقات المرشحة للرئاسة من العلية<sup>(١)</sup> وأشباهها ..

أما عصر علي فكان عصرا عجيبا بين ما تقدمه وجاء في أعقابه أو هو لم يكن عجيبا لأنه جرى على النحو الذي ينبغي أن يجرى عليه ، فلم يثبت كل الثبوت ولم يضطرب كل الاضطراب لأنه كان بناء جديدا في سبيل التمام ، ولم يكن بناء متداعيا فكله هدم واندثار ، ولا بناء قائما مفروغا منه فكله رسوخ واستقرار ..

الا ان العجيب فيه حقا انه انقسم بين ثبوته واضطرابه قسمين اثنين متقابلين : في أحدهما كل عوامل الرضا عن النظام الاجتماعي والرغبة في بقاءه وتدعيمه ، وفي الآخر كل عوامل التذمر من النظام الاجتماعي والتحفز لتقويضه<sup>(٢)</sup> وتحويله

أحدهما ، وهو قسم الرضا عن النظام الاجتماعي ، كان قسم معاوية

(١) أشرف القوم . (٢) أي لهدمه .

ابن أبي سفيان في الشام وما جاورها  
والآخر ، وهو قسم التذمر من النظام الاجتماعي ، كان قسم علي  
ابن أبي طالب في الجزيرة العربية بجملة أنحائها

كانت الشام بمعنى من المعاني أرضاً أموية في عهد الجاهلية فلجأ إليها  
أمية جد الأمويين حين غلبه هاشم على الزعامة ، وقصد إليها أبناءه  
متجرين أو مهاجرين إلى ما بعد قيام الدعوة الإسلامية

ثم قامت الدعوة الإسلامية فكان من نصيب يزيد بن أبي سفيان  
أن يتولى الإمارة والقيادة على الشام من قبل الخليفة أبي بكر الصديق ،  
وخلفه أخوه معاوية من قبل الخليفة عمر ، فلم يزل مقيماً على إمارتها  
بضع عشرة سنة إلى مبايعة علي بالخلافة بعد مقتل عثمان . فأتسع له من  
فسحة الوقت وفسحة الرخاء مجال مبهّد لتأسيس السلطان الأموي الذي  
لا ينازعه منازع من حوله . ولم يزل منذ توليها عاملاً على البقاء فيها  
واصطناع الأعوان المؤيدين له في حكمها . فلم يتوان في استرضاء رجل  
ينفعه رضاه ، ولم يقصر رعايته على الشرفاء دون السواد<sup>(١)</sup> من الأتباع  
والأجناد . بل كان يرضى كل من وسعه أرضاؤه ، وقد وسعت ثروة  
الشام كل صاحب حاجة مقيم عنده أو ساع إليه ..

واشتهرت عنه هذه الخصلة حتى قصده أقرب الناس إلى خصومه  
وأولاهم باجتنابه والنقمة عليه .. ومنهم عقيل أخو علي بن أبي طالب ،  
وعبد الله بن عمر بن الخطاب ، وعبد الله بن زمعة ، وعمر بن العاص ،  
وأناس من هذه الطبقة بين الشرفاء وذوي الأخطار

أراد عقيل من أخيه مالا يجريه عليه من بيت المال فأباه عليه لأنه ليس  
له بحق ، فتركه وأقبل على معاوية وهو يقول : « إن أخى خير لى في  
دينى ، ومعاوية خير لى في دنياى » وقس على ذلك ما يصنعه الغرباء عن  
على<sup>(٢)</sup> والمقربون من معاوية بالنسب والرياء .

قد همم أرضاء السواد والعامّة ، كما همم أرضاء الشرفاء وذوي  
الأخطار .. « وبلغ من أحكامه للسياسة واتقانه لها واجتذابه قلوب

• (١) بعامّة الناس

خواصه وعوامه ان رجلا من أهل الكوفة دخل على بعير له الى دمشق في حال منصرفهم عن صفين ، فتعلق به رجل من دمشق فقال : هذه ناقتي أخذت مني بصفين فارتفع أمرهما الى معاوية وأقام الدمشقي خمسين رجلا بينة يشهدون أنها ناقتة .. ف قضى معاوية على الكوفي وأمره بتسليم البعير اليه . فقال الكوفي : أصلحك الله انه جمل وليس بناقة فقال معاوية : هذا حكم قد مضى . ودس الى الكوفي بعد تفرقهم فأحضره وسأله عن ثمن بعيره فدفع اليه ضعفه وبره وأحسن اليه ، وقال له : « أبلغ عليا اني أقابله بمائة ألف ما فيهم من يفرق بين الناقة والجمل ! » ولقد بلغ من أمرهم في طاعتهم له انه صلى بهم عند مسيرهم الى صفين الجمعة في يوم الأربعاء وأعاروه رءوسهم عند القتال وحملوه بها <sup>(١)</sup> :

فان كان في هذه القصص بعض المبالغة فهي مبالغة الفكاهة الموكلة لتكبير الملامح ليرائها من غفل عنها ، وليست مبالغة الخلق والافتراء <sup>(٢)</sup> . وما هي الا سنوات على هذه الوتيرة <sup>(٣)</sup> حتى اجتمع له كل منتفع بالنظام الاجتماعي الجديد ، راغب في تدعيمه ووقيته من نذر الخطر والزوال .

وعلى قدر هذا الدأب الشديد في اجتلاب أسباب التمكين والتدعيم كان له دأب مثله في اتقاء أسباب التمرد ، والاخلال بالنظام ، كما نسميه في هذه الأيام ..

فما سمعت قط صيحة فتنة الا بادرا اليها بما يسكنها ويردها الى طلب الاستقرار والدوام . فمن أجدي <sup>(٤)</sup> معه المال أسكته باغداق المال عليه ، ومن كان من أهل الجد والاخلاص في العبادة والزهادة فهو محتال على اقصائه <sup>(٥)</sup> أو نفيه من الشام بحيلة يوافقها عليها شركاؤه في المصلحة ولا تعييه حنق بعض الزهاد على هذا الترف الذي استفاض بين العلية والشرفاء فارتفعت عليهم صيحة أبي ذر الغفاري بالنكير ، وطلق يطالب الأغنياء بالانفاق في سبيل الله ، حتى ولع الفقراء بصيخته وشكا الأغنياء ما يلقونه من نذيره أو بشيره : « وبشر الذين يكتزون الذهب والفضة ولا ينفقونها

(١) مروج الذهب للمسعودي : الجزء الثامن . (٢) الكذب .

(٣) الطريقة . (٤) نفع وأفاد . (٥) ابعاده .

في سبيل الله بكوا من نار تكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم «  
فأشفق معاوية من مغبة<sup>(١)</sup> هذه الصيحة وأرسل الى أبي ذر ألف دينار  
يسكته بها ان كان ممن يسكتهم الغنى عن الأغنياء ، فما طلع النهار حتى  
كانت الدنانير في أيدي المعوزين<sup>(٢)</sup> الذين يلوذون بالداعية الأمين ويشكون  
اليه . ثم صلى معاوية الصبح وأرسل الى الداعية رسوله الذي حمل اليه  
الدنانير يقول له : « ألق جسدك من عذاب معاوية فانه أرسلني الى غيرك  
فأخطأت بك . فقال له : يا بني ، قل له : والله ما أصبح عندنا من دنانيرك  
دينار .. ولكن أخرنا ثلاثة أيام حتى نجعلها » .. فعلم معاوية أن الرشوة  
هنا لا تغني عن القسوة . وكتب الى الخليفة أن أبا ذر أعزل به فلا طاقة  
له بالصبر عليه ، فأناه الاذن بنفى أبي ذر من الشام الى المدينة ، ثم ضاقت  
به المدينة أيضا فنفي منها الى قرية من أرباضها حيث لا يسمع له دعاء

\*\*\*

وصنع بعبد الله بن سبأ - صاحب القول برجعة النبي الى الدنيا  
ووصاية علي<sup>(٣)</sup> على الخلافة - مثل هذا الصنيع بعد أن داراه فأعياه ،  
فلما يئس منه ومن ترغيبه أو ترهيبه ضيق عليه ثم أقصاه ..

والتفت الى من ساءهم أهل الفتنة من طلاب الاصلاح والتبديل  
فكتب في أمورهم الى الخليفة يقول : « انه قدم على أقوام ليست لهم  
عقول ولا أديان . أضجرهم العدل . لا يريدون الله بشيء ولا يتكلمون  
بحجة . انما همهم الفتنة وأموال أهل الذمة ، والله مبتليهم وختبرهم ثم  
فاضحهم ، وليسوا بالذين ينكون أحدا الا مع غيرهم .. »

ثم أخرجهم من دمشق الى غيرها مستريحا منهم بالنفي والاقصاء ،  
كأنما دمشق وحدها من بلاد المسلمين هي التي ينبغي لها أن تستريح<sup>(٤)</sup>

وهكذا تعاقبت السنون وكل سنة تزيد معاوية وفرة من أسباب  
الرضا والاستقرار وقلة من أسباب القلق والطموح الى التغيير ، حتى  
تحيزت له الشام عند مبايعة علي وفيها أعظم ما يتأتى في مثل ذلك العهد  
من دواعي السكينة واستدامة الحال ، وأقل ما يتأتى فيه من شواجر

(١) عاقبة . (٢) المحتاجين . (٣) أي نواحيها أو ضواحيها . (٤) أجهده

واتعبه . (٥) نكى العدو : قتل وجرح . (٦) كثرة .

الفتنة والعصيان ..

أما علي فقد شاءت المصادفات أن تنعكس الآية في حصته من الدولة الإسلامية أيما انعكاس . فأوشكت أن تنعدم فيها دواعي الرضا والاستدامة ، وأوشكت أن تتم فيها شواجر<sup>(١)</sup> الفتنة وما نسميه اليوم بالاخلال بالنظام ..

فكان التنافس عنده على أشده بين العاصمتين الحجازيتين وبين الكوفة ، لا يرضى أهل المدينة بما يرضى أهل مكة ، ولا يرضى أهل الكوفة بما يرضى به هؤلاء وهؤلاء . حتى ضاق به المقام في الحجاز وأوى الى الكوفة مأوى « المستجير من الرمضاء بالنار »

\*\*\*

وكانت قبائل البادية تنفس<sup>(٢)</sup> على قريش غنائم الولاية ومناصب الدولة ، وينظرون اليهم نظرتهم الى القوى المستأثر بجاه الدين والدنيا وحق الخلافة والسطوة . وهي حالة كان أحجى<sup>(٣)</sup> بالولاية أن يخفوها ويتلطفوا في اصلاحها أو تبديلها ما استطاعوا لها من اصلاح وتبديل ، ولكنهم على تقيض ذلك كانوا يباهون بها ويجهرون بحديثها حتى قال سعيد بن العاص والى الكوفة : « انما السواد بستان لقريش ! » ..

وظهر هذا السخط من اثره قريش في خطب المتكلمين بلسان أهل البادية حين نشب النزاع بين طلحة والزبير وأنصارهما وبين علي وأنصاره ، فقام في الجمع رجل من عبد القيس يقول :

« يا معشر المهاجرين ! .. انتم أول من أجاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فكان لكم بذلك فضل .. » الى أن قال يشير الى خلافة أبي بكر : « ولم تستأمرونا في شيء من ذلك فجعل الله للمسلمين في امارته بركة ، ثم مات واستخلف عليكم رجلا فلم تشاورونا في ذلك . فرضينا وسلمنا . فلما توفي جعل أمركم الى ستة نفر فاخترتم عثمان ، وبايعتموه عن غير مشورة منا ، ثم بايعتم عليا من غير مشورة منا . فما الذي تقمتم عليه فنقاتله ؟ » ..

---

(١) أي نوازع . (٢) الارض الشديدة الحرارة . (٣) نفس عليه بخير : حسد ، ونفس عليه الشيء نفاسة : لم يره أهلاله . (٤) أجدر .

وهذا كلام رجل يدين بفضل المهاجرين ويقدمه في صدر مقاله ، فكيف بكلام الرجال ممن ينسون هذا الفضل أو تغلبهم المنافسة على الشهادة به في معرض الخصومة ؟ .. ولعل النافئين<sup>(١)</sup> بهذا الغيظ كانوا يشوبون الى بعض الصبر والتجاوز لو أنهم وجدوا من يشكون اليه فيحسن الاصغاء والاعتراف لهم بالحق في دعواهم ، ولكنهم كانوا يشكون فيثور بهم المخالفون ويلجئونهم الى الصمت راغمين<sup>(٢)</sup> . فلما قال ذلك الرجل مقالته هموا بقتله لساعته لولا أن حمته عشيرته وصحبه . ثم وثبوا عليه في الغد فقتلوه وقتلوا معه قرابة سبعين .

\*\*\*

وكان العبيد والموالي والأعراب المحرومون حائقين متبرمين لا يرضون عن حظهم من العيش بعد أن علمهم الاسلام حقوق المساواة وشرع لهم شريعة الانصاف . ولقد يكون معظم المتآمرين على قتل عثمان من هؤلاء العبيد والموالي والأعراب المحرومين . فلما طوب علي<sup>(٣)</sup> بالاقتصاص منهم لمقتل عثمان قال : «..كيف أصنع بقوم يملكوننا ولا نملكهم ؟.. ها هم هؤلاء قد ثارت معهم عبدانكم وثابت اليهم أعرابكم ، وهم خلالكم يسومونكم ما شاءوا فهلا ترون موضعا لقدرة على شيء مما تريدون ؟ » وقالت السيدة عائشة ، رضى الله عنها : « أيها الناس !.. ان الغوغاء من أهل الأمصار وأهل المياه ، وعبيد أهل المدينة اجتمعوا على هذا الرجل المقتول ظلما بالأمس.. والله لأصبع عثمان خير طباق الأرض أمثالهم.. »

\*\*\*

وكان مع علي<sup>(٤)</sup> جمهرة القراء والحفاظ وأصحاب النسخ والفقهاء والشرعية ، وهم خلق كثير يعدون بالألوف ويتفرقون في الحواضر والبادي ، ولا يزالون كأنبيا بني اسرائيل منذرين متوعدين ساخطين على ترف المترفين ، منكرين لكل خلاف ولو يسير في اقامة أحكام الدين . لا يرضون عن الدنيا ولا عن رضى بها من طلابها ، ولا يستمعون الى أمر الا أن يكون في رأيهم وفاقا لحكم القرآن كما يفسرونه وحكم السنة

(١) النفث : هو كالنفخ وأقل من التفل . (٢) مكرهين . (٣) مغتاطين .

كما يعتقدونها . وطالما وقفوا بين علي<sup>(١)</sup> وبين القتال لأنهم لا يستطيعونه ، أو عن الصلح والتحكيم لأنهم يجئون القرآن عن قبوله .. فإذا كان أجناد معاوية يسمعون الحق والباطل لأنهم لا يفرقون بينهما ولا يفرقون بين الجمل والناقة فهؤلاء الأجناد العارفون لا يسمعون الا ما أجازوه واستوجبوه ، لأنهم خرجوا في الأرض للتفريق بين الحلال والحرام والمعروف والمنكر . فلا يجمعون على طاعة ولا يحاربون أو يسالمون في جماعة . وهم أقرب الناس في ذلك العهد الى الجهر بالنذير والنساء بالتبديل والتغيير ، والاصغاء الى وحى الضمير قبل دعاء الأمير ..

واجتمع مع علي في الحجاز والكوفة كل منافس على الخلافة متطلع اليها ولو لم يجهر بطلبها مخافة من شركائه الذين يزاحمونه عليها ، فمنهم من كان يقول لعل<sup>(٢)</sup> : نبايعك على أنا شركاؤك ، ومنهم من كان يتعلل بقلّة المشاورة له والمبالاة بقوله ، ومنهم من كان يحارب عثمان ثم أصبح يحارب عليا<sup>(٣)</sup> باسم عثمان ، تمحلا<sup>(٤)</sup> لذرائع<sup>(٥)</sup> الخلاف وكراهة لاستقرار الأمور ..

### \*\*\*

وقد كان أبو بكر وعمر يسكان كبار الصحابة بالحجاز ويحذران منهم أن ينطلقوا في الأرض فيقبلوا على الدنيا ويشجر<sup>(٦)</sup> بينهم من النزاع ما يشجر بين طلابها . ثم ينصدع<sup>(٧)</sup> شمل الأمة بالتشيع لهم وعليهم والنفرت بين أنصارهم وأعدائهم ، وأوصى أبو بكر خليفته من بعده قائلا :

« .. احذر هؤلاء النفر من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم الذين انتفخت أجوافهم وطمحت أبصارهم وأحب كل امرئ منهم نفسه ، وإن منهم لحيرة عند زلة واحد منهم فإياك أن تكونه ، واعلم أنهم لن يزالوا منك خائفين ما خفت الله » ..

فلما صارت الخلافة الى عثمان أهمل هذه السياسة الحكيمة وشق عليه أن يطيل حبسهم بالحجاز والهيمنة عليهم بجواره ، فانطلقوا حيث ذهبت بهم المذاهب ، وكان منهم ما حذره أبو بكر حيث قال لعبد الرحمن بن

(١) يعظمون • (٢) تمحل له : احتال • (٣) جمع ذريعة وهي : الوسيلة •

(٤) شجر بينهم الامر : تنازعوا فيه • (٥) أي يتشقق •

عوف : « ورأيتم الدنيا قد أقبلت .. حتى تتخذوا ستور الحرير ونضائد الديباج وحتى يآلم أحدكم بالاضجاع على الصوف الأذري (١) كما يآلم أحدكم اذا نام على حسك السعدان »

\*\*\*

روى المسعودى انه « فى أيام عثمان اقتنى الصحابة الضياع والمال ، فكان لعثمان يوم قتل عند خازنه خمسون ومائة ألف دينار وألف ألف درهم ، وقيمة ضياعه بوادى القرى وحنين وغيرهما مائة ألف دينار وخلف ابلا وخيلا كثيرة ، وبلغ الثمن الواحد من متروك الزبير بعد وفاته خمسين ألف دينار ، وخلف ألف فرس وألف أمة . وكانت غلة طلحة من العراق ألف دينار كل يوم ومن ناحية السراة أكثر من ذلك . وكان على مرتبط عبد الرحمن بن عوف ألف فرس وله ألف بعير وعشرة آلاف من الغنم ، وبلغ الربع من متروكه بعد وفاته أربعة وثمانين ألفا ، وخلف زيد بن ثابت من الذهب والفضة ما كان يكسر بالفتوس غير ما خلف من الأموال والضياع . وبنى الزبير داره بالبصرة وبنى أيضا بمصر والكوفة والاسكندرية .. وكذلك بنى طلحة داره بالكوفة وشيد داره بالمدينة وبنها بالجص والآجر والساج ، وبنى سعد بن أبى وقاص داره بالعقيق ورفع سمكها وأوسع فضاءها وجعل على أعلاها شرفات ، وبنى المقداد داره بالمدينة وجعلها محصنة الظاهر والباطن ، وخلف يعلى بن منبه خمسين ألف دينار وعقارا وغير ذلك ما قيمته ثلاثمائة ألف درهم »

\*\*\*

هؤلاء أيضا أصبحوا فى جصة على من الدولة الاسلامية عنصرا من أقوى عناصر القلق والتبرم<sup>(٢)</sup> والنفور من دوام الأمر للحكومة الجديدة ، خلافا لأمثالهم فى معسكر معاوية .

فالذى يغلب على أصحاب الثروات فى كل مجتمع أنهم أنصار الحالة القائمة وأعداء الثورة والاضطراب السياسى أو الاجتماعى على

(١) منسوب الى أذريجان . (٢) السام .



التخصيص ، ولكن هؤلاء الأغنياء خالفوا المعهود في مجتمع علي<sup>١</sup>  
فأصبحوا قادة السخط والشكوى وأعوان الثورة والتغيير ولو في سرائر  
القلوب كلما حيل بينهم وبين الظهور في الثورة بفعل محسوس . لأنهم  
عرفوا علياً من قبل ومن بعد فعلموا أنه لن يقرهم على ما هم فيه ولن  
يلبث أن يحاسبهم على ما جمعه من المال أو يأخذ عليهم طريق المزيد  
عرفوا مذهبه في حساب الولاية ومذهبه في حساب الخلافة . فلما كان  
واليا لليمن أبي على بعض الصحابة أن يركبوا ابل الصدقة وقال لهم :  
انما لكم منها سهم كما للمسلمين ، ثم لام العامل الذي أذن لهم أن  
يركبوها في غيته وهو منصرف الى الحج . وشاعت هذه القصة لأن  
أناسا شكوه الى رسول الله عليه السلام ، فأنكر شكواهم منه وقال :  
« لقد علمت انه جيش في سبيل الله »

\*\*\*

ولما قام عثمان بالخلافة طال عتب علي<sup>٢</sup> عليه ، لأنه أباح للعمال والولاة  
ما ليس بمباح في رأيه ، ولقى بالعتاب كل صحابي من اخوانه جبع مالا  
واستهوته فتنة البذخ والثراء ..  
وليس مذهبه واليا ولا مذهبه خليفة بمريح أولئك الأغنياء الذين ذاقوا  
حلاوة الغنى وكرهوا أن يحرموه أو يحاسبوا عليه ..  
ولم يكن في وسع علي<sup>٣</sup> أن يغض عنهم نظره ولو شاء ذلك ، وهو  
لا يشاؤه ولا يحله لنفسه وقد أنكره على غيره . لأنه اذا غض نظره لم  
يستطع أن يغض الانتظار المفتوحة التي ثارت بعثمان وبايعت علياً بعده  
ليصنع غير ما صنعه عثمان وغير ما أثارهم عليه  
فلا دعاة الدنيا راضون مطيعون ، ولا دعاة الدين راضون مطيعون ،  
ولا الفقراء والجهلاء راضون مطيعون ، وما منهم الا من هو قلق متوفز<sup>(١)</sup>  
لا يسكن به سكن ولا يدوم به قرار  
وكل أولئك كانوا في حصّة علي<sup>٤</sup> من الدولة الاسلامية ، ولم يكن  
للمعاوية في حصته شجرة فتنة من هذه الشواجر بل كان له في موضع كل

(١) متعجل .

واحدة منها دعامة تمكين وتأييد  
وان هذه الشواجر على كثرتها وقوتها لفي غنى عن علة أخرى من  
علل الفساد والشقاق تضاف إليها

ولكنها مع هذا لم تستوعب تلك العلل التي اصطلحت على حصة  
علي<sup>(١)</sup> من الدولة الإسلامية .. فقد أضيفت إليها علة أخرى ، بل أضيفت  
إليها أكثر العلل التي تبطل بها دولة أو حكومة . وهي اعتمادها في  
مواردها على غيرها ..

فكانت موارد الشام في الشام نفسها من خراج أو انفال أو تجارة .  
أما موارد الحجاز فقد كانت بعيدة منه وان دخلت في طاعته وجنحت إلى  
القائم بالأمر فيه . وكانت مصر والسودان من حصة علي<sup>(٢)</sup> ، ولكنه لم ينتفع  
بمصر كثيرا لتعاقب الولاة فيها ، ولم يستفد بالسودان كثيرا لتعاقب الفتن  
والغارات عليها .. وحسبك من هذا داعية قلق وباعث مخافة ومبطل  
أمان وطمأنينة ..

### \*\*\*

وينبغي أن نذكر ان الحيلة في هذا التقسيم قليلة ، وان الحوادث هي  
التي اختارت لكل حصة من الحصتين زعيمها وأشبه الناس بها وأقربهم  
إلى ولاية أمرها و « كما تكونوا يول عليكم » .. ولا محل في هذه  
القاعدة الحيلة أو اختيار ..

فلم يكن أحد أشبه بقيادة المنافع المستبقة من معاوية ، ولم يكن  
أحد أشبه من علي<sup>(٣)</sup> بقيادة الشكوى التي تطمح بأصحابها إلى التغيير..  
ان شكا اناس غلبة قريش ، فعلي<sup>(٤)</sup> كان يشكو منها ويظن الظنون  
بحقدها عليه ونكرانها لحقه ، ويقول في كتاب من كتبه إلى أخيه :  
« ... ودع عنك قريشا وتركاضهم<sup>(٥)</sup> في الضلال وتحولهم في الشقاق ،  
فان قريشا قد أجمعت على حرب أخيك اجماعها على حرب رسول  
الله صلى الله عليه وسلم قبل اليوم ... »

وان جاءت صيحة الإصلاح والتغيير عن طريق الدين على مذهب

---

(١) مالت ٠ (٢) أي ركضهم ٠

—٥٧—

الحفاظ والقراء والنسك فعلي<sup>١</sup> كان امام أهل العلم والقراءة ، وأحق من يتكلم بتفقيه أو تفسير ..

وان جاءت من ضميم<sup>(١)</sup> الفقراء فعلي<sup>٢</sup> فقير ، أو من تهافت الولاة على المال فعلي<sup>٣</sup> يبغض هذا التهاافت كما يبغضه أضعف الفقراء ، عن زهد فيه لا عن قلة الوسائل اليه ..

فما شكا شاك قط الا وعلي<sup>٤</sup> شريك له في شكواه ، وكيف ينجو رجل كهذا من قيادة الدولة التي قامت على التبرم بالحال والطموح الى التغيير ؟.. وأية حيلة له الى جانب حيلة الحوادث وتوفيق المقادير ؟..

\*\*\*

كان علي<sup>٥</sup> نموذج أصحابه الأعلى ، وكان معاوية نموذج أصحابه الأعلى . وكانا لأجل ذلك في موضع رشحتهما له الحوادث قسرا قبل أن يرشحا له بارادة مريد

وما نحن بقادرين على وزن الرجلين ولا على المقابلة بينهما في الرأي والعمل ما لم نستحضر هذه الحقيقة أبدا ، وما لم نذكر أبدا ان أحدهما كان يعمل والحوادث حرب عليه ، وان الآخر كان يعمل والحوادث عدة في يديه !..

---

(١) ظلم • (٢) أي قهرا •

## البيعة

بويج لملي<sup>(١)</sup> بالخلافة بعد حادثة من أفجع الحوادث الدامية في تاريخ الاسلام ، وهى مقتل الخليفة عثمان بن عفان في شيخوخته الواهنة<sup>(٢)</sup> ، بعد أن حصروه بين جدران داره ، وكاد يقتله الظمأ لو أمهله القتلة بضعة أيام ..

وأفجع ما كان في هذه الحادثة ، انها بلاء لا يدفع وقضاء لا حيلة لأحد في اتقائه لأن المسؤولين عنه كثيرون متفرقون في كل جانب يناصره أو يعاديه .. فاذا امتنع الأعداء لم يمتنع الأصدقاء ، واذا بطل الشر الذي فيه اختيار لم يبطل الشر الذي لا اختيار فيه ، وربما كان حسن النية وسوء النية هنا صنوين متساويين . فمن الأعمال المؤسفة التي عجلت بالفاجعة أعمال كثيرة بدرت من عثمان نفسه ، أو لعله أقدم عليها بعد قصد ومراجعة ، وليست هى في تعجيلها ولا فى سوء مقبتها<sup>(٣)</sup> بأهون من أعمال الأعداء ..

مضت السنون الاولى من خلافة عثمان على خير ما كان يرجى لها أن تمضى في عهد خليفة ..

ثم تغيرت الأحوال فجأة من جانب الراعى ومن جانب الرعية ، لأسباب لم تكن طارئة ساعة ظهورها ، وان ظهرت عواقبها طارئات ... وتتعدد الأسباب التي أوجبت ذلك التغير بعد السنوات الأولى ، ولكنها قد تنحصر في سببين اثنين جامعين لغيرهما من الأسباب العديدة ، وهما امعان الخليفة في الشيخوخة ، واستمراء الأعوان لما نعموا به من لين الخليفة ولين الرغد<sup>(٤)</sup> والمتاع .

(١) ربح تأخذ في المنكيين ، أو في العضد ، أو في الاخذ عند الكبر .

(٢) عاقبتها . (٣) العيشة الواسعة الطيبة .

ولقد كتبت الأسفار المطولات <sup>(١)</sup> في اجزاء المآخذ على عثمان رضى الله عنه ، وكتبت الأسفار المطولات في تبرئة الخليفة من تلك المآخذ أو الاعتذار له بأحسن الأعذار وتفسيرها على أحسن الوجوه ، لأن المسألة خرجت من عداد المسائل التاريخية ، وانتقلت الى ميدان النزاع بين الأحزاب والمذاهب وأقاويل الجدل والحجاج .. فجعلها الشيعيون وأهل السنة ذريعة إلى تأييد مذهب وانكار مذهب في الخلافة والخلفاء ، وراح الأولون يبالغون في الاتهام كما يبالغ الآخرون في الدفاع . ولا طائل هنا من شرح هذا وذاك ، ولا هو مما يقتضيه كلامنا الآن .. وانما المرجع فيه الى تاريخ عثمان ..

الا انا نجتزئ هنا بالاشارة الى التذمر الذى أثار الفتنة ، والالام بأسبابه عند أصحابه .. فمما لاشك فيه انهم تذمروا لأسباب تثيرهم وان طال الشك والجدل حول نصيبهم من الخطأ والصواب ..

أهم هذه الأسباب ، انه خالف بعض السنن التى اتبعها النبى عليه السلام فى الأذان والصلاة ، وانه أدنى أناسا من أقاربه كان رسول الله عليه السلام قد أقصاهم عن المدينة .. فاستدعاهم اليه بعد استخلافه وأغدى عليهم المنح والأموال وانه أطلق العنان لأبناء أسرته فى الولاية والعمالة ، ومنهم من اتهموه باقامة الصلاة وهو سكران ، وانه منح سفيان بن حرب مائتى ألف درهم ومنح الحارث بن الحكم زوج ابنته عائشة مائة ألف درهم من بيت المال ، وانه توسع فى بناء القصور ، وحرم بعض الصحابة ، وضرب بعضهم على مشهد من الملاء ضرب اهانة وإيجاع ..

ولم تنقض سنوات على هذه الحال حتى كثر المترفون من جانب والمتربون <sup>(٢)</sup> من جانب آخر ، وشاع بين الجانبين ما يشيع دائما فى أمثال هذه الأحوال من الملاحقة والبغضاء والتزيد بالتهم واللجاجة ، وإضافة الأوهام الى الحقائق فى خلق ذرائع الخلاف والشحناء .

ويدل على خطر مسألة الثروة فى هذه الفتنة ، ان الناس تألبوا على

(١) الكتب • (٢) أي وسيلة • (٣) نكتفي • (٤) الفقراء المعدمون •

(٥) لاحاه ملاحاة : نازعه • (٦) التماذي في الخصومة •

الخليفة مرة .. فأرسل في طلب علي\* ليصرفهم عنه ، فلما قدم اليه استأذنه في اعطائهم بعض الرغد العاجل من بيت المال ، فأذن له .. فانصرفوا عن زعماء الفتنة ، وهدءوا الى حين ..

ثم توافد المتذمرون من الولايات الى المدينة مجندين وغير مجندين .. وتولى زعامة المتذمرين في بعض الأحيان جماعة من آجلاء الصحابة ، كتبوا صحيفة وقعوها وأشهدوا فيها المسلمين على ما أخذ الخليفة .. فلما حملها عمار بن ياسر اليه ، غضب وزيره مروان بن الحكم ، وقال له : « ان هذا العبد الأسود قد جرأ عليك الناس .. وانك ان قتلتهم نكلت به من وراءه » فضربوه حتى غشى عليه .<sup>(٧)</sup>

وفي مرات أخرى ، كان الخليفة يصغى الى هذه الشكايات ويندم على ما اجترحه أعوانه بعلمه أو بغير علمه ، ثم يعلن التوبة الى رعاياه ، ويؤكد لهم الوعد باقصاء أولئك الأعوان واخلافهم في أعمالهم بمن يرضى المسلمين ، ويرضى الله ..

ثم يغلبه أولئك الأعوان على مشيئته ، فيبقيهم حيث كانوا وعلى ألسنتهم فيما تعودوه من الترف والنكايه ، وعلى رأسهم مروان بن الحكم .. أبغض أولئك الأعوان الى المسلمين ، حتى من أهل الخليفة المقربين

وكان بعض الوفود يشكون ولائهم ، فاذا عادوا الى بلادهم تلقاهم أولئك الولاة بالأذى وقتلوا بعضهم ضربا على ملا من الشاكين الذين ينتظرون الانصاف .. فيعود المضروبون الى الشكوى ، وينصرهم آجلاء الصحابة عند الخليفة ، ويسألونه أن يولى عليهم غير واليهم المسمى اليهم . فاذا توجه الوالى الجديد الى مكانه ، اذا في الطريق رسول يحمل خطابا للوالى المعزول ، يأمره فيه بقتل من يقد اليه من حاملى الشكوى وحاملى كتاب الولاية ، ويقره في مكانه !

حدث هذا مع وفد مصر ، واختلفت الأقاويل في تأويله من متهم للخليفة ، ومتهم لمنافسيه على الخلافة ، ومتهم لوفد الشكوى الذى عثر بالخطاب ، ومتهم لمروان بن الحكم — عنصر السوء في هذه المأساة

(١) العطاء والصلة . (٢) أي جعلته عبرة لغيره (٣) أي اغمي .

(٤) اكتسبه . (٥) يطيل ويمهل .

—٦١—

كلها - وهو أولى الأقاويل بالترجيح والتصديق ، اذ كان أيسر شيء على مروان لو كان بريئا من هذه المكيدة أن يكشف حقيقتها بسؤال الغلام حامل الخطاب ، وفي كشف هذه الحقيقة ابراء له ، وتعزيز لسلطان الخليفة ، وفضيحة لأعدائه ، وادحاض<sup>(١)</sup> لحجة الفتنة ، ودعوة الاثارة والتحريض .. ولكنه أهمل السؤال ، وقنع من تبرئة نفسه بقذف التهمة على متهميه ..

\*\*\*

وظل الخليفة والثوار يشتبكون ويتحاجزون .. لا هم في حرب ، ولا هم في سلام ..

وكلما تحاجزوا بعد اشتباك منذر بالشر ، زاد الخليفة ضعفا ، وزاد الثوار ضراوة ، وزاد التوجس بينهم استفحالا واتسع مع التوجس مجال السعاية والارجاء<sup>(٢)</sup> بين الفريقين حتى بلغ الكتاب أجله ..

وتوسط علي<sup>٣</sup> بين الخليفة والثوار ، فاستمهلهم الخليفة ثلاثة أيام يرد فيها المظالم ويعزل العمال المكروهين

فاتتظر الثوار هذه الأيام الثلاثة تلبية لنصيحة علي<sup>٣</sup> ... ومنهم من يسيء الظن ، ويرى ان الخليفة انما يستمهلهم في انتظار المدد الذي طلبه من الأمصار ..

وانقضت الأيام الثلاثة على غير جدوى ..

وتفاقت الفتنة ، وأحاط الثائرون ببيت عثمان .. لا يقنعون في هذه الكرة<sup>(٤)</sup> الا أن يعتزل ، أو يسلمهم مروان بن الحكم ، أو يعزلوه عنوة<sup>(٥)</sup>

وجاء في رواية « شداد بن أوس » ان عليا<sup>٣</sup> رضى الله عنه ، خرج من منزله يومئذ معتما بعمامة رسول الله متقلدا سيفه ، أمامه الحسن وعبد الله بن عمر في نفر من المهاجرين والأنصار حتى حملوا على الناس وفرقوهم ، ثم دخلوا على الخليفة فسلم عليه علي<sup>٣</sup> .. وقال بعد تمهيد وجيز<sup>(٦)</sup> : « .. لا أرى القوم الا قاتليك ، فمرنا فلنقاتل » . فقال الخليفة : « أشد الله رجلا رأى الله حقا ، وأقر أن لى عليه حقا ، ان يهريق في

(١) أي إبطال . (٢) الخوض في أخبار الفتنة . (٣) المرة . (٤) أي

قهرها . (٥) أي قصير .

سببى ملء محجمة من دم أو يهريق دمه فى « فأعاد عليّ القول ، فأعاد عليه هذا الجواب .. ثم خرج من عنده الى المسجد ، وحضرت الصلاة فنادوه : « يا أبا الحسن .. تقدم فصلّ بالناس » فقال : « لا أصلى بكم والامام محصور ، ولكنى أصلى وحدي » ثم صلّى وحده وانصرف الى منزله ، وترك ابنيه مع أبناء زمرة<sup>(١)</sup> من الصحابة فى حراسة دار الخليفة ، ليعلم الثوار أنهم معتدون على كل ذى خطر فى الاسلام ان وصلوا الى الخليفة باعتداء .. عساهم ان علموا ذلك أن يتهيؤوا المركب ، فلا ينزعوا بالشر غاية منزعه

الا أن الثوار علموا أنهم مأخوذون بالانتظار مغلوبون بالمطاولة فتسوروا الدار وولغوا فى دم طهور لو هان على صاحبه أن تسفك الدماء فى سبيله لعز عليهم أن يسفكوه .

\*\*\*

وللافاضة فى مقتل عثمان وعبرة هذا المقتل ، مكان غير هذا المكان ، وكتاب غير هذا الكتاب ..

فأما نحن فى صدد الموقف الذى وقفه على من هذه الجريمة ، وما ينم<sup>(٢)</sup> عليه هذا الموقف من خلقه ورأيه وسريرته وجهره .. وانما يعنيننا هنا أن نسأل : أكان عليه وزر فى هذه الجريمة ؟.. أكان فى مقدوره عمل صالح يعمله لا تقاذ عثمان من هذا المصير ؟..

ونحن لا نسأل هذا السؤال لنترجع فى جوابه الى جدل المجادلين وأقاصيص المادحين والقادحين .. فقد سأل فى الخلاف على هذا السؤال دم غزير ومداد كثير ، وليس علينا نحن أن نزيد قطرة أو قطرات على هذا البحر المسجور<sup>(٣)</sup> الذى لا رى فيه

ليس علينا هذا ، لأننا نستطيع أن نعبره الى حقيقة ماثلة لمن يشاء أن يراها ، وفيها الغنى - ولو بعض الغنى - عن الاسهاب فى السؤال والجواب ..

فالحقيقة التى لا يطول فيها الرب<sup>(٤)</sup> ، أن علياً رضى الله عنه لم يكن

(١) جماعة • (٢) أي يدل • (٣) المملوء • (٤) لعلها الريب •



أقدر على اجتناب هذا المصير من معاوية أو من عثمان نفسه ، لو شاء عثمان أن يستمع الى بعض الناصحين اليه

فقد كان معاوية واليا عزيزا ، له جند يرسله الى الخليفة فيحييه في الشدة اللازمة وان أباه ، وكان لمعاوية قبول عند عثمان لم يكن لعلّي ولا لأحد من خلصائه ، وكان هو آقمن<sup>(١)</sup> أن يميل بعثمان الى الرضا بالحراسة أو الرضا بالرحلة الى مكة أو الشام ، لو أراد

وكان في وسع عثمان أن يرحل الى مكة ، وهي آمن له من المدينة ، أو يرحل الى الشام وقد كانت مفتوحة له قبل أن تغلقها الفتنة ويمرد الثوار في العصيان ..

أما عليّ فقد كان موقفه أصعب موقف يتخيله العقل في تلك الأزمة المحفوفة بالمصاعب من كل جانب ..

كان عليه أن يكبح الفرس عن الجراح ، وكان عليه أن يرفع العقوبات والحواجز من طريق الفرس .. كلما حيل بينها وبين الانطلاق

كان ناقدا لسياسة عثمان وبطائنه التي حجبت عن قلوب رعاياه .. فاصحا للخليفة بأقصاء تلك البطانة<sup>(٢)</sup> ، وتبديل السياسة التي تزينها له وتغريه باتباعها وصم الآذان عن الناصحين له بالاقلاع عنها

وكان مع هذا أول من يطالب بالغوث ، كلما هجم الثوار على تلك البطانة ، وهموا بأقصائها عنوة من جوار الخليفة

كان الثوار يحسبونه أول مسئول عن السعى في الإصلاح ، وكان الخليفة يحسبه أول مسئول عن تهدئة الحال وكف أيدي الثوار

ولم يكن في العالم الاسلامي كله رجل آخر يعاني مثل هذه المعضلة التي تلقاه من جانبيه كلما حاول الخلاص منها ، ولا خلاص !

وضاعف هذا الحرج الشديد الذي كان يلقاه في كل خطوة من خطواته ، انه لم يكن بموضع الخطوة<sup>(٣)</sup> والقبول عند الخليفة حيثما وجب الاصفاء الى الرأي والعمل بالمشورة . وانما كان مروان بن الحكم موضع الخطوة الأولى بين المقرئين اليه .. لا ينجو من احدى جناياته التي كان

(١) أجدر . (٢) أي حاشيته . (٣) أي علو المنزلة والمكانة .

يجنيها على الحكومة والرعية حتى يعود الى الخليفة فيوقع في روعه ان عليا واخوانه من جلة الصحابة هم الساعون بين الناس بالكيد له وتآليب الثائرين عليه ، وانه لا امان له الا ان يوقع بهم ويعرض عنهم .. ويلتمس الأمان عند عشيرته وأقربائه ، ومن هم أحق الناس بسلطانه وأصدقهم رغبة في دوامه ..

ففى المؤتمر الذى جمعه الخليفة للتشاور فى اصلاح الأمر وقمع الفتنة ، لم يكن عليا مدعوا ولا منظورا اليه بعين الثقة والمودة .. بل كان المدعوون الى المؤتمر من أعدائه والكارهين لنصحه .. وهم معاوية وعمرو بن العاص وعبد الله بن أبى سرح وعبد الله بن عامر وسعيد بن العاص ، وهم فى جملتهم أولئك الولاة الذين شكاهم عليا وجمهرة الصحابة ، وبرمت<sup>(١)</sup> بهم صدور المهاجرين والأنصار

قال لهم عثمان : « ان لكل امرئ وزراء ونصحاء ، وانكم وزرائى ونصحائى وأهل ثقئى . وقد صنع الناس ما قد رأيتم ، وطلبوا الى أن أعزل عمالى ، وأن أرجع عن جميع ما يكرهون الى ما يحبون .. فاجتهدوا رأيكم وأشيروا عليا » ..

قال معاوية : « أرى لك يا أمير المؤمنين أن ترد عمالك على الكفاية لما قبلهم ، وأنا ضامن لك ما قبلى »

رأى رجل يريد أن يحتفظ بولايته ، ولا يريد أن يغضب أحدا من أصحاب الولايات فى غير مصره ..

وقال عبد الله بن عامر : « رأى لك يا أمير المؤمنين أن تأمرهم بجهاد يشغلهم عنك ، وأن تجمهرهم فى المغازى<sup>(٢)</sup> حتى يدلوا لك .. فلا تكون همة أحدهم الا نفسه ... »

رأى رجل يريد أن يشغل الناس عن الشكوى ولا يريد أن يزيلها ، ثم هو لا يبالى أن يخلق جهادا تسفك فيه الدماء فى غير جهاد مطلوب وقال عبد الله بن سعد : « أرى يا أمير المؤمنين ان الناس أهل طمع ، فأعطهم من هذا المال تعطف عليك قلوبهم »

(١) أي ضاقت وسئمت • (٢) أي الحروب •

رأى رجل يشتري الرضا بالرشوة ، ويستبقى ما في يديه منها  
وقال عمرو بن العاص ، وهو بين السخط على ولاية فاتها والطمع في  
ولاية يرجوها : « أرى انك قد ركبت الناس بما يكرهون ، فاعتزم أن  
تعدل .. فان أبييت ، فاعتزم أن تعتزل .. فان أبييت ، فاعتزم عزما وامض  
قدما » ..

رأى رجل عينه على الخليفة وعينه على الثوار ، ولهذا بقى حتى تفرق  
المجتمعون .. ثم قال للخليفة حيث لا يسمعه أحد غيره : « والله يا أمير  
المؤمنين لأنت أعز عليّ من ذلك .. ولكنى قد علمت ان سيلغ الناس  
قول كل رجل منا ، فأردت أن يبلغهم قولى فيثقوا بى .. فأقود اليك  
خيرا وأدفع عنك شرا ... » .



وكان هؤلاء هم الوزراء والنصحاء وأهل الثقة عند عثمان ، ومن  
ورائهم مروان بن الحكم يلزمه ويكفل لهم أن يحجب النصحاء عنه ،  
وفى مقدمتهم علىّ واخوانه .. ثم تفرق المؤمنون وقد رد عثمان كل  
عامل الى عمله ، وأمره بالتضييق على من قبله ..  
فكانت حيلة علىّ في تلك المعضلة العvisية جد قليلة ، وكان الحول<sup>(١)</sup>  
الذى في يديه أقل من الحيلة

الا انه مع هذا قد صنع غاية ما يصنعه رجل معلق بالنقيضين ،  
معصوب<sup>(٢)</sup> بالتبعين ، مسئول عن الخليفة أمام الثوار ومسئول عن الثوار  
أمام الخليفة ..

جاءه الثوار مرة من مصر خاصة ، يتخطون الخليفة اليه ويعرضون  
الخلافة عليه .. فلقبهم أسوأ لقاء ، وأنذرهم لئن عادوا اليها ليكون  
جزاؤهم عنده وعند الخليفة القائم ، جزاء العصاة المفسدين في الأرض

وجاءوه مرة أخرى وحجتهم ناهضة ، ودليل التهمة التى يتهمون بها  
بطانة عثمان في أيديهم .. جاءوه بالخطاب الذى وجدوه في طريق مصر  
مع غلام عثمان ، يأمر عامله بقتلهم بعد أن وعدهم خيرا وأجابهم الى

(١) الحول هنا : بمعنى القوة . (٢) أي محاط .

تولية العامل الذى يرضيهم . فلم تخدعه حجتهم الناهضة ، ولم يشأ أن يملى لهم فى ثورتهم واحتجاجهم من جراء ذلك الخطاب المشكوك فيه . وجعلهم متهمين مسئولين بعد أن كانوا متهمين سائلين ، فقال لهم : « وما الذى جمعكم فى طريق واحد ، وقد خرجتم من المدينة متفرقين كل منكم الى وجهة ؟ » ..

\*\*\*

وكانت حيرة علي<sup>(١)</sup> بين التقريب والإبعاد ، أشد من حيرته بين الخليفة والثوار .. فكان يؤمر تارة بمبارحة المدينة ليكف الناس عن الهتاف باسمه ، ويستدعى اليها تارة ليردع الناس عن مهاجمة الخليفة . فلما تكرر ذلك ، قال لابن عباس الذى حمل اليه رسالة عثمان بالخروج الى ماله فى ينبع : « يا ابن عباس .. ما يريد عثمان الا أن يجعلنى جملاً ناضحاً بالغرب — أى الدلو — أقبل وأدبر .. بعث الى أن أخرج ، ثم بعث الى أن أقدم ، ثم هو الآن يبعث الى أن أخرج .. والله لقد دفعت عنه حتى خشيت أن أكون آثماً » ..

ثم بلغ السيل الزبى<sup>(٢)</sup> ، كما قال عثمان رضى الله عنه ، فكتب الى علي<sup>(٣)</sup> يذكر له ذلك ويقول : « ان أمر الناس ارتفع فى شأنى فوق قدره .. وزعموا أنهم لا يرجعون دون دمي ، وطمع فى من لا يدفع عن نفسه فان كنت مأكولاً فكن خير آكل والا فأدركنى ولما أمزق فعاد علي<sup>(٤)</sup> ، وجهد فى انقاذ الخليفة جهده ، ولكنه كان يعالج داء استعصى دواؤه وابتلى به أطبأؤه .. فكلهم يريد تغييراً يأتى من قبل الغيب أو يأتى من قبل الآخرين ، ولا يغير شيئاً من عمله أو مستطاعه . ولعل الخليفة لو شرع فى التغيير المرجو يومئذ لما أجدى عليه عظيم جدوى ، لفوات آوانه وانطلاق الفتنة من أعنتها ، وامتناع التوفيق والصفاء بعد ما وقر فى النفوس ولغطت به الأفواه ..

وعد الخليفة وعده الأخير .. ليصلحن الأحوال ويبدلن العمال وأحاطت به بطائنه كدأبها فى اثر كل وعد من هذه الوعود ، تنهات أن

(١) بمغادرة . (٢) جمع زبية ، والزبية : الرابية لا يعلوها ماء .

ينجزه وتخيفه من طمع الناس فيه ، ان هو أنجز ما وعدهم حين توعدهم وكانت المرأة أصدق نظر من الرجال في هذه الغاشية التي تضل فيها العقول .. فأشارت عليه امرأته السيدة نائلة باسترضاء علي<sup>ؓ</sup> والاعراض عن هذه البطانة ، ولم يكن أيسر على بطانته من اقناعه بضعف هذا الرأي بعد سماعه من امرأة ضعيفة . فكان مروان يقول له : « والله لاقامة علي<sup>ؓ</sup> خطيئة تستغفر الله منها أجمل من توبة تخوف عليها » .. وكان هو يأذن له أن يخرج ليكلم الناس ، فلا يكلمهم الا بالزجر والاصرار .. كما قال لهم يوما : « ما شأنكم قد اجتمعتم كأنكم جئتم لنهب . شأنت<sup>(١)</sup> الوجوه .. جئتم تريدون أن تنزعوا ملكنا .. ارجعوا الى منازلكم ، فأنا والله ما نحن مغلوبين على ما في أيدينا » اذن بطلت الروية<sup>(٢)</sup> ، ولم يبق الا لحظة طيش لا يدرى كيف تبدأ ، ولا يؤتى لأحد اذا هي بدأت أن يقف دون متهاها .

### \*\*\*

هجم الثوار على باب الخليفة ، فمنعهم الحسن بن علي<sup>ؓ</sup> وابن الزبير ومحمد بن طلحة ومروان بن الحكم وسعيد بن العاص وطائفة من أبناء الصحابة .<sup>(٣)</sup>

واجتلدوا فمنعهم عثمان ، وقال لهم : « أنتم في حل من نصرتي » وفتح الباب ليمنع الجلاد حوله .. ثم قام رجل من أسلم يناشد عثمان أن يعتزل ، فرماه كثير بن الصلت الكندي بسهم فقتله ، فجن جنون الثوار يطلبون القاتل من عثمان ، وعثمان يأبى أن يسلمه ويقول لهم : « لم أكن لأقتل رجلا نصرني وأنتم تريدون قتلى .. » وعز على الثوار أن يدخلوا من الباب الذي كان قد أغلق بعد فتحه ، فاقتحموا الدار من الدور التي حولها .. وأقدموا على فعلتهم النكراء بعد احجام كثير لو لم تقع الواقعة في هذه اللحظة الطائشة ، لوقعت في لحظة غيرها لا يدرى كيف تبدأ هي الأخرى .. فانما هي بادرة واحدة من رجل واحد تسوق وراءها كل مجتمع حول الدار من المهاجرين أو المدافعين ، ولا أكثر

(١) قبحت . (٢) التفكر في الامر . (٣) أي تضاربوا بالنسيوف .

من البوادر بين ثوار لا يجمعهم رأى ، ومدافعين لا يضبطهم عنان ..  
ونقل الخبر الى المسجد ، وفيه على جالس في نحو عشرة من المصلين ،  
فراعه منظر القادم وسأله : « ويحك ما وراءك ؟ » قال : « والله قد فرغ  
من الرجل » فصاح به : « تبا لكم آخر الدهر .. » وأسرع الى دار  
الخليفة المقتول .. فلطم الحسن ، وضرب الحسين ، وشتم محمدا بن طلحة  
وعبد الله بن الزبير وجعل يسأل ولديه : « كيف قتل أمير المؤمنين ،  
وأنتما على الباب ؟ » فأجاب طلحة : « لا تضرب يا أبا الحسن ولا  
تشتم ولا تلعن ، لو دفع مروان ما قتل » .

\*\*\*

قال سيف بن عمر عن جماعة من شيوخه : « بقيت المدينة خمسة أيام  
بعد مقتل عثمان ، وأميرها العافقي بن حرب ، يلتسون من يجيبهم الى  
القيام بالأمر ، والمصريون يلحون على علي<sup>(١)</sup> وهو يهرب الى الحيطان :<sup>(٢)</sup> ،  
ويطلب الكوفيون الزبير فلا يجدونه ، والبصريون يطلبون طلحة فلا  
يجيبهم ، فقالوا فيما بينهم : لا نولى أحدا من هؤلاء الثلاثة . فمضوا  
الى سعد بن أبي وقاص فقالوا : انك من أهل الشورى . فلم يقبل  
منهم ، ثم راحوا الى ابن عمر فأبى عليهم ، فحاروا في أمرهم . ثم  
قالوا : ان نحن رجعنا الى أمصارنا بقتل عثمان من غير إمرة اختلف  
الناس في أمرهم ولم نسلم .. فرجعوا الى علي<sup>(٣)</sup> فألحوا عليه ، وأخذ  
الأشتر بيده فبايعه وبايعه الناس .. وكلهم يقول : لا يصلح لها الا علي<sup>(٤)</sup> .  
فلما كان يوم الجمعة وصعد علي المنبر ، بايعه من لم يبايعه بالأمس وكان  
أول من بايعه طلحة بيده الشلاء ، فقال قائل : « انا لله وانا اليه راجعون » ،  
ثم الزبير ، ثم قال الزبير : « انما بايعت عليا<sup>(٥)</sup> واللج على عنقي والسلام .. »  
وهذا الخبر على وجازته ، قد حصر لنا أسماء جميع المرشحين للخلافة  
بالمدينة عند مقتل عثمان .. وربما كان أشدهم طلبا لها طلحة والزبير ،  
لذا أعلن الحرب على علي<sup>(٦)</sup> بعد ذلك .. فقد كانا يمهدان لها في حياة

(١) الثياب الخسران والهلاك . (٢) البساتين . (٣) السيف . (٤) أي

قصره واختصاره .

عثمان ، ويحسبان أن قريشا قد أجمعت أمرها ألا يتولاها هاشمي ، وأن عليًا وشيك أن يذاد عنها بعد عثمان كما زيد عنها من قبله ، وكانت السيدة عائشة تؤثر أن تتول الخلافة الى واحد من هذين .. أو الى عبد الله بن الزبير ، لأن طلحة من قبيلة تيم<sup>(١)</sup> والزبير زوج أختها أسماء ، وفي تأييد السيدة عائشة لواحد منهم مدعاة أمل كبير في النجاح ..

على أن الرأي هنا لم يكن رأى قريش ، ولا رأى بنى هاشم .. فلو أن عثمان مات حتف أنفه ، ولم يذهب ضحية هذه الثورة لجاز أن تجتمع قريش فتعقد البيعة لخليفة غير علي بن أبي طالب ، وجاز أن يختلف بنو هاشم .. فلا يجتمع لهم رأى على رجل من رجالهم الثلاثة المرشحين للخلافة ، وهم : عقیل ، وعلي ، وابن عباس .

\*\*\*

ولكنها الثورة الاجتماعية التي تشد رجلها دون غيره ولا محيد<sup>(٢)</sup> لها عنه .. فان ترددت أياما ، فذاك هو التردد العارض الذي يرد على الخاطر لا محالة ، قبل التوافق على رأى جازم .. ثم لا معدل للثورة عن الرجل الذي تتجه اليه وحده على الرغم منها ..

فطلحة والزبير ، كانا يشبهان عثمان في كثير مما أخذه عليه المتخرجون في الدين ، وتمرد له الفقراء المحرومون .. كانا يخوضان في المال ، ولا يفهمان الزهد والعلم على سنة<sup>(٣)</sup> الناقمين المتزمتين ، فاذا طلب الثائرون خليفة على شرطهم ووافق رجائهم .. فما هم بواجديه في غير علي بن أبي طالب ، وقد قال بحق : « ان العامة لم تبايعني لسلطان غالب ولا لعرض حاضر » ولو شاء لقال عن الخاصة الذين لا يطمعون في الخلافة مقالته عن العامة في انقيادهم اليه بغير رهبة ولا رغبة .. فقد كان أولئك الخاصة جميعا على رأى العامة في حكومة عثمان وبطائنه ، وان أخفى بعضهم لومه .. ولم يذهب بعضهم في اللوم مذهب الثوار في النزق<sup>(٤)</sup> وسفك الدماء ..

ونعتقد كما أسلفنا أن هذه الحقيقة هي أولى الحقائق بالتوكيد

(١) أي يدافع ويرد . (٢) هي قبيلة أبي بكر . (٣) عدول . (٤) أي طريقة . (٥) الخفة والطيش .

والاستحضار ، كلما عرض أمر من أمور الخلاف والتردد في خلافة علي رضي الله عنه .. فإذا هي فهمت على وجهها ، فكل ما عداها مفهوم البواطن والظواهر منسوق الموارد والمصادر .. وإذا هي لم تفهم على الوجه الأمثل أو تركت جانبا ، وبحث الباحثون عن العلل والعواقب في غيرها فالعهد كله غامض مجهول ، والموازن كلها مختلفة منقوصة سواء في تقدير الرجال أو تقدير الأعمال ، وجاز حينئذ أن يرمى على بالخطأ .. ولا خطأ عنده يصححه غيره في موضعه ، وإنما هو حكم الموقف الذي لا يحيد عنه . وجاز كذلك أن ينحل خصومه فضل الصواب ولا صواب عندهم ، لأنهم مضطرون إلى ورود هذا المورد .. فكروا فيه أو طرّقه اعتسافا بغير تفكير ..

\*\*\*

فلم تكن المسألة خلافا بين علي ومعاوية على شيء واحد ، ينحسم فيه النزاع بانتصار هذا أو ذاك ولكنها كانت خلافا بين نظامين متقابلين وعالمين متنافسين : أحدهما يتمرّد ولا يستقر ، والآخر يقبل الحكومة كما استجذت ويميل فيها إلى البقاء والاستقرار ..

أو هي كانت صراعا بين الخلافة الدينية كما تمثلت في علي بن أبي طالب ، والدولة الدنيوية كما تمثلت في معاوية بن أبي سفيان

وليس موضع الحسم فيها أن ينتصر علي .. فيحكم في مكان معاوية ، أو ينتصر معاوية فيحكم في مكان علي ، بل موضع الحسم فيها مبادئ الحكم كيف تكون إذا تغلب واحد منهما على خصمه ؟ أتكون مبادئ الخلافة الدينية أو مبادئ الدولة الدنيوية ؟.. أتكون مبادئ الورع والزهادة أو مبادئ الحياة على أساس الثروة الجديدة ، كما توزعت بين الأمصار وتفرقت بين السراة<sup>(١)</sup> والأجناد والأعوان ؟

فلو أن عليا ملك الشام ومصر والعراق والحجاز ، وجرى في سياستها على سنتة أصحابه من الحفاظ والقراء ومنكرى البذخ<sup>(٢)</sup> والاسراف لبقيت

(١) سراة كل شيء : أعلاه . (٢) الكبر ، وتبذخ : تكبر وعلا شرف .



المشكلة حيث كانت ، ولم تغن هزيمة معاوية الا ريشما يتجرد للدولة  
منازع آخر يحاول الغلبة من حيث فشل ..  
ولو أن معاوية ملك المدينة الى جانب ملكه ، وجرى في سياستها على  
سنة الحفاظ والقراء لما أرضاهم ، ولا انتقاد له أحد من أشياعه ..  
فالحسم حق الحسم هنا ، انما تغليب مبادئ الملك أو مبادئ الخلافة  
ولا حيلة لعللي ولا لمعاوية في علاج الأمر على غير هذا الوجه ، لو جهد  
له جهد الطاقة ..

\*\*\*

وقد كان الموقف بين الخلافة والملك ملتبسا متشابكا في عهد عثمان :  
كان نصف ملك ونصف خلافة ، أو كان نصف زعامة دينية ونصف  
امارة دنيوية ..

(١) فوجب أولا أن يتضح الموقف بينهما ، وأن يزول الالتباس عن فلق  
صريح ..

ووجب وقد زال الالتباس ، وتقابل الضدان اللذان لا يتفقان ، أن  
يبلغ الخلاف مداه .. ولن يزال قائما حتى تكتب الغلبة لمبدأ من المبدأين  
وحكم من الحكمين ، وليس لعللي أو معاوية على التخصيص  
هذه هي العلة الكبرى التي تنطوى فيها جميع العلل الظاهرة ..  
وخليق<sup>(٢)</sup> بكل علة أخرى أن تكون تعلقة موضوعة يستر صاحبها غير  
ما يبطن ، أو ينخدع في زعمه وهو غافل عن معناه ..

خذ لذلك مثلا علة طلحة وأصحابه الذين ثاروا على علي<sup>٣</sup> ليطلبوه  
بدم عثمان ، وهم لم يدفعوا عنه في حياته بعض ما دفع علي<sup>٣</sup> عنه . وقد  
كان عثمان كثيرا ما يقول : « ويلي من طلحة .. أعطيته كذا وكذا ذهباً  
وهو يروم دمي .. اللهم لا تمتعه به ولقه عواقب بغيه » ..

وساء ظن الناس بنقمة طلحة على عثمان حتى حدث بعضهم أنه رآه  
يوم مقتله يرمى الدار ، ويقود بعض الثائرين الى الدور المجاورة ليهبطوا  
منها الى دار عثمان ، وهو حديث يفترق الى السند الوثيق ، ولكنه ينم

(١) الفلق : الصبح • (٢) أي جدير • (٣) يطلب

على ظن الناس بصدقة طلحة للخليفة المقتول  
 وخذ لذلك مثلاً حجة معاوية حين علل ثورته باتهام علي<sup>١</sup> في دم  
 عثمان ، وعلل اتهامه لعلي<sup>٢</sup> بتقصيره في القود من الثائرين .. وهم ألوف  
 يحملون السلاح ، وهو لم يسكن بعد الى سلطان يعينه على القود من  
 هؤلاء الألوف المسلحين . فماذا صنع معاوية بقاتلي عثمان حين صار  
 الملك اليه ، ووجب عليه أن ينفذ العقاب الذي من أجله ثار واستباح  
 القتال ؟ انه اتبع علياً فيما صنع ، وأبى أن يذكر الثار المقيم المقعد ،  
 وقد ذكروه به وأحفوا في تذكيره . ولقد كان أول ما سمعه يوم زار  
 المدينة ودخل بيت عثمان صيحة عائشة بنته وهي تبكي : « واأبتاه »  
 فلم تزد هذه الصيحة المثيرة الا اصرارا على الاغضاء والاعفاء . وقال  
 لها يعزيها : « يا ابنة أخي .. إن الناس أعطونا طاعة وأعطيناهم أماناً ،  
 وأظهرنا لهم حلماً تحت غضب ، وأظهروا لنا طاعة تحتها حقد ، ومع كل  
 انسان سيفه وهو يرى مكان أنصاره .. فان نكثنا بهم نكثوا بنا ، ولا  
 ندرى أعلينا تكون أم لنا ولأن تكوني بنت عم أمير المؤمنين خيراً من  
 أن تكوني امرأة من عرض المسلمين .. » .

### \*\*\*

ولو كانت الثورة كلها من أجل عثمان لما انتهت بهذا التسليم  
 الهين .. ولكان عذر علي في بداية المحنة أعظم حجة ، وأحق بالقبول ..  
 أو خذ لذلك مثلاً علة عمرو بن العاص ، وقد كان أول الناصحين  
 لعثمان بالاعتزال ، بل كان يخطب عثمان ليسترضى الناس ، وعمرو  
 يصيح به من صفوف المسجد : « اتق الله يا عثمان ، فانك قد ركبت  
 أمورا وركبناها معك .. فتب الى الله تتب .. » ثم ترك عثمان في المدينة  
 بين المؤتمرين به ومضى الى فلسطين ، وسمع وهو يقول : « والله اني  
 كنت لألقى الراعى فأعرضه على عثمان » .

فكل علة للثورة على خلافة علي ، فهي تعلل موضوع يخدع به قائله  
 أو يخدع به غيره .. الا تلك العلة التي طوت فيها جميع العلل ظاهرها

(١) القود : القصاص . (٢) الأحفا : الحوا .

وخافها وصريحها ومكذوبها . وهى الخلاف بين مبادئ الخلافة الدينية ومبادئ الدولة الدنيوية ، وضرورة الفصل بين هاتين الخطتين .. وان كان فى ظاهره فصلا بين رجلين ..

فلما بويح بالخلافة ، كانت هذه البيعة ايذانا بانقسام الحلقة بين الندين للصراع الأخير ، أو كانت ايذانا باصطفاف المتسابقين الى غاية لا بد من بلوغها .. ولن تخطر على البال غاية لهذا السباق المحتوم غير انتهاء الخلافة أو انتهاء الملك على النحو الذى تهيأت له عناصر النظام الاجتماعى الجديد فأما انتهاء الملك فى بدايته ، فقد كان يعيدا — بل كان عسيرا جدا فى تلك الآونة — كما يعسر انطفاء النار وهى تهب بالاشتعال ..

وأما انتهاء الخلافة فهو الذى كان ، وهو الذى كان منظورا أن يكون ، ولن يكون غيره بمنظور .. فمن الفضول لوم على شئ من الأشياء التى أفضت الى هذه الخاتمة ، وهى محتومة ليس عنها محيد .. اذ لم يكن طبيعيا أن يصمد الناس على سنة النبوة أكثر من جيل واحد ، تثوب<sup>(١)</sup> بعده الطبائع الى فطرتها<sup>(٢)</sup> من نشأة جلال الخلافة النبوية ، وهى فى ابان النضال والحمية الدينية ، فتتسى المطامع وتسهب عن الحزازات وتستعذب الألم والقداء الى مدى الطاقة الانسانية ، ولكنها تبلغ مدى الطاقة الانسانية بعد حين ، وتفتر<sup>(٣)</sup> عن النهوض من قمة الى قمة .. فتركن آخر الأمر الى الأرض السواء حيث لاحافز ولا مستنهض ، الا مجاراة الطبيعة فى مجاريها التى لا تشق عليها ، وان المصلحين ليرضون غاية الرضا اذا هى حفظت من اصلاحهم عند ذلك وازعا يهديها بعد ضلالة عمياء ، ويردعها بعد جماح مريد ، ويكفكف من غلواتها ما كان من قبل منطلقا بغير عنان ..

وقد نظر النبى عليه السلام بعين الغيب الى هذا المصير فقال : « الخلافة ثلاثون عاما ثم يكون بعد ذلك الملك » .. وأنبا بانقسام الفرق وتشعب الأهواء ، وكأنما كان ينظر الى ذلك بعينه صلوات الله عليه

(١) ترجع (٢) أي طبيعتها (٣) تفتر : تضعف .

واتبع على من اليوم الأول في خلافته أحسن السياسات التي كان له أن يتبعها ، فلا نعرف سياسة أخرى أشار بها ناقده أو مؤرخوه ثم أقاموا الدليل على انها خير من سياسته في صدق الرأى وأمان العقبة ، أو أنها كانت كفيلة باجتناّب المآزق التي ساقته الحوادث اليها فمن اللحظة الأولى ، أخذ في تجنيد قوى الخلافة الدينية التي لا قوة له بغيرها ..

ف عزل الولاة الذين استباحوا الغنائم المحظورة<sup>(١)</sup> ، وتمرغوا بالدنيا ، وطمعوا وأطمعوا رعاياهم في بيت مال المسلمين ، وأثاروا على عثمان سخط السواد وسخط الفقهاء المتحرجين والحفاظ الغيورين على فضائل الدين ..

\*\*\*

ورد القطائع التي وزعتها بطانة عثمان بين المقرين وذوى الرحم ، فصرفتها عن وجوهها التي جعلت لها من اصلاح المرافق واغاثة المفتقرين اليها على شرعة الانصاف والمساواة

ورجع الى خطة أبى بكر وعمر في تجنّب الصحابة الطامعين الى الامارة فتنة الولايات ، مخافة عليهم من غوايتها وابعادها لهم من دسائس الشيع والعصبيات .. فلما طالبه طلحة والزبير بولاية العراق واليمن ، قال لهما : « بل بقيان معى لانس بكما » وسأل ابن عباس : « ماترى ؟ » فأشار بتولية الزبير البصرة وتولية طلحة الكوفة . قال علي : « ويحك .. ان العراقيين بهما الرجال والأموال .. ومتى تملكنا رقاب الناس يستميلان السفينة بالطمع ، ويضربان الضعيف بالبلاء ، ويقويان على القوى بالسلطان ، ولو كنت مستعملا أحدا لضره أو نفعه لاستعملت معاوية على الشام ، ولولا ما ظهر من حرصهما على الولاية لكان لى فيهما رأى »

نعم ، ان هذه السياسة أغضبت منافسيه وطالبى المنفعة الدنيوية على يديه .. ولكن السياسة الأخرى كانت تغضب أنصاره ولا تضمن رضا المنافسين ودوامهم على الرضا والوفاق بينهم في تأييده . وكانت تخالف

(١) الخطر : ضد الاباحة ، والشيء المحظور : المحرم . (٢) أرض

عقيدته التى يدين بها نفسه وأقرب الناس اليه ، وتخالف وعده وعقيدة الناس فيه .. ولن يكون مالكا غالبا بسياسة الملك على كل حال ، فان لم يكن خليفة فما هو بشئ ، وان كان خليفة وملكا فهى خطة عثمان التى لم تستقم قط على وجه من وجهيها ومصيرها معروف ، وان كان خليفة ولا اختيار له فى ذلك فكل ما صنع فهو الحكمة كأحسن ما تراض له الحكمة ، وهو السداد كأقرب ما يتاح له السداد

\*\*\*

وعلم ان قريشا لا ينصرونه ، فنقل العاصمة من المدينة الى الكوفة .. لأن قريشا كانوا هاشميين وهم لا يتفقون على بيعته ، وقد تركه أقربهم اليه ورحل الى معاوية طمعا فى رفته ، أو كانوا أمويين وهم حزب معاوية وأهل عشيرته وبيته ، أو من تيم وهم حزب طلحة ، أو من عدى وهم يؤثرون عبد الله بن عمر بن الخطاب ، أو من قبائل أخرى ، وهم كما قال : « قد هربوا الى الاثرة »<sup>(١)</sup> .. فاذا أقام بينهم فهو مقيم بين أناس لا ينقطع لهم طلب ولا يضمن لهم ولاء ..

ولم تمض أيام معدودة على مبايعة الخليفة الجديد حتى انتظمت صفوف الحجاز كله له أوعليه .. فكان معه جميع الشاكين لأسباب دينية أو دنيوية ، وكان عليه جميع الولاة الذين انتفعوا فى عهد عثمان ، وجميع الطامعين فى الانتفاع بالولاية والأموال العامة .. وحالت الخلافة الجديدة بينهم وبين ما طمعوا فيه .. وعلى رأس هؤلاء طلحة والزبير ..

فحشدوا جموعهم الى البصرة ، وصحبتهم السيدة عائشة لأنها كانت ترغب فى خلافة طلحة .. لقيها ابن عباس على مقربة من المدينة وهو أمير على الحج من قبل عثمان ، ولما يزل قائما بالخلافة ، فقالت له : « يا ابن عباس .. أنشدك الله فانك قد أعطيت لسانا ازعيلا — أى ماضيا — أن تخذل عن هذا الرجل — تعنى عثمان — وأن تشكك فيه الناس فقد بانت لهم بصائرهم وأنهجت ورفعت لهم المنار ، وتطبوا<sup>(٢)</sup> من البلدان لأمر قد

---

(١) التوفيق والصواب . (٢) استأثر بالشئ : استبد به ، والاسم الاثرة . (٣) تجمعوا من كل جهة .

جم<sup>(١)</sup> . وقد رأيت طلحة بن عبيد الله قد اتخذ على بيوت الأموال والخزائن مفاتيح .. فان يل يسر بسيرة ابن عمه أبى بكر رضى الله عنه « فأجابها ابن عباس : « يا أمه ! لو حدث ما فزع الناس الا الى صاحبنا » أى علي فقالت : « أيها عنك .. انى لست أريد مكابرتك ولا مجادلتك »

فلما بويح علي<sup>(٢)</sup> في المدينة ، لم تكن من أنصاره ولا مع الباقيين على الحيدة بينه وبين خصومه .. ولعلها لم تنس بعد نصيحته للنبي عليه السلام في مسألة الافك التى قيل انه أشار فيها بتطبيقها ، فخرجت الى البصرة مع المطالبين بثأر عثمان ، وكانت هنالك وقعة الجمل التى سُميت بهذا الاسم لاحتدام<sup>(٣)</sup> القتال فيها حول جملها وهودجها .. فانتصر علي<sup>(٤)</sup> ، وقتل الزبير ، ومات طلحة بجرح أصابه في المعركة ، وحسم القتال بالصلح بين الفريقين في الحجاز والعراق ..

على أن هذا النصر العاجل ، لم يخل من آفة تكدره وتنذر بالمخاوف التى يوشك أن يلقاها علي<sup>(٥)</sup> في حربه لخصومه الباقيين بعد موت طلحة والزبير .. وأقواهم معاوية بن أبى سفيان صاحب الشام ..

فقد كشفت وقعة الجمل عن مصاعب القيادة في جيش من المتمردين والمتدمرين .. فانهم يستحمسون في عقيدتهم ، وهى فضيلة من فضائل الجيوش المقاتلة ، ولكنهم من جراء هذه الحماسة نفسها عرضة للعناد والتنادى في اللدد<sup>(٦)</sup> واعجال قائدهم عن انعام الروية وانتظار الفرص المؤاتية ..

فقد كان علي<sup>(٧)</sup> يميل — كدأبه — الى مفاتحة الخارجين عليه في المهادنة أو المصالحة ، وكان معه جماعة السبئية — أتباع عبد الله بن سبأ — وهم أخلص الناس له وأغبرهم عليه ، ولكنهم لفرط غيرتهم ولددهم في عداوتهم لم يقنعوا بما دون القضاء على خصومه ، ولم يقبلوا التوسط في الصلح دون الغلبة التى لا هوادة فيها .. فدهموا القوم وأوقدوا جذوة<sup>(٨)</sup> الحرب ، قبل أن يفرغ علي<sup>(٩)</sup> من حديث المهادنة والتقريب بينه وبين أصدقائه الذين خرجوا عليه ..

(١) كشر • (٢) أي اشتداد • (٣) شدة الخصومة • (٤) الجذوة : الجمرة

وكانت هذه أولى العشرات الكبار التي أعثر<sup>(١)</sup> بها حماسة المتمردين والمتذمرين في جيشه ، ولم تزل تتعاقب وتتفاقم<sup>(٢)</sup> عليه حتى منى بالعترة التي لا تقال ..

وكان ذلك في وقعة صفين ..

فانه نظر بعد غلبته في العراق ، فلم يجد أمامه خصما يقف في طريق الخلافة الا جيش معاوية بالشام ، فعمد معه الى خطته التي جرى عليها مع خصومه كافة حيث كانوا وكانت منزلتهم من لجأه والقوة ، ونعنى بها خطة المسالمة والبدء بالاقناع .. فطالت المراسلة منه الى معاوية ، ومن معاوية اليه ، وفي مثل واحد منها ، ما يغنى عن كثير ..

كتب الى معاوية بعد وقعة الجمل ، وقد سبقته كتب كثيرة من المدينة.. « سلام عليك .. أما بعد ، فان بيعتى بالمدينة لزمته وأنت بالشام ، لأنه بايعنى الذين بايعوا أبا بكر وعمر وعثمان على ما بويعوا عليه . فلم يكن للشاهد أن يختار ، ولا للغائب أن يرد ، وانما الشورى للمهاجرين والأنصار ، فاذا اجتمعوا على رجل وسموه اماما كان ذلك لله رضى ، وان خرج عن أمرهم ردوه الى ما خرج عنه ، فان أبى قاتلوه على اتباعه غير سبيل المؤمنين ، وولاه الله ما تولى ، وأصله جهنم وساءت مصيرا . وان طلحة والزبير بايعانى ثم نقضا بيعتهما ، وكان نقضهما كردهما ، فجاهدتهما بعد ما أعذرت اليهما ، حتى جاء الحق وظهر أمر الله ، وهم كارهون . فادخل فيما دخل فيه المسلمون ، فان أحب الأمور الى قبورك العافية ، وقد أكثرت في قتلة عثمان ، فان رجعت عن رأيك وخلافك ودخلت فيما دخل فيه المسلمون .. ثم حاكمت القوم الى حملتك واياهم على كتاب الله . وأما تلك التي تريدها — يعنى الخلافة — فهي خدعة الصبى عن اللبن . ولعمري لئن نظرت بعقلك دون هواك لتجدنى أبرأ قريش من دم عثمان ، واعلم انك من الطلقاء<sup>(٣)</sup> الذين لا تحل لهم الخلافة ولا يدخلون في الشورى وقد بعثت اليك والى من قبلك جرير بن

(١) تفاقم الامر : عظم . (٢) أطلق معاوية وأبوه من الاسر يوم فتح مكة .

عبد الله ، وهو من أهل الايمان والهجرة .. فبايعه ، ولا قوة الا بالله «  
فرد عليه معاوية بما يلي :

« سلام عليك .. أما بعد ، فلعمري لو بايعك الذين ذكرت وأنت  
بريء من دم عثمان ، لكنت كأبي بكر وعمر وعثمان . ولكنك أغريت  
بدم عثمان وخذلت الأنصار ، فأطاعك الجاهل وقوى بك الضعيف . وقد  
أبى أهل الشام الا قتالك حتى تدفع اليهم قتلة عثمان .. فان فعلت كانت  
شورى بين المسلمين . وانما كان الحجازيون هم الحكماء على الناس  
والحق فيهم ، فلما فارقه كان الحكماء على الناس أهل الشام ، ولعمري  
ما حجتك على أهل الشام كحجتك على طلحة والزبير ، ان كانا بايعاك  
فلم أبايكما أنا . فأما فضلك في الاسلام وقرابتك من رسول الله  
صلى الله عليه وسلم فلست أدفعه » ..

\*\*\*

ومن رد معاوية هذا ، تبدو النية الواضحة في فتح أبواب الخلاف  
واحدا بعد واحد .. كلما أغلق باب منها بقي من وراءه باب مفتوح ،  
لا ينتهي الخلاف باغلاقه  
فتسليم قتلة عثمان لا يكفي ، لأن علياً نفسه متهم بالاغراء والتخذيل ،  
وبراءة علي\* من هذه التهمة لا تكفي لأن المرجع بعد ذلك الى الشورى  
والنظر في البيعة من جديد ..  
وشورى الحجازيين والعراقيين لا تكفي لأن الحق قد خرج منهم الى  
أهل الشام ، وهم الحكماء على الناس .. لأنهم يحكمون لمعاوية  
ولا يحكمون لغيره ..

ومن ثم ، بطلت الحجج والرسائل كما تبطل كل حجة وكل رسالة عند  
ما يقال باللسان غير ما يجول<sup>(١)</sup> في الصدور  
وزحف علي\* من الكوفة الى صفين ، ووجد جيش معاوية على الماء ..  
فنهأ<sup>(٢)</sup> عنه بعد أن أبى عليه معاوية أن ينحيه بغير قتال ..  
وبدأت العشرات من ثم في كل خطوة يخطوها للسلام أو للقتال ،

---

(١) يدور ويتحرك . (٢) نهأ : أي أبعد .



فلا يتحفز فريق من أنصاره للحرب حتى يثنيه فريق آخر يجرمها ولا يقول بوجودها ، وتحاجز القوم نينا وثمانين فرقة .. وتصارولوا في وقعات شتى غامرت بها طائفة من هنا وطائفة من هنا ، وقلما اشتبك فيها الجيشان في وقعة جامعة حتى كانت وقعة الهرير ، وحاقت الهزيمة بجيش معاوية وقيل انه هم بالفرار .. واذا بالمصاحف ترفع على الحراب من قبل جيش الشام ، واذا بالعرّة الكبرى التي لا خطوة بعدها في طريق فلاح .. فان عليّا نظر حوله ، فاذا بجيشه يوشك أن يقتل فيما بينه نزاعا على القتال أو القاء السلاح ، وان معاوية لقي غنى عن كفاح قوم لا يتفقون على كفاحه .. فله منهم سيوف مشرعة لنصرته ، شاءوا أو لم يشاءوا ، وسيكفونه مئونة الحرب حتى يتفقوا بينهم على حربه ، وهيئات !

\*\*\*

ولو كانت آفة الطاعة في جيش علي\* ، مقصورة على اجتهداء القراء والحفاظ ، وتعجل الغلاة والمتمردين .. لكان في ذلك وحده ما يكفي لافساد التدبير واضطراب القيادة وتعذر القتال على أصوله .. اذ لا يستغنى القائد في ميدان الحرب ، ولا في ميدان السياسة ، عن الكتمان والمفاجأة وتحويل الخطط على حسب الطوارئ والمناسبات .. فاذا كان في كل عمل من أعماله عرضة لاجتهداء أصحاب الفتاوى ، وكان أصحاب الفتاوى يفترقون عشرين وجهة في كل حركة من حركات الجيش ، فليست له خطة تكتّم ولا خطة تنفذ . وليس عجيبا بعد ذلك ، أن ينهزم في ميدان القتال شر هزيمة يتلى بها مقاتل .. بل العجيب أن يتماسك فترة من الزمن — وان قصرت — أمام جيش يفوقه في العدد ويرجع في أمره الى قيادة موحدة ونية مجتمعة ومشينة مطاعة ..

ولكن الآفة مع هذا ، لم تكن كلها في اجتهداء الحفاظ وتعجل الغلاة .. بل كان في الجيش أناس يخونون عهده ويشغبون عليه ، ويبدو من أعمالهم أنهم مسخرون لعدوه كارهون لانتصاره .. فان لم يكونوا كذلك ، فالأمر الذي لا شك فيه انهم كانوا يعملون وهم عامدون — وغير

(١) حاقت : أي نزلت .

عامدين - شر ما يعمله الخائن الحبيث الذي يتحين الفرص للعناد والشقاق ، وافشاء الخلل والخذلان في أخرج الأوقات

وأدهى من ذلك ، انه لم يكن قادرا على زجرهم والتسكيل بهم .. لأن الجيش الذي يوجد فيه من يحرم حرب العدو ، لن يعدم أناسا يجرمون حرب النصير المقيم على ظاهر الطاعة ، وليس لك بيّنة قاطعة عليه

ومثل من ذلك أيضا يغنى عن أمثال كثيرة ، وهو مثل الأشعث بن قيس أكبر سادات كندة وأخلقهم<sup>(١)</sup> أن ينصر حزبا على حزب ، لو خلصت نيته وبرئت شيمته من التقلب والغدر بأصحابه ..

طمح هذا الرجل الى الملك بعد موت النبي عليه السلام ، فدعا قومه أن يتوجوه .. وحارب المسلمين مع المرتدين حتى حوصر في حصنه أياما ، ويش من الغلبة فاستسلم .. على أن يسان دمه وبقية دم عشرة من أخصائه ، ثم فتح الحصن فقتل كل من فيه ونجا بالعشرة الذين اختارهم الى أبي بكر رضى الله عنه ، فقبل توبته وزوجه أخته أم فروة . فلما نشبت الفتنة بين علي ومعاوية ، كان هو من حزب علي يتطلع للفرصة السانحة

ثم زحف علي رضى الله عنه الى صفين ، فكان الأشعث أول المندفعين الى القتال حين سد أهل الشام طريق الماء ، وجاء عليا يقول : « يا أمير المؤمنين ! أئمننا القوم الماء وأنت فينا ومعنا سيوفنا ؟ .. ولئن الزحف اليه .. فوالله لا أرجع أو أموت »

ولكنه عاد الى المسالمة ، بعد أن وضع النصر في ليلة الهرير ، فخطب في قومه من كندة قائلا :

« ... قد رأيتم يا معشر المسلمين ما قد كان في يومكم هذا الماضي ، وما قد فنى فيه من العرب .. فوالله لقد بلغت من السن ما شاء الله أن أبلغ ، فما رأيتم مثل هذا اليوم قط .. ألا فليبلغ الشاهد الغائب أنا ان توافقنا غدا انه لفنيت العرب وضيعت الحرمات .. أما والله ما أقول هذه المقالة خوفا من الحرب ، ولكنى رجل مسن أخاف على النساء والذرارى<sup>(٢)</sup>

(١) أي أجدرهم . (٢) الشيعة : الخلق . (٣) جمع ذرية ، وذرية

الرجل : أولاده .

غدا اذا فنيٓنا « ..

ثم ذهب الى عليؑ رضى الله عنه بعد رفع المصاحف ، فقال له : « ما أرى الناس الا قد رضوا وسرهم أن يجيبوا القوم الى ما دعوهم اليه من حكم القرآن .. فان شئت أتيت معاوية فسألته ما يريد فنظرت ما يسأل « .. ولقى معاوية فسأله : « يا معاوية .. لأى شىء رفعتم هذه المصاحف ؟ » قال : « لنرجع نحن وأنتم الى أمر الله عز وجل فى كتابه .. تبعثون منكم رجلا ترضون به ، ونبعث منا رجلا ، ثم نأخذ عليهما أن يعملأ بما فى كتاب الله لا يعدوانه .. ثم نتبع ما اتفقا عليه » فقال الأشعث : « هذا الحق ! »

وعاد الى عليؑ ينادى بالتحكيم ، ويختار له هو وأنصاره رجلا ينوب عن عليؑ ، وعليؑ لا يرضاه ..

\*\*\*

وكان أنصار التحكيم قد تكاثروا واجترأوا على أمير المؤمنين ، فلم يبالوا أن يجبهوه بالقول السيئ منذرين متوعدين :  
« يا على ! أجب الى كتاب الله عز وجل اذا دعيت اليه ، والا ندفئك برمتك الى القوم أو نفعل كما فعلنا بابن عفان . انه عرض علينا أن نعمل بما فى كتاب الله عز وجل فقبلناه .. والله لتفعلنَّها أو لنفعلنَّها بك »  
وألحوا عليه أن يرد قائده الأشتر النخعى من ساحة الحرب ، والا اعتزلوه أو قتلوه ..

فقبل التحكيم وهو كاره ..

واختار أهل الشام عمرو بن العاص ، فقال الأشعث : « فانا رضينا بأبى موسى الأشعرى »

قال عليؑ : « انه ليس لى بثقة .. قد فارقتى وخذل الناس عنى ، ثم هرب منى حتى آمنت به بعد أشهر ، ولكن هذا ابن عباس نوليه ذلك » قالوا : « لا نريد الا رجلا هو منك ومن معاوية سواء ، ليس الى واحد منكما بأدنى من الآخر .. »

قال : « فاني أجعل الأشر »  
قال الأشعث — وهو ينفس على الأشر مكاتته وبلاءه من قبل — :  
« وهل سعر الأرض غير الأشر ؟ .. أو قال : وهل نحن الا في حكم  
الأشر ! .. »

فلما رأى اصرارهم وقلة أنصاره على رأيه بينهم قال : « فقد أبيت  
الا أبا موسى ؟ »  
قالوا : « نعم ! »  
قال : « فاصنعوا ما بدا لكم ! » .

\*\*\*

فهذا رجل من الزعماء المطاعين في جيش علي ، لم يدع من وسعه  
شيئا لتغليب حزب معاوية على حزبه ، واستكثر عليه أن يكون الحكم  
الذي يختاره نصيرا له مؤمنا بحقه وصحة رأيه . ولا طائل في البحث  
عن هذا الخذلان الصريح ، أكان هو الطمع في الملك بعد فشل علي أم  
النقمة على الأشر النخعي في مكاتته وبلائه ، أم التواطؤ بينه وبين  
معاوية على منفعة مؤجلة ومكافأة موعودة .. فانما النية الخبيثة ظاهرة  
وان استترت العلة ، وأيا كانت العلة الخفية فقد صنع الرجل غاية ما  
استطاع لتغليب حزب معاوية وخذلان الحزب الذي هو فيه

قال علي يصف قسمته من الأنصار ، وقسمته من النوازل والعثرات :  
« لو أحبنى جبل لتهافت <sup>(١)</sup> »

وقال يصف أنصاره : « أيها الناس المجتمعة أبدانهم ، المختلفة  
أهواؤهم ، كلامكم يوهى <sup>(٢)</sup> الصم الصلاب ، وفعلكم يطمع فيكم الأعداء ..  
ما عزت دعوة من دعاكم ، ولا استراح قلب من قاساكم . أعاليل بأضاليل  
دفاع ذى الدين المطول .. أى دار بعد داركم تمنعون ؟ .. ومع أى امام  
بعدي تقاتلون ؟ .. المغرور والله من غررتموه ، ومن فاز بكم فقد فاز والله  
بالسهم الأخيب ، ومن رمى بكم فقد رمى بأفوق ناصل <sup>(٣)</sup> . أصبحت

(١) تساقط . (٢) وهي العائط : اذا ضعف وهم بالسقوط .

(٣) الافوق : هو السهم المكسور في موضع الوتر ، والناصل : العاري من  
النصل .

والله لا أصدق قولكم ولا أطمع في نصركم ، ولا أوعد العدو بكم ،  
ما بالكم ؟.. ما دواؤكم ؟.. ما طبشكم ؟.. القوم رجال أمثالكم ، أقولا  
يغير علم ؟.. وغفلة من غير ورع ؟.. وطمعا في غير حق ؟.. »

\*\*\*

وهي صيحة لا تصف الا بعض ما يعانیه من حيرة ، لا مخرج له منها  
في سياسة أصحابه . فانه لم يفرغ من التحكيم الذي أذعن<sup>(١)</sup> له وهو  
كاره ، حتى فوجيء بطاقة أخرى من أنصاره يرمونه بالكفر لأنه قبل  
ذلك التحكيم ، وزعموه قبولا للتحكيم في كلام الله وفي دماء المسلمين ،  
وهو عندهم كفر بواح<sup>(٢)</sup> ، أولئك هم الخوارج الذين حاربوه بالسلاح ،  
وكانوا يحرمون عليه حرب معاوية قبل ذلك !

ثم اجتمع الحكماء بدومة الجندل التي وقع عليها الاختيار لتكون  
وسطا بين العراق والشام . ولم يكن قرار الحكمين خافيا على من عرفوا  
أبا موسى الأشعري وعمرو بن العاص فان أبا موسى لم يكتف قط أن  
السلامة في اجتناب الفريقين والتعود عن القتال ، فليس أيسر من اقناعه  
بخلع صاحبه وخلع معاوية على السواء . ثم يرجع الرأي الى عمرو  
ابن العاص في اقرار هذا الخلع أو الاحتفال فيه بالحيلة التي ترضيه

الا ان الدهاة من العرب ، كانوا يتوقعون من عمرو بن العاص أن  
يحتال لنفسه حتى يفرغ وسعه قبل أن يحتال لصاحبه الذي أنابه عنه

ومن هؤلاء الدهاة المغيرة بن شعبة الذي اعتزل الفريقين من مطلع  
الفتنة الى يوم التحكيم ، فلما اجتمع الحكماء علم انها الجولة الأخيرة  
في الصراع .. فخرج من عزلته ودنا ليستطلع الأمور ، على سنة الدهاة  
من أمثاله ، اذ يتشمسون<sup>(٣)</sup> الريح قبل هبوبها ، ولا يقلقون أنفسهم بمهبها  
قبل أوانها .. فلقي أبا موسى وعمرو بن العاص ، ثم ذهب الى معاوية  
وهو مشغول البال بطول الاجتماع بين الحكمين واضطراب الظنون فيما  
وراء هذا الابطاء المريب .. فقال له وهو يرى اشتغال باله : « قد أتيتك  
بخبير الرجلين .. »

(١) خضع . (٢) أي ظاهر مكشوف . (٣) يتشمسون .

قال معاوية : وما خبرهما ؟ ..

قال المغيرة : « انى خلوت بأبى موسى لأبلى<sup>(١)</sup> ما عنده فقلت : ما تقول فيمن اعتزل عن هذا وجلس فى بيته كراهية للدماء ؟.. فقال : أولئك خيار الناس ، خفت ظهورهم من دماء اخوانهم وبطونهم من أموالهم . فخرجت من عنده وأتيت عمرو بن العاص ، فقلت : يا أبا عبد الله ما تقول فيمن اعتزل هذه الحروب ؟.. فقال : أولئك شرار الناس لم يعرفوا حقا ولم ينكروا باطلا .. »

ثم عقب المغيرة قائلا : « أنا أحسب أبا موسى خالعا صاحبه وجاعلها لرجل لم يشهد ، وأحسب هواه فى عبد الله بن عمر بن الخطاب ، وأما عمرو بن العاص فهو صاحبك الذى عرفته ، وأحسبه سيطلبها لنفسه أو لابنه عبد الله ، ولا أراه يظن انك أحق بهذا الأمر منه .. »

وقد أحس المغيرة حزره<sup>(٢)</sup> تقط الحرف بالحرف فى تقدير نية الرجلين ، فانهما ما اجتماعا هنية حتى أقبل أبو موسى على عمرو يقول له : « يا عمرو !.. هل لك فيما فيه صلاح الأمة ورضا الله ؟ »

قال : « وما هو ؟ .. »

قال : « نولى عبد الله بن عمر ، فانه لم يدخل فى نفسه شئ من هذه الحروب .. »

فراغ عمرو قليلا يحاول أن يلقى فى روع صاحبه انه يريد معاوية ، ثم عاد يسأله : فما يمنعك من ابنى عبد الله مع فضله وصلاحه وقديم هجرته وصحبته ؟

فأوشك أبو موسى أن يجيبه لولا انه قال : « ان ابنك رجل صدق ، ولكنك غمسته فى هذه الحروب غمسا »

وتكرر بينهما هذا القول وأشباهه فى كل لقاء ، وطفقا يبدآن منه ويعيدان اليه بعد كل جدال ، حتى وقر فى خلد الأشعرى<sup>(٣)</sup> ان خلع الزعيمين أمر لا مناص منه ولا اتفاق بينهما على غيره ، فتواعدا الى يوم يعلنان فيه هذا القرار ..

(١) اختبر وأعرف . (٢) أي ظنه وتخمينه . (٣) قلب .

وتقدم أبو موسى فقال بعد تمهيد : « ... أيها الناس ، انا قد نظرنا في أمر هذه الأمة ، فلم نر أصلح لأمرها ولا ألم لشعثها<sup>(١)</sup> من أمر قد أجمع رأيى ورأى عمرو عليه ، وهو أن نخلع عليا معاوية ، ونستقبل الأمة بهذا الأمر فيولوا منهم من أحبوا عليهم ، واني قد خلعت عليا معاوية فاستقبلوا أمركم وولوا عليكم من رأيتموه لهذا الأمر أهلا » .

وتلاه عمرو فقال بعد تمهيد : « .. ان هذا قال ما سمعتم وخلع صاحبه ، وأنا أخلع صاحبه كما خلعه ، وأثبت صاحبي معاوية ، فانه ولى عثمان بن عفان رضى الله عنه ، والطالب بدمه وأحق الناس بمقامه »

فغضب أبو موسى ، وصاح به : « مالك لا وفقك الله غدرت وفجرت ، انما مثلك مثل الكلب ان تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث .. » فابتسم عمرو ، وهو يقول : « انما مثلك كمثلى الحمار يحمل أسفارا .. » كلب وحمار فيما حكما به على نفسيهما غاضبين ، وهما يقضيان على العالم بأسره ليرضى بما قضياه ..

وانتهت المأساة بهذه المهزلة ، أو انتهت المهزلة بهذه المأساة

وبان ان اجتماع الحكمين لم يفض الى اتفاق بين الحكمين ، فعاد الخلاف الى ما كان عليه ..

الا انه استشرى<sup>(٢)</sup> واحتدم بعد قصة الحكمين بما زاد عليه من فتنة الخوارج المنكرين للتحكيم<sup>(٣)</sup>

فقد أجمعوا وأبرموا فيما بينهم « .. ان هذين الحكمين قد حكما بغير ما أنزل الله ، وقد كفر اخواننا حين رضوا بهما ، وحكموا الرجال في دينهم ونحن على الشخص من بين أظهرهم ، وقد أصبحنا والحمد لله ونحن على الحق من بين هذا الخلق »

وخرجوا وعلي يابى قتالهم حتى يأس من توبتهم ، ولقيهم بالجيش ، فآثر أن يلقاتهم مناقشا قبل أن يلقاتهم مقاتلا ، واقترح عليهم أن يخرجوا اليه رجلا منهم يرضونه ، يسأله ويحييه ويتوب ان لزمته الحجة ويتوبوا ان لزمتهم . فأخرجوا اليه امامهم عبد الله بن الكواء

---

(١) الشعث : انتشار الامر . (٢) زاد . (٣) أبرم الشيء : أحكمه .

قال علي : « ما الذى تقمتم علي بعد رضاكم بولايتي وجهادكم معي واطاعتكم لى ، فهلا برئتم منى يوم الجمل ؟ » ..  
قال ابن الكواء : « لم يكن هناك تحكيم »  
قال علي : « يا ابن الكواء ويحك .. أنا أهدي أم رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ »

قال ابن الكواء : « بل رسول الله صلى الله عليه وسلم »  
قال علي : « فما سمعت قول الله عز وجل : « قل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم<sup>(١)</sup> » أكان الله يشك أنهم هم الكاذبون ..

قال : « ان ذلك احتجاج عليهم ، وأنت شككت فى نفسك حين رضيت بالحكمين ، فنحن أخرى أن نشك فيك »  
قال : « وان الله تعالى يقول : « فأتوا بكتاب من عند الله هو أهدي منهما اتبعه<sup>(٢)</sup> » ..

قال ابن الكواء : « ذلك أيضا احتجاج منه عليهم » . ثم قال بعد كلام طويل من قبيل كلامه هذا : « انك صادق فى جميع قولك غير انك كفرت حين حكمت الحكمين »

قال علي : « ويحك يا ابن الكواء .. انى انما حكمت أبا موسى وحكم معاوية عمرا .. »

قال ابن الكواء : « فان أبا موسى كان كافرا »  
قال علي : « متى كفر ؟ .. أحين بعثته أم حين حكم ؟ »

قال ابن الكواء : « بل حين حكم »  
قال علي : « أفلا ترى انى بعثته مسلما فكفر فى قولك بعد أن بعثته .. أرايت لو أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث رجلا من المسلمين الى ناس من الكافرين ليدعوهم الى الله<sup>(٣)</sup> فدعاهم الى غيره ، هل كان على رسول الله صلى الله عليه وسلم من ذلك شيء ؟ »

(١) الآية : ٦١ من سورة آل عمران . (٢) الآية ٤٩ من سورة القصص .

(٣) وقد حدث هذا فى عهد النبي عليه السلام اذ أوفد نهارا الرجال ليهدي

قوم مسلمة فانقلب هناك مبشرا بدينه .



قال : « لا »

قال : « ويحك .. فما كان على ان ضل أبو موسى ؟ أفيحل لكم بضلالة أبي موسى أن تضعوا سيوفكم على عواتقكم فتعرضوا بها الناس ؟ »  
فعلم الخوارج ان صاحبهم ليس ببد<sup>(١)</sup> لعلبي في مجال نقاش ، فكفّوه عن الكلام كأنهم آمنوا بصدق علي<sup>(٢)</sup> في حجة وقصده ، لولا انهم قوم قهرتهم لجاجة العناد كما تقهر أمثالهم من المتهوسين الذين يجدون في المضى مع العناد لذة يستمرئونها من الحق والمعرفة .. فمردوا على الشقاق ، وأصروا على تكفير علي وأصحابه ، وأن يعاملوهم في الحرب والسلم معاملة الكفار ..

واستبقى علي بعد هذا كله بقية للسلم والمراجعة .. فرفع في الساحة راية ضم اليها ألفى رجل ونادى : « من التجأ الى هذه الراية فهو آمن »  
ثم قال لأصحابه : « لا تبدءوهم بالقتال حتى يبدءوكم » فصاح الخوارج صيحتهم : « لا حكم الا لله وان كره المشركون » وهجموا هجمة رجل واحد .. وتلقاهم علي وأصحابه لقاء من فقد صبره ووغر<sup>(٣)</sup> صدره . فما هي الا ساعة حتى قتل معظم الخوارج ، وبقي منهم نحو أربعمائة أصيبوا بجراح وعجزوا عن القتال ، فأمر بهم علي<sup>(٤)</sup> فحملوا الى عشائهم لينظروا من فيه رمق<sup>(٥)</sup> فيدركوه بعلاج وأراد المسير الى الشام ليلقى بها جيش معاوية ..

فتصدى له الأشعث بن قيس مرة أخرى ، كما تصدى له في كل فرصة سائحة للغلبة ، وقال له على مسمع من الناس : « يا أمير المؤمنين .. نفدت نبالنا ، وكلت<sup>(٦)</sup> أسيوفنا ، ونصلت<sup>(٧)</sup> أسنة رماحنا ، فارجع بنا الى مقرنا لنستعد بأحسن عدتنا ، ولعل أمير المؤمنين يزيد في عدتنا عدة من هلك منا ، فانه أوفى لنا على عدونا » .

\*\*\*

وتسلل الجند من معسكرهم ، ولاذ من لاذ بالمدن القريبة منهم ،

---

(١) المثل والنظير . (٢) مرد على كذا : مرن واستمر . (٣) الضغن ، والعداوة ، والتوقد من الغيظ . (٤) بقية الروح . (٥) وصارت عاجزة عن القطع . (٦) وخرجت .

وأيقن علي أن القوم مارقون من يده ، ولا طاعة له عليهم إذا دعاهم بعدها لقتال ..

أما معاوية فقد علا نجمه بين قومه ، وأعانه طلاب المنافع عامدين ، وأعانه الخوارج غير عامدين ، فحاربوا علياً ولم يحاربوه ، وطلبوا التوبة من عليّ ولم يطلبوها منه ، واستمر هو في انفاذ البعوث والسرايا الى كل موضع آنس منه غرة وظن بزعمائه موجدة أو سامة . فلم تنقض سنتان حتى كانت معه مصر والمدينة ومكة ، وبقي عليّ في أرباض<sup>(١)</sup> الكوفة يأساً منعزلاً عن الناس ، يتمنى الموت كما قال في بعض خطبه ، ويوجس شراً من أقرب المقرين اليه ، وانتهى بقبول المهادنة بينه وبين معاوية على أن تكون له العراق والمعاوية الشام ، ويكف السيف عن هذه الأمة ، فلا نزاع ولا قتال ..

وبقيت في كنانة الأقدار مصادفة من هذه المصادفات التي يخيل اليك وأنت تتعقبها ، أنها تجمعت منذ الأبد ليو<sup>(٢)</sup> علي بنقائض الموقف كله ، ويظفر خصومه بتوفيقات الموقف كله .. فشاءت هذه المصادفة الأخيرة أن يتفق ثلاثة على قتل ثلاثة ، فيذهب هو وحده ضحية هذه المكيدة العاجلة ، ويفلت زميلاه فيها : معاوية ، وعمرو بن العاص .

اجتمع عبد الرحمن بن ملجم والبرك بن عبد الله وعمرو بن بكر التميمي ، وهم من غلاة الخوارج الموتورين ، فتذاكروا القتل على أي فاقهم ، وتذاكروا القتل من المسلمين عامة ، وألقوا وزر هذه الدماء كلها على ثلاثة من الكفار — أو أئمة الضلالة في رأيهم — وهم : علي بن أبي طالب ، ومعاوية بن أبي سفيان ، وعمرو بن العاص

فقال ابن ملجم : « أنا أكفيكم علي بن أبي طالب »

وقال البرك : « أنا أكفيكم معاوية بن أبي سفيان ؟ »

وقال عمرو بن بكر : « أنا أكفيكم عمرو بن العاص »

وان ضغينة الشار لحافز أي حافز ..

(١) خرج من الجانب الآخر ، ومنه سميت الخوارج مارقة ، لقوله —

صلى الله عليه وسلم — : « يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية » ،

(٢) ما حولها . (٣) ليعود ويرجع .

وان تهوس العقيدة لمثير أى مثير ..  
وكان للمتأمرين الثلاثة قسط واف من هذين الحافزين ، يغنى عن  
مزيد من التحريض على القتل والانتقام ..  
(١)  
ولكن المصادفة العجيبة هى التى شاءت أن تشحذ عزيمة ابن ملجم  
بحافز ثالث لعله يمضى حين ينبو هذان الحافزان الماضيان ، وهو حافز  
من الغرام الظامى لا يرويه الا دم ذلك الشهيد الكريم .  
فان المرء قد ينيم ثائرة الحقد ، وقد يمارى نفسه فيما تفرضه العقيدة ..  
ولكنه اذا كان عاشقا مخبولا يستنجزه الوعد معشوق مسلط عليه ، فهو  
مأسور زمامه فى يدى غيره ، وليس فى يديه .



وكان ابن ملجم يحب فتاة من تيم الرباب ، قتل أبوها وأخوها وبعض  
أقربائها فى معركة الخوارج وكانت توصف بالجمال الفائق والشكيمة<sup>(٢)</sup>  
القوية ، وتدين بمذهب قومها فوق ما فى جوانحها من لوعة الحزن على  
ذويها ، فلما خطبها ابن ملجم لم ترض به زوجها الا أن يشفى لوغتها .  
قال : « وما يشفيك ؟ » قالت : « ثلاثة آلاف درهم وعبد وقينة<sup>(٣)</sup> » وقتل  
علي بن أبى طالب «

قال : « أما قتل علي فلا أراك ذكرته لى وأنت تريدنى .. »  
قالت : « بل ألتمس غرته .. فاذا أصبت شفيت نفسك ونفسي ويهناك  
العيش معي ، وان قتلت فما عند الله خير من الدنيا وزينتها وزينة أهلها »  
وخرج الثلاثة متواعدين الى ليلة واحدة ، يقتل كل منهم صاحبه فى  
ذلك الموعد ..

فأما عمرو بن العاص ، فقد اشتكى بطنه تلك الليلة فلم يخرج من  
بيته ، وأمر خارجة بن حذافة صاحب شرطته أن يصلّى بالناس . فضربه  
عمرو بن بكر وهو يحسبه عمرا فقتله . فقال عمرو : أردتني وأراد الله  
خارجة ، وأمر بقتله ..

وأما معاوية فضربه البرك بن عبد الله ، وقد خرج الغداة للصلاة

(١) أي تعبى وتقوى . (٢) يقال : فلان شديد الشكيمة . . اذا كان

شديد النفس أنفا أبيا . (٣) القينة : الأمة .

فوقعت الضربة على اليته .. وقيل ان الطعنة مسمومة لا يشفيها الا الكى بالنار أو شراب يمنع النسل . فجزع معاوية من النار ، ورضى انقطاع النسل ، وهو يقول : « فى يزيد وعبد الله ما تقر به عينى ، وأمر بالرجل فقتل لحينه » ..

وأما علي ، فضربه ابن ملجم فى جبينه بسيف مسموم ، وهو خارج للصلاة ، فمات بعد أيام وهو يحذر أولياء دمه من المثلة<sup>(١)</sup> ويقول لهم : « يا بنى عبد المطلب .. لا ألفينكم تخوضون دماء المسلمين تقولون قتل أمير المؤمنين ، قتل أمير المؤمنين .. الا لا يقتلن أحد الا قاتلى .. » « أنظر يا حسن ! ان أنا مت من ضربته هذه فاضربه ضربة بضربة .. ولا تمثل بالرجل فانى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : اياكم والمثلة ولو انها بالكلب العقور .

\*\*\*

وهذه خاتمة فاجعة ، تنظر فى كل فرض من فروضها فلا نخليها من المصادفة السيئة التى لا تلقى تبعثها على أحد بعينه .  
فهما يقل القائلون ان عليًا انما أصيب لأنه كان لا يتقى أحدا ، ولا يخرج الى المسجد بحرس ، فالواقع ان المصادفة السيئة قائمة هناك تفرق فى عشرات الحظ بينه وبين زميله اللذين سيقا معه الى مكيدة واحدة .. فخرجا منها بحظين غير حظه ، فان ابن العاص لم ينبج من القتل لأنه خرج الى المسجد محروسا ، ولكنه نجا لأنه لزم بيته فى تلك الليلة ، ومات صاحب شرطته الذى خرج فى مكانه . ولم ينبج معاوية لأنه خرج محروسا ، ولكنه نجا لأنه أصيب وكانت اصابته غير قاتلة .  
فهى المصادفة السيئة مهما تلتبس لها علة من علل التاريخ ، ترجع بنا فى آخر الأمر الى علل المصادفات التى لا تقبل التعليل .  
وشئ آخر تصوره لنا هذه الخاتمة الفاجعة ، كما تصوره لنا البيعة كلها من قبل ابتدائها الى ما بعد انتهائها ..  
وذلك هو النسيج الانسانى النابض الذى يتخلل حياة علي<sup>(٢)</sup> فى لحمها

(١) مثل به : نكل به ، والاسم منه « مثلة » .

وسداها ، وفي تفصيل أجزائها وجملة فحواها ، فما من حادثة من حوادث هذه الحياة النيلية الا وهى معرض حافل للعواطف الانسانية برمتها ، تلتقى فيه عوامل النخوة والشجاعة والوفاء والايمان والسماحة ، وتشتبك فيه مطاعم الناس وأشواقهم وظواهرهم وخفاياهم .. ذلك الاشتباك الذى يخلقه الشعراء خلقا فى القصص والملاحم ، فلا يحكمونه بعض أحكام الواقع الملموس فى سيرة الامام . وقد أسلفنا فى صدر هذا الكتاب انها سيرة تلامس النفس الانسانية فى شتى نواحيها : تلامسها من ناحية العقيدة كما تلامسها من ناحية العاطفة ، ومن ناحية الفكر كناية الخيال ، ومن ناحية التمرد كناية الولاء . فاذا اتبعت السيرة بالخطمة ، فأى خيط من خيوط تلك الشبكة الانسانية التى تنسجها القرائح<sup>(١)</sup> لاقتناص الشعور وتقريب الخيال تفقده فى هذه الخطمة الفاجعة ؟ أى باعث من بواعث القصص الدامية بأحاسيسها ولواعجها لا يرتعد هنا ارتعادا فى كل فصل من فصولها ومشهد من مشاهدنا ؟ يأس الكريم المغلوب وجراءة المحتال الغالب ، وغرام المتهوس المجنون ، وأريحية القاتل الموصى بمن اعتدى عليه ، وحقد المرأة وخداع الجمال ، وزينج العقيدة ، واستواء الايمان ، وفنون لا تحصى تجتمع من الشعور<sup>(٢)</sup> الموارد<sup>(٣)</sup> واللهفة الدائمة فى خاتمة حياة تسع ألف حياة ..

\*\*\*

وهذه مزية علي<sup>٤</sup> بين خلفاء الاسلام قاطبة .. ينفرد بها لأنه انفرد بمثال من النفوس ومثال من العوارض الفردية والاجتماعية تؤلفه المصادفات فى الأجيال الطوال ، ولا تحسن أن تؤلفه بمشيئتها فى كل جيل .. تلك حياة حى .. وذلك مصرع شهيد ..

(١) السدى : ضد اللحمية . (٢) يقال : فلان قريحة جيدة ، ويراد به استنباط العلم بجودة الطبع . (٣) أى المائج الهائج .

## سياسته

تسرى في صفحات التاريخ أحكام مرتجلة يتلقفها فم من فم ، ويتوارثها جيل عن جيل ، ويتخذها السامعون قضية مسلّمة ، مفروغا من بحثها والاستدلال عليها ، وهي في الواقع لم تعرض قط على البحث والاستدلال ، ولم تتجاوز أن تكون شبهة وافقت ظواهر الأحوال ، ثم صقلتها الألسنة فمز عليها بعد صقلها أن تردّها الى الهجر والاهمال ..

كل أولئك من لغو الشعوب .. وللشعوب بداهة تقصر دونها بداهة الفواصين من الأفراد ، ولكنها اذا لفت فثسوطها في اللغو أوسع من شوط الفرد بأمد<sup>(١)</sup> بعيد ..

من تلك الأحكام المرتجلة قولهم ان علياً بن أبى طالب رجل شجاع ، ولكن لا علم له بخدع الحرب والسياسة !

وقد شاع هذا الرأى في عصر علي\* بين أصحابه ، كما شاع بين أعدائه ، وعزز القول به انه خالف الدهاة من العرب فيما أشاروا به عليه ، وانه لم ينجح بعد هذه المخالفة في معظم مساعيه ، فكان من الطبيعي أن يقال: انه منى بالفشل لأنه عمل بغير ما أشار به أصحابه الدهاة ، وانه هو لم يكن من أصحاب الخدع الناجحة في الحرب أو السياسة ..

وقد يكون كذلك أو لا يكون ، فسرى بعد البحث في آرائه وآراء المشيرين عليه أى هذين القولين أدنى الى الصواب ..

ولكن هل خطر لأحد من ناquديه ، في عصره أو بعد عصره ، أن يسأل نفسه : أكان في وسع علي\* أن يصنع غير ما صنع ؟ ..

وهل خطر لأحد منهم أن يسأل بعد ذلك : هبه استطاع أن يصنع غير

---

(١) الامد : الغاية والمنتهى .

ما صنع فما هي العاقبة ؟ .. وهل من المحقق انه كان يفضى بصنيعه الى عاقبة أسلم من العاقبة التي صار اليها ؟ ..

لم نعرف أحدا من فاقيه ، خطر له أن يسأل عن هذا أو ذاك .. مع ان السؤال عن هذا وذاك هو السبيل الوحيد الى تحقيق الصواب والخطأ في رأيه ورأى مخالفه ، سواء كانوا من الدهاة أو غير الدهاة .. والذي يبدو لنا نحن من تقدير العواقب على وجوهها المختلفة ان العمل بغير الرأى الذى سيق اليه لم يكن مضمون النجاح ولا كان مأمون الخطر ، بل ربما كان الأمل فى نجاحه أضعف والخطر من اتباعه أعظم ، لو أنه رضع فى موضع العمل والانجاز وخرج من حيز النصيح والمشورة وهذه هي المسائل التى خالفه فيها الدهاة ، أو خالفه فيها قسدة التاريخ<sup>(١)</sup> الذين نظروا اليها من الشاطئ ، ولم ينظروا اليها نظرة الربان فى غمرة العواصف والأمواج ..

\*\*\*

فالأخذ التى من هذا القبيل ، يمكن أن تنحصر فى المسائل التالية ، وهى :

- ١ - عزل معاوية
- ٢ - معاملة طلحة والزبير
- ٣ - عزل قيس بن سعد من ولاية مصر
- ٤ - تسليم قتلة عثمان
- ٥ - قبول التحكيم
- ٦ - قبول الخلافة

وهى كلها على الأقل قابلة للخلاف والاحتجاج من كلا الطرفين .. فان لم يكن خلاف وكان جزم قاطع .. فهو على ما نعتقد أقرب الى رأى على وأبعد من آراء مخالفه وناقديه ..

قيل فى مسألة معاوية ان علياً رضى الله عنه خالف فيها راي المغيرة وابن عباس وزيد بن حنظلة التميمي ، وهم جميعا من المشهورين بالحنكة<sup>(٢)</sup>

---

(١) شدة ٠ (٢) احتنك الشيء : فهمه وأحكمه ، ورجل محنك : أحكمته

وحسن التدبير ..

جاءه المغيرة بن شعبة بعد مبايعته فقال له : « ان لك حق الطاعة والنصيحة ، وان رأى اليوم تحرز به ما في غد ، وان الضياع اليوم تضيع به ما في غد . أقرر معاوية على عمله ، وأقرر العمال على أعمالهم ، حتى اذا أتتك طاعتهم وبيعة الجنود استبدلت أو تركت »

فأبى وقال : « لا أداهن في ديني ، ولا أعطي الدنيا في أمري »<sup>(١)</sup>  
قال المغيرة : « فان كنت أبيت علي فانزع<sup>(٢)</sup> من شئت واترك معاوية ، فان في معاوية جرأة ، وهو في أهل الشام يستمع له ولك حجة في اثباته .. اذ كان عمر قد ولاه الشام .. »

فقال علي : « لا والله .. لا أستعمل معاوية يومين »  
ثم خرج المغيرة ودخل عليه ابن عباس فقال له ، لما علم برأى المغيرة :  
« انه نصحك » ..

قال علي : « ولم نصحنى ؟ »  
قال : « لأنك تعلم ان معاوية وأصحابه أهل دنيا ، فمتى تشبههم لا يبالوا بمن ولى هذا الأمر ، ومتى تعزلهم يقولوا أخذ هذا الأمر بغير شورى ، وهو قتل صاحبنا ، ويؤلبون عليك فينتقض عليك أهل الشام وأهل العراق » ..

ثم مضت الأيام ، وشاع بين أهل المدينة أن معاوية منتقض على الامام .. فبعثوا زياد بن حنظلة التميمي يعلم ما عنده من أمر هذا الانتقاض ، وكان زياد من جلسائه

فقال له الامام : « تيسر »

قال زياد : « لأى شيء ؟ »

قال : « تغزو الشام »

فقال زياد : « الاثارة والرفق أمثل<sup>(٣)</sup> ، واستشهد بقول الشاعر :  
ومن لم يصانع في أمور كثيرة يضرس بأنياب ويوطأ بمنسم<sup>(٤)</sup>

(١) أنافق . (٢) أنزع : أي أعزل . (٣) أي التسهل والروية .  
(٤) المنسم : خف البعير .



فتمثل على :  
متى جمع القلب الذكى وصارماً<sup>(١)</sup> وأنفا حياً تجتنبك المظالم  
فخرج زياد الى الناس وهم يسألونه : « ما وراءك ؟ » فأجابهم :  
« هو السيف يا قوم ! » ..

\*\*\*

تلك آراء المشيرين من ذوى الحنكة ، وذلك ما عمل به الامام  
وارتضاه .. فأيهما على خطأ وأيهما على صواب ؟ ..  
سبيل العلم بذلك أن نعلم أولاً : هل كان الامام مستطيعاً أن يقر  
معاوية في عمله بالشام ؟ ..  
وأن نعلم بعد هذا : هل كان اقراره أدنى الى السلامة والوفاء لو  
أنه استطاع ؟ ..

وعندنا ان الامام لم يكن مستطيعاً أن يقر معاوية في عمله لسببين :  
أولهما انه أشار على عثمان بعزله أكثر من مرة ، وكان اقراره واقرار  
أمثاله من الولاة المستغلين أهم المآخذ على حكومة عثمان في رأى على  
وذوى الصلاح والاستقامة بين الصحابة ، وكثيراً ما اعتذر عثمان من  
اقرار معاوية بأنه من ولاة عمر بن الخطاب .. فكان علي لا يقبل هذا  
العذر ولا يزال يقول له : « انه كان أخوف لعمر بن الخطاب من غلامه  
« يرقاً » .. ولكنه بعد موت عمر لا يخاف »

فاذا أقره وقد ولى الخلافة ، فكيف يقع هذا الاقرار عند أشياعه ؟  
ألا يقولون انه طالب حكم لا يعنيه اذا وصل الى بغيته ما كان يقول  
وما سيقوله الناس ؟

واذا هو أعرض عن رأيه الأول ، فهل في وسعه أن يعرض عن آراء  
الثائرين الذين بايعوه بالخلافة لتغيير الحال والخروج من حكم عثمان  
الى حكم جديد ؟ ..

ان هؤلاء الثائرين أشفقوا<sup>(٢)</sup> من نية الصلح مع طلحة والزبير في وقعة  
الجمل ، فبدأوا بالهجوم قبل أن يؤمروا به .. هل هجموا على أهل البصرة

(١) الصارم : السيف القاطع . (٢) أشفق منه : جذره .

وهم مأمورون بالهدنة والائانة . فكيف تراهم يهدأون ويطيعون اذا علموا ان الولايات باقية على حالها ، وان الاستغلال الذى شكوا منه وسخطوا عليه لا تبديل فيه ؟ ..

وندع هذا ونزعم ان اقرار معاوية بجيلة من الحيل مستطاع .. فهل هو على هذا الزعم أسلم وأدنى الى الوفاق ؟

كلا .. على الأرجح ، بل على الرجحان الذى هو فى حكم التحقيق .. لأن معاوية لم يعمل فى الشام عمل وال يظل واليا طول حياته ، ويقنع بهذا النصيب ثم لا يتطاول الى ما ورائه ، ولكنه عمل فيها عمل صاحب الدولة التى يؤسسها ويدعمها له ولأبنائه من بعده .. فجمع الأقطاب من حوله ، واشترى الأنصار بكل ثمن فى يديه ، وأحاط نفسه بالقوة والثروة ، واستعد للبقاء الطويل ، واغتنام الفرصة فى حينها .. فأى فرصة هو واجدها خير من مقتل عثمان والمطالبة بثأره ؟

وانما كان مقتل عثمان فرصة لا يضيعها ، والا ضاع منه الملك وتعرض يوما من الأيام لضياح الولاية . وما كان مثل معاوية بالذى يفوته الخطر من عزله بعد استقرار الأمور ، ولو على احتمال بعيد .. فماذا تراه صانعا اذا هو عزل بعد عام من مبايعته لعلي وتبرئته اياه من دم عثمان ؟ انما كان مقتل عثمان فرصة لغرض لا يقبل الارجاء ..<sup>(١)</sup>

واذا كان هذا موقف على ومعاوية عند مقتل عثمان ، فماذا كان علي مستفيدا من اقراره فى عمله وتعريض نفسه لغضب أنصاره ..

لقد كان معاوية أحرى أن يستفيد بهذا من على ، لأنه كان يغنم به حسن الشهادة له وتزكية عمله فى الولاية ، وكان يغنم به أن يفسد الأمر على علي<sup>٢</sup> بين أنصاره ، فتعلو حجته من حيث تسقط حجة الامام ..

وأصدق ما يقال بعد عرض الموقف على هذا الوجه من ناحيته ان صواب الامام فى مسألة معاوية كان أرجح من صواب مخالفه .. فان لم تؤمن بهذا على التقدير والترجيح ، فأقل ما يقال ان الصواب عنده وعندهم سواء ..

(١) يدعمها : يقويها . (٢) التأخير .

والتقدير في مسألة طلحة والزبير أسير من التقدير في مسألة معاوية وولاية عثمان على الأمصار :

لأن الرأي الذي عمل به الامام معروف ، والآراء التي تخالفه لا تعدو واحدا من ثلاثة : كلها أغمض عاقبة ، وأقل سلامة ، وأضعف ضمنا من رأيه الذي ارتضاه ..

فالرأي الأول أن يوليها العراق واليمن أو البصرة والكوفة ، وكان عبد الله بن عباس على هذا الرأي فأفكره الامام لأن « العراقيين بهما الرجال والأموال ، ومتى تملكا رقاب الناس يستميلان السفينة بالطمع ويضربان الضعيف بالبلاء ، ويقويان على القوى بالسلطان .. » ثم ينقلبان عليه أقوى مما كانا بغير ولاية ، وقد استفادا من اقامة الامام لهما في الولاية تزكية يلزمانه بها الحجة ، ويشيران بها أنصاره عليه .

\*\*\*

والرأي الثاني أن يوقع بينهما ليفترقا ولا يتفقا على عمل ، وهو لا ينجح في الوقعة بينهما الا باعطاء أحدهما وحرمان الآخر .. فمن أعطاه لا يضمن انقلابه مع الغرة<sup>(١)</sup> السانحة ، ومن حرمه لا يأمن أن يهرب الى الاثرة كما هرب غيره ، فيذهب الى الشام ليساوم معاوية ، أو يبقى في المدينة على ضغينة مستورة ..

على انهما لم يكونا قط متفقين حتى في مسيرهما من مكة الى البصرة ، فوقع الخلاف في عسكرهما على من يصلى بالناس ، ولولا سعى السيدة عائشة بالتوفيق بين المختلفين لافترقا من الطريق خصمين متنافسين ..

ولم تطل المحنة بهما متفقين أو مختلفين ، فانهزما بعد أيام قليلة ، وخرج الامام من حربهما أقوى وأمنع مما كان قبل هذه الفتنة ، ولو بقيا على السلم المدخول لما انتفع بهما بعض انتفاعه بهذه الهزيمة العاجلة . والرأي الثالث أن يعتقلهما أسيرين ، ولا يبيح لهما الخروج من المدينة الى مكة حين سألاه الاذن بالمسير اليها ، ثم خرجا منها الى البصرة ليشن الغارة عليه ..

---

(١) أي الفرصة . (٢) يقال : شن عليهم الغارة : اذا فرقها عليهم من كل وجه .

والواقع ان الامام قد استراب بما نوياه حين سألاه الاذن بالسفر الى مكة .. فقال لهما : « ما العمرة تريدان ، وانما تريدان الغدرة ! »

ولكنه لم يجسهما ، لأن جسهما لن يغنيه عن جس غيرهما من المشكوك فيهم . وقد تركه عبد الله بن عمر ولم يستأذنه في السفر ، وتسلسل الى الشام أناس من مكة ومن المدينة ولا عائق لهم أن يتسللوا حيث شاءوا ، ولو انه جسهم جميعا لما تسنى له ذلك بغير سلطان قاهر ، وهو في ابتداء حكمه لما يظفر بشيء من ذلك السلطان ، وأغلب الظن ان سواد الناس كانوا يعطفون عليهم وينقمون جسهم قبل أن تثبت له البيعة بوزرهم . وما أكثر المتخرجين في عسكر الامام من جس الأبرياء بغير برهان ؟.. لقد كان هؤلاء خلقاء أن ينصروهم عليه وقد كانوا ينصرونه عليهم ، وخير له مع طلحة والزبير وأمثالهما أن يعلنوا عصيانهم فيغلبهم من أن يكتموه فيغلبوه ويشككوا بعض أنصاره في عدله وحسن مجاملته لهم .

وعلى هذا كله ، حاسنوه ولم يصارحوه بعداء .. لم يكن الجيش الذي خرج من مكة الى البصرة يئأس من الخروج اليها اذا لم يصحبه طلحة والزبير فقد كانت « العثمانية » في مكة حزبا موفور العدد والمال .. فهي مسألة تلتبس فيها الطرائق ، ولا يسعنا أن نجزم بطريقة منها أسلم ولا أضمن عاقبة من الطريقة التي سلكها الامام وخرج منها غالبا على الحجاز والعراق ، وما كان وشيكا أن يغلب عليهما لو بقى معه طلحة والزبير على فرض من جميع الفروض التي قدمناها .. أما عزل قيس بن سعد من ولاية مصر ، فهي غلطة من غلطات الامام يقل الخلاف فيها ..

لأن قيسا بن سعد كان أقدر أصحابه على ولاية مصر وحمايتها ، وكان كفوا معاوية وعمرو بن العاص في الدهاء والمداورة ، فعزله الامام لأنه شك فيه .. وشك فيه لأن معاوية أشاع مدحه بين أهل الشام ، وزعم انه من حزبه والمؤتمرين في السر بأمره ..

(١) أي تشكك . (٢) الغدر : ترك الوفاء ، والمراد : الخيانة . (٣) أي

جديريين .

وكان أصحاب عليّ يحرضونه على عزله ، وهو يستعملهم ويراجع رأيه فيه حتى اجتمعت الشبهات لديه .. فعزله وهو غير واثق من التهمة ، ولكنه كذلك غير واثق من البراءة

وشبهاته مع ذلك لم تكن بالقليلة ولا بالضعيفة ، فان قيسا بن سعد لم يدخل مصر الا بعد أن مر بجماعة من حزب معاوية ، فأجازوه ولم يحاربوه وهو في سبعة نفر لا يحمونه من بطشهم ، فحسبوه حين أجازوه من العثمانية الهاربيين الى مصر من دولة عليّ في الحجاز ..

ولما بايع المصريون عليّا على يديه ، بقى العثمانيون لا يبايعون ولا يشيرون ، وقالوا له : « أمهلنا حتى يتبين لنا الأمر » فأملهم وتركهم وادعين<sup>(١)</sup> حيث طاب لهم المقام بجوار الاسكندرية .



ثم أغراء معاوية بمناصرته والخروج على الامام ، فكتب اليه كلاما لا الى الرفض ولا الى القبول ، ويصح لمن سمع بهذا الكلام أن يحسبه مراوغا لمعاوية أو يحسبه مترقبا لساعة الفصل بين الخصمين .. اذ كان ختام كتابه اليه : « ... أما متابعتك فانظر فيها ، وليس هذا مما يسرع اليه وأنا كاف عنك فلا يأتيك شيء من قبلى تكرهه ، حتى نرى وترى » ثم اشتد في وعيده حين أنذره معاوية فقال : « أما قولك انى مالى عليك مصر خيلا ورجلا ، فوالله ان لم أشغلك بنفسك حتى تكون نفسك أهم اليك انك لذو جد والسلام .. » .

وأراد الامام أن يستيقن من الخصومة بين قيس ومعاوية ، فأمر قيسا أن يحارب المتخلفين عن البيعة .. فلم يفعل وكتب اليه : « ... متى قاتلنا ساعدوا عليك عدوك ، وهم الآن معتزلون والرأى تركهم » .

فتعاضل شك الامام وأصحابه ، وكثر المشيرون عليه بعزل قيس واستقدمه الى المدينة .. فعزله واستقدمه ، وتبين بعد ذلك انه أشار بالرأى الصواب ، وان ترك المتخلفين عن البيعة فى عزلتهم خير من التعجيل بحربهم ، لأنهم هزموا محمدا بن أبى بكر والى مصر الجديد ، وجروا

(١) وادعين : ساكنين .

عليه من كان يصانعه ويواليه ..

غلطة لاريب فيها ..

وان كان جائزاً مع هذا ألا يهزموا قيساً ، لو كان حاربهم ، كما هزموا خلفه الذي لا يعدله في الحزم والخبرة .

ولكننا نبالغ على كل حال ، اذا علقنا بها الجرائر التي أصابت الامام من بعدها ، وزعمنا انه تقاعد عن اصلاحها في حينها ، كما تصلح الغلطات التي يساق اليها الساسة .. فانما هي غلطة من تلكم الغلطات التي تضير والحوادث مولية .. وقلما تضير أو تعز على الاصلاح والحوادث مؤاتية . وقد عرف الامام خطأه فقال لصحبه : « ان مصر لا يصلح لها الا أحد رجلين هذا الذي عزلناه والأشتر » وأنفذ الأشتر الى مصر ليعيدها الى طاعته فمات في الطريق ..

\*\*\*

والأقوال في موت الأشتر هذه الميئة الباغثة كثيرة ، منها انه مات غيلة وان معاوية أغرى به من دس له السم في عسل .. شربه وهو على حدود مصر فقتل نجه ، وروى ان معاوية قال حين بلغه موته : « ان الله جنوداً من العسل » ..

فان صحت الرواية ، واعتقد من اعتقد انها من دلائل السياسة القوية عند معاوية .. فمما لاشك فيه ان موت الأشتر ، لم يكن من دلائل السياسة الضعيفة عند الامام ، وانه لا لوم على سياسته في اغتياله ، ان كان فيه سبب ثناء على سياسة الغيلة عند من يحمونها .

ومن عجائب هذه القصة ان معاوية ندم على تقرب قيس من جوار علي ، وقال : « لو أمددته بمائة ألف لكانوا أهون علي من قيس » لأنه قد ينفعه وهو قريب منه بالمشورة عليه في عامة أموره ، ولا ينحصر نفعه له في سياسة مصر وحدها ..

ولكن الذي حذر معاوية لم يكن ، والذي حذر علي كان ..  
واذا ولت الحوادث ، فقد ينفع الخطأ وقد يضير الصواب ..

(١) يعدله : يساويه . (٢) أي بعث وأرسل . (٣) أي الاغتيال .

—١٠١—

ثم تأتي مسألة القصاص من قتلة عثمان التي كانت أطول المسائل جدلاً بين الامام وخصومه ، فإذا هي أقصرها جدلاً من براءة المقصد من الهوى وخلوص الرغبة في الحقيقة ..

فقد طالبوه بالقود ولم يبايعوه ، مع ان القود لا يكون الا من ولى الأمر المعترف له باقامة الحدود

وطالبوه به ولم يعرفوا من القتلة ، ومن هو الذى يؤخذ بدم عثمان من القبائل أو الأفراد ..

وأعتنوه بهذا الطلب لأنهم علموا انه لا استطاع قبل أن تثوب السكينة الى عاصمة الدولة ، وأغفوا أنفسهم منه — وهم ولاه الدم كما يقولون — يوم قبضوا على عنان الحكم وثابت السكينة الى جميع الأمصار

\*\*\*

وقد تحدث الامام مرة في أمر القود من قتلة عثمان<sup>(١)</sup> ، فإذا بجيش يبلغ عشرة آلاف يشرعون الرماح ويجهرون بأنهم « كلهم قتلة عثمان » فمن شاء القود فليأخذه منهم أجمعين

وكان الامام يقول لمن طلبوا منه اقامة الحدود : « انى لست أجهل ما تعلمون ، ولكنى كيف أصنع بقوم يملكوننا ولا نملكهم ، ها هم هؤلاء قد ثارت معهم عبدانكم وثابت اليهم أعرابكم ، وهم بينكم يسومونكم ما شاءوا ، فهل ترون موضعاً لقدرة على شئ مما تريدون؟.. »

ومن قوله لهم : « .. ان هذا الأمر أمر جاهلية ، وان هؤلاء القوم مادة ، وان الناس من هذا الأمر الذى تطلبون على أمور : فرقة ترى ما ترون ، وفرقة ترى ما لا ترون ، وفرقة لا ترى هذا ولا هذا حتى تهدأ الناس وتفتح<sup>(٢)</sup> القلوب مواقعها ، وتؤخذ الحقوق فاهدها غنى ، وانظروا ماذا يأتيكم ثم عودوا »

ولو أن المطالبين بدم عثمان التمسوا أقرب الطرق الى الثأر له ، والقصاص من العادين عليه ، لقد كان هذا أقرب الطرق الى ما أرادوا .. يؤيدون ولى الأمر حتى يقوى على اقامة الحدود ، ثم يحاسبونه بحكم

(١) القصاص . (٢) ترجع .

الشريعة حساب انصاف ..

الا أنهم طلبوا ما لايجاب ، وما لم يكن من حقهم أن يطلبوه ، وليس بينهم أعف ولا أتقى من السيدة عائشة رضى الله عنها . وقد روى عنها انها قالت لما أخبرت ببيعة على<sup>١</sup> وهى خارجة من مكة : « ليت هذه انطبقت على هذه ان تم الأمر لعلى<sup>٢</sup> تشير الى السماء والأرض.. ثم عادت الى مكة وهى تقول : « قتل والله عثمان مظلوما ، والله لأطلبن بدمه » ..

ف قيل لها : « ولم ؟ .. والله ان أول من أثار الناس عليه لانت .. ولقد كنت تقولين : اقتلوا « نعثلا » فقد كفر »  
ف قالت : « انهم استتابوه ثم قتلوه ، وقد قلت وقالوا ، وقولى اليوم خير من قولى الأول »

وناهيك بالسيدة عائشة فى فضلها ومكائنها وتقواها ، فقل ما شئت فى المطالبين غيرها بهذا المطلب الذى لا يجاب  
والرضا ، أو الارضاء ، مستحيل حين يكون المطلب من هذا القبيل .

أما الذين لاموه لقبوله التحكيم ، فيخيل الينا من عجلتهم الى اللوم انهم كانوا أول من يلومه ويفرط فى لومه لو انه رفض التحكيم وأصر على رفضه ، لأنه لم يقبل التحكيم وله مندوحة<sup>(١)</sup> عنه ..  
ولكنه قبله بعد احجام جنوده عن الحرب ، ووشك القتال فى عسكرهم خلافا بين من يقبلونه ويرفضونه

وقبله بعد أن حجز الحفاظ والقراء نيفا وثمانين فرجة للقتال لشكهم فى وجوبه وذهاب بعضهم الى تحريمه

وبعد أن توعدوه بقتله كقتله عثمان ، وأحاطوا به يلحون عليه فى استدعاء الأشتر النخعى الذى كان يلاحق أعداءه مستحصدا فى ساحة الحرب على أمل فى النصر القريب ..

والمؤرخون الذين صوبوا رأيه فى التحكيم وخطئوه فى قبول أبى موسى الأشعرى ، على علمه بضعفه وتردده ، ينسون أن أبا موسى كان مفروضا

(١) مندوحة ، ومنتدح : أي سعة .



عليه ، كما فرض عليه التحكيم في لحظة واحدة .. وينسون ما هو أهم من ذلك ، وهو ان العاقبة متشابهة سواء ناب عنه أبو موسى الأشعري أو ناب عنه الأشتر أو عبد الله بن عباس .. فان عمرو بن العاص لم يكن ليخلع معاوية ويقر عليًا في الخلافة ، وقصارى<sup>(١)</sup> ما هنالك ان الحكيم سيفترقان على تأييد كل منهما لصاحبه ورجعة الأمور الى مثل ما رجعت اليه . وان توهم بعضهم ان الأشتر أو ابن عباس كان قديرا على تحويل ابن العاص عن رأيه ، والجنوح<sup>(٢)</sup> به الى حزب الامام ، بعد مساومته التي ساومها في حزب معاوية .. فليس ذلك على التحقيق بمقنع معاوية أن يستكين ويستسلم ، وحوله المؤيدون والمترقبون للمطامع واللبائات<sup>(٣)</sup> يفرز عليهم اخفاقهم كما يفرز عليه اخفاقه .

وما أسهل المخرج الشرعى الذى يلوذ به معاوية فيقبله منه أصحابه ويتابعونه على نقض حكم الحكيم المتفقين ؟ .. لقد كان النبی عليه السلام يقول عن عمار بن ياسر انه « تقتله الفتنة الباغية » فلما قتله جند معاوية ، وخيفت الفتنة بينهم أن تلزمهم سبة البنى بشهادة الحديث الشريف — قال قائل منهم : انما قتله من جاء به الى الحرب .. فشاع بينهم هذا التفسير العجيب ، وقبلوه جميعا غير مستثنى منهم رجل واحد .. أفلا يقبلون تفسيراً مثله اذا تحول ابن العاص ، وأفتى الحكمان بخلع معاوية ومبايعة الامام ؟

فليس في أيدي المؤرخين الناقدين اذن حل أصوب من الحل الذى أذعن<sup>(٤)</sup> له الامام على كره منه ، سواء أذعن له وهو عالم بخطئه أو أذعن له وهو يسوى بينه وبين غيره في عقابه .

ويبقى اعتزال الخلافة من البداية ، وهو خطة ترد على الخاطر حيال هذه المعضلات التى واجهها الامام ، ولم يكن عسيرا عليه أن يتوقعها بعد مقتل عثمان وشيوع الفتنة والشقاق بين الأمصار كلها .. وشيوعهما قبل ذلك بين جنده الذى يعول عليه ..

---

(١) أي غاية . (٢) أي الميل . (٣) الحاجة . (٤) خضع .

ولكنها خطة سلبية لا يمتحن بها رأى ولا عمل ، ولا ترتبط بها تجربة ولا فشل .. وكل ما هنالك من أسباب ترجيحها أنها أسلم للامام وآمن لسريه<sup>(١)</sup> وأهدأ لباله ، وهو أمر مشكوك فيه .. على ما فى طلب السلامة بين هذه الزعازع من اثره ، قلتما يرتضيها الشجاع الباسل أو الحكيم العامل ..

فمن السخف أن يخطر على البال أن رجلا كعلى بن أبى طالب ، يترك وادعا فى سريه بين هذه الزعازع التى تحيط بالدولة الاسلامية فى عصره .. أن تركه الثوار وأعفوه من الحكم ، لم يتركه أصحاب السلطان ولم يعفوه من الدسيسة والايذاء ، لاعتقادهم أنه باب من أبواب الخطر الدائم ، وأنه ما عاش فهو علم منصوب يفتى<sup>(٢)</sup> اليه كل ساخط وكل مصلح وكل مخالف على الدين أو على الدنيا . وقد قيل: أن ابنه الحسن مات مسموما فى عهد معاوية خوفا من لياذ<sup>(٣)</sup> الناس به ورجعتهم اليه .. وقيل مثل ذلك عن عبد الله بن خالد بن الوليد .. وما أعظم البون<sup>(٤)</sup> فى المكانة والحساب بينهما وبين الامام عند أصحاب المخاوف وأصحاب الآمال .

ولعلنا نقارب هذه الحقيقة من ناحية أخرى ، اذا رجعنا الى أقوال أبطال الميدان نفسه فى علل النصر والهزيمة ، وفيما يقال عن مزية كل منهم على خصمه أو مزية خصمه عليه

فعلى يسمع ما يقال عن شجاعته ورجحان معاوية عليه فى الدهاء ، فيقول : « ... والله ما معاوية بأدهى منى ، ولكنه يغدر ويفجر ، ولولا كراهية الغدر لكنت من أدهى الناس .. »

أو يقول : « ولكنه لا رأى لمن لا يطاع »

ويلعل ما أصابه فى بيعته بما أجمله لأتباعه حين قال لهم : « .. لم تكن بيعتكم اياى فلتة<sup>(٥)</sup> .. وليس أمرى وأمركم واحدا .. انى أريدكم لله ، وأنتم تريدوننى لأنفسكم »

ومعاوية يذكر الخصال التى أعين بها على علي<sup>ؑ</sup> ، فيقول : « انه كان

(١) لنفسه . (٢) يرجع . (٣) لجأ اليه . (٤) الفضل والمزية .

(٥) أي فجأة بدون تردد وتدبر .

رجلا لا يكتنم سرا وكنتم كتوما لسرئى ، وكان يسعى حتى يفاجئه الأمر مفاجأة وكنتم أبادر الى ذلك ، وكان فى أخبث جند وأشدهم خلافا . وكنتم أحب الى قريش منه ، فقلت ما شئت .. »

وعمر بن العاص يقول عن عدة النجاح فى طلب الخلافة : « انه لا يصلح لهذا الأمر الا رجل له ضرسان ، يأكل بأحدهما ويطعم بالآخر » وهذه هى أسباب النصر والهزيمة على حقيقتها ، الا انها تظل ناقصة ما لم تقرنها بحقيقة أخرى ، وهى ان هزيمة معاوية كانت مرجحة — بل مؤكدة — لو انه وضع فى موضع علي<sup>(١)</sup> ، وابتلى بالأسباب التى ابتلى بها فالبراء كله انما كان فى خبث الأجناد وشدة خلافهم ، ولهذا كان سر علي<sup>(٢)</sup> يعرف وسر معاوية يكتنم .. لأن معاوية يطاع ونيته فى صدره ، وعلينا لا يطاع الا اذا سئل عن نيته وما يحل منها أو يحرم فى رأى أتباعه . وكذلك كانت تفاجئه الحوادث لأنه كان يروى فيها ما يروى ، ولا ينفذ من رويته الا الذى ينساق اليه هو وأتباعه آخر المطاف بحكم الضرورة الحازبة<sup>(٣)</sup> ، وقد بطل الجدل وبطل من قبله التدبير ..

ولو أن معاوية كتب عليه أن يحارب جندا مطيعا بجند عصاه ، لمسا طمع فى حظ أوفق من حظ علي<sup>(٤)</sup> فى ذلك الصراع المتفاوت بين الخصمين.. ولو استعان بكل ما أعين به من رشوة الأنصار وكيد الخصوم ، بل لعله كان يخفق حيث أفلح قرنه<sup>(٥)</sup> على قدر ما بينهما من فارق فى الشجاعة والسابقة الدينية ، وكذلك قال الامام : « ان لبنى أمية مرودا يجرون فيه ولو قد اختلفوا فيما بينهم ثم كادتهم الضباع لغلبتهم »

على أننا نود أن نقف عند الحد المأمون فى تحليل النصر والهزيمة ، ولا نعدوه الى ما وراءه .. فليس من قصدنا أن نصف عليا بقوة الدهاء وسعة الحيلة ، ولكننا قصدنا أن نبرئه من عجز الرأى وضعف التدبير ، لأن أسباب الهزيمة موفورة<sup>(٦)</sup> بغير هذا السبب الذى لا دليل عليه .. فقوام<sup>(٧)</sup> الفصل بين الطرفين ، انه لا دليل لدينا من الحوادث على عجز

(١) أمر حازب وحزيب : أي شديد . (٢) القرن : الكف . (٣) المروء :

الميل . (٤) كثيرة . (٥) قوام الامر : نظامه وعماده .

رأى ولا قوة دهاء .. ولو كانت قوة الدهاء صفة غالبية فيه لظهرت على صورة من الصور ، وان قامت الحوادث عائقا بينها وبين النجاح .. فان الدهاء لا يخفيه أن تكون المعضلة التي يعالجها محتومة الفشل مقرونة بالخذلان ..

ومما لا شك فيه ، أن عليا أشار بالرأى في مواقف كثيرة فأصاب المشورة ، وانه وصف أناسا فدل على خبرة بالرجال وما يغلب عليهم من الطباع والحصال ، وانه أخذ بالحزم في توقع الحوادث واستطلاع الأمور ولكنه لزم الكفاية في ذلك ، ولم يتجاوزها الى الأمد<sup>(١)</sup> الذي يسلكه بين الدهاة الموسومين بفرط الدهاء ..

فمن مشوراته الصائبة ، انه نهى عمر رضى الله عنه أن يخرج لحرب الروم والفرس بنفسه ، فقال له : « انك متى تسر الى هذا العدو بنفسك فتلقهم فتكسب ، لاتكن للمسلمين كائنة دون أقصى بلادهم .. ليس بعدك مرجع يرجعون اليه ، فابعث اليهم رجلا مجربا .. فان أظهره الله فذاك ما تحب ، وان تكن الأخرى كنت رداء للناس ومثابة للمسلمين » ومن وصفه للرجال وأساليب تناولهم ، قوله لابن عباس وقد أرسله الى طلحة والزبير : « لا تلقين طلحة ، فانك ان تلقه تلقه كالثور عاقصا — أى لاويا — قرنه يركب الصعب ويقول هو الذلول ، ولكن الق الزبير فانه ألين عريكة<sup>(٢)</sup> فقل له : « يقول لك ابن خالك عرفتني بالحجاز وأنكرتني بالعراق .. فما عدا مما بدا ؟ »

ومن حزمه انه كان يبيت عيونه وجواسيسه في الشرق والغرب ليطلعوه على أخبار أعوانه وأعدائه ، وانه كان اذا وجبت الحرب بادر بالخروج ولم يأت التردد والابطاء بعد ذلك الا من خلاف جنده ومن معرفته للجماهير انه وصفهم أوجز وصف حين قال: انهم أتباع كل ناعق ، وانهم « هم الذين اذا اجتمعوا ضربوا واذا تفرقوا نفخوا » .. لانهم اذا تفرقوا رجع أصحاب المهن الى مهنتهم فانتفع بهم الناس ..

(١) أي مانعا وحائلا . (٢) الغاية . (٣) أي المعروفين . (٤) أي مرجعا . (٥) أي تجده . (٦) أسلس طبيعة .

—١٠٧—

فهذا قسط من رأى الصائب ، كاف لمهمة الحكم لو تصدى به الامام للخلافة .. والعصر عصر خلافة وليس بعصر دولة دنيوية مضطربة في دور تأسيسها وتلقيق<sup>(١)</sup> أجزائها ..

بل هو قسط كاف لمهمة الحكم في الدولة الدنيوية ، لو تولاه بعد استقرارها والفراغ من مكائد تأسيسها .. كما جاء عمر بن عبد العزيز في صلاحه وتقواه بعد الملوك الأولين من بنى أمية .. ولكنه قسط من رأى لا يسلك صاحبه بين أساطين الدهاة الذين يكيدون بالرأى وبالعمل النافذ على السواء ..

\*\*\*

ونعود بعد هذا ، فنقول: انه لم يخسر كثيرا بما فاته من الدهاء .. ولم يكن ليربح كثيرا لو استوفى منه أوفى نصيب ، لأنه لا بد من ملك أو خلافة ..

ولن يكون ملكا بأدوات خليفة ، ولا خليفة بأدوات ملك ، ولن تبلغ به الحيلة أن يحارب رجلا يريد العصر والعصر يريد به ، لأنه عصر ملك تهيات له الدواعى الاجتماعية ، وتهيا له الرجل بخلائقه<sup>(٢)</sup> ونياته ومعاونة أمثاله ..

ولم يكن معاوية زاهدا في الخلافة على عهد أبى بكر أو عمر أو عثمان ، ولكن الخلافة كانت زاهدة فيه فلما جاء عصر الملك ، طلب الملك والمملك يطلبه ..

وقديما قال أبوه للعباس عم النبي ، وقد رأى جيش المسلمين في فتح مكة : « لقد أصبح ملك ابن أخيك عظيما »

فهو الملك ، أو هو جاء الدنيا ، الذى تطلع اليه من نشأته الأولى في بيته .. وانتظر ثم انتظر حتى لاقاه على قدر ، فوضع في موضعه وقام به الموضع كما قام به ، ونجحا معا على التوافق والرفاء<sup>(٣)</sup> .. وحين وجب أن يقع الفصل بين الملك والخلافة ، وجب أن يكون على رأس فريق الخلافة ..

(١) لفق الثوب : اذا ضم شقة الى شقة وخاطهما . (٢) جمع خليفة ،

وهي : الطبيعة . (٣) أي الالتئام

وحين وجب أن يقع الفصل بين أصحاب المنافع الراغبين في دوام المنفعة ، وبين أصحاب المبادئ والظلمات الراغبين في التبديل والاصلاح ، وجب أن يكون على رأس هذا الفريق دون ذلك الفريق وحين وجب هذا وذاك وجوبا لا حيلة فيه للمتحول ، ولا اختيار فيه للمختار ، وجب أن تصير خلافة علي<sup>(١)</sup> الى ما صارت اليه ، كائنا ما كان خطره من الدهاء والخدعة ، وكائنا ما كان طريقه الذي ارتضاه هو أو أشار به المشيرون عليه

\*\*\*

وقد يحسن بالمؤرخ بعد الموازنة بين عدة الخلافات وعدة الملك في صراع علي<sup>(٢)</sup> ومعاوية ، أن يذكر عدة أخرى لم تظهر في هذا الصراع ، وقد ظهرت في مآزق شتى من أخرج مآزق التاريخ ، واعتمد عليها أبطاله الكبار كثيرا في تأسيس الدول وقمع الثورات ، فاختصروا الطريق وأراحوا أنفسهم من عناء طويل ، ونريد بها عدة البطش العاجل والمباغتة الحاسمة كلما تأشبت<sup>(٣)</sup> العقد وتعسرت الحيلة ووجب الخلاص السريع .. فقد علمنا مثلا أن الأشعث بن قيس كان يعترض الامام في كل خطوة من خطوات النصر ، ويثقل عليه باللجاجة والعنت في مواقف مكربة تضيق بها الصدور .. ولم يكن الأشعث بن قيس بالوحيد في هذا الباب ، بل كان له شركاء من الخوارج وغير الخوارج ، يظهرون بالعنت في غير موضعه ويذهبون به وراء حده ، وربما بلغوا من الضر في معسكر الامام فوق مبلغ الأشعث بن قيس ، على عظم الفارق بين سلطانهم وسلطانة ألا يخطر على البال هنا ، ان ضربة من الضربات القاضية كانت تنجح في هذا العنت المكرب حيث لا تنجح العقوبة الشرعية أو الأحاييل السياسية ؟ ..

ماذا لو أن الامام جرد سيفه بين أولئك المشاغبين ، وأطاح برأس الأشعث بن قيس قبل أن يفيق أحد الى نفسه ، ثم ولى على الفور من

(١) أشب الشجر وتأشب : التف • (٢) أي تفيد وتؤثر •

—١٠٩—

يقوم مقامه في رئاسة قوم ويكفل لهم الطاعة بينهم لأمره ؟ .. أكان بعيدا أن تفعل الرهبة فعلها ، فيسكن المشاغب ، ويهاب المتناول ، ويجتمع المتفرق ، ويقل الخلاف بعد ذلك على الامام وعلى الرؤساء عامة ؟  
لم يكن ذلك بعيد ..  
لكنه كذلك لم يكن بالمحقق ، ولا بالمأمون ..

فهى مجازفة ذات حدين ، تصيب بأحدهما وقد تصيب بهما معا .. وقد يكون الحد الذى تصيب به هو الحد الذى من قبل الضارب دون الحد الذى من قبل المضروب ..

وكل ما تفيدنا اياه هذه الملاحظة العابرة على التحقيق ، ان الامام رضى الله عنه لم يكن من أصحاب هذه الملكة التى اتصف بها بعض أبطال القلاقل في أيام الفصل بين عهدين متدبرين . فكانت له ضربة الشجاع ، ولم تكن له ضربة المغامر أو المقامر ..

ولم يضرب بالسيف قط ، كأنه يقذف بالقذاح إما الى الكسب وإما الى الخسارة .. وإنما كان يضرب به ضرب الجندى الذى يلتمس الغلب بقوته وقوة إيمانه ، ولا يلتزمه من جولات السهام وفلتات الغيب ..  
على اننا — وقد سجلنا هذه الملاحظة — نفرض انه رضى الله عنه كان من أصحاب تلك الملكة التى عرف بها بعض المغامرين في أوقات الفصل بين العهود ..

ونفرض انه عمد<sup>(١)</sup> اليها ، فنفعته في عسكره وطوعت له الجند وأراحته من شغب الخارجين عليه والمتشعبين بالآراء والفتاوى من يمينه وشماله فماذا عسى أن يغير هذا كله من طبيعة الموقف الذى أجملناه ؟ ..  
يكون المخرج بين سياسة الملك ، كما يطلبها العصر ، وسياسة الخلافة كما يطلبها البقية الباقية من آداب الفترة النبوية ؟

أيسوس الامام دولته ملكا دنيويا أم يسوسها خليفة نبوة ؟  
أيفرق الأموال على رءوس القوم وقادة الجند وطلاب الترف أم يلزمهم عيشة النسك والشفط<sup>(٢)</sup> والجهاد ؟

(١) أي تصد . (٢) خشونة العيش .

وإذا حرمهم وتألّبوا عليه مع خصمه ، أفهو الغالب اذن بمطالب العصر ومقتضياته ودواعيه أم هم الغالبون ؟

وإذا أعطاهم ليبدخوا بذخ الملك الديوى وهو وحده بينهم الناسك المجتهد على سنّة النبوة ، أفيستقيم له هذا الدور العجيب وهو فى جوهره متناقض لا يستقيم ؟ ..

فالسياسة التى اتبعها الامام هى السياسة التى كانت مقيضة له مفتوحة بين يديه ، وهى السياسة التى لم يكن له محيد<sup>(١)</sup> عنها ، ولم يكن له أمل فى النجاح ان حاد عنها الى غيرها .. سواء عليه اتفق جنده بضربة من الضربات القاضية أم لم يتفقوا على دأبهم<sup>(٢)</sup> الذى رأيناه ، وسواء لان لطلاب الدولة الديوية أم صمد على سنّة النبوة والخلافة النبوية .

\*\*\*

ومهما يكن من حكم الناقدين فى سياسة الامام ، فمن الجور الشديد أن يطالب بدفع شىء لا سبيل الى دفعه ، وأن يحاسب على مصير الخلافة وهى منتهى لا محالة الى ما انتهت اليه ..

ومن الجور الشديد ، أن يلقى عليه اللوم لأنه باء بشهادة الخلافة ، ولا بد لها من شهيد ..

وقد تجمعت له أعباء النقائص والمفارقات التى نشأت من قبله ، ولم يكد يسلم منها خليفة من الخلفاء بعد النبى صلوات الله عليه ..

أحس بها الصديق ، فمات وهو ينحى على الصحابة ويحذرهم بؤادر الترف الذى استناموا اليه ..

وأحس بها الفاروق وأثقلت كاهله ، وهو الكاهل الضليع بأفدح الأعباء .. فضاقت ذرعا بالحياة ، وطفق يقول فى سنة وفاته : « اللهم كبرت سنى وضعفت قوتى ، وانتشرت رعيتى ، فاقبضنى اليك غير مضيع ولا مفرط .. اللهم ارزقنى الشهادة فى سبيلك »

وأحس بها عثمان ، فما فارق الدنيا حتى ترك الخلافة والملك عسكرين متناجرين<sup>(٣)</sup> ، لا يرجع أحدهما الا بالعلبة على نده وضده ..

(١) متاحة . (٢) عدول . (٣) أي عادتهم . (٤) أي متقاتلين .



-١١١-

وكتب لعلي<sup>١</sup> بعد ذلك أن يتلقى الدولة الإسلامية بين هذين العسكرين ، فلا في مقدوره أن يجمعهما الى عسكر واحد ، ولا في مقدوره أن يختار منهما عسكر الملك ، ولا أن يختار عسكر الخلافة الدينية فتظل على يديه خلافة دينية بعد أوانها ..

وما لم يكن في مقدوره لم يكن في مقدور غيره ، وانه لانصاف قليل أن نعرف له هذه المعاذير الصادقة ، وهو الذي باء وحده بتلك النقائص والأعباء ..

\*\*\*

وقد نقدت سياسة علي<sup>٢</sup> لقوات الخلافة منه قبل البيعة . كما نقدت سياسته لقوات الخلافة منه بعد البيعة ، وأحصى عليه بعض المؤرخين انه تأخر نيفا وعشرين سنة .. فلم يخلف النبي ، ولم يخلف أبا بكر ، ولم يخلف عمر .. كأنه كان مستطيعا أن يخلف أحدا منهم بعمل من جهده وسعى من تدبيره ، فأعياه السعى والتدبير ..

ومقطع الفضل في هذا أن نرجع الى العوائق التي حالت بينه وبين الخلافة قبل وصولها اليه ، لنعلم منها العائق الذي كان في أيدي الحوادث والعائق الذي كان في يديه ، أو كانت له قدرة معقولة عليه

فما لا شك فيه ان الامام أنكر اجحافا أصابه في تخطيه بالبيعة الى غيره بعد وفاة ابن عمه صلوات الله عليه ، وانه كان يرى ان قرابته من النبي مزية ترشحه للخلافة بعده لأنها فرع من النبوة على اعتقاده ، وهم شجرة النبوة ومحط الرسالة ، كما قال ...

ومما لا شك فيه ، ان شعوره هذا طبيعي في النفس الانسانية كيفما كان حظها من الزهد والقناعة ، لأن تخطيه — مع هذه المزية التي ترشحه للبيعة — يشبه أن يكون قدحا في مزاياه الأخرى ، من علم وشجاعة وسابقة جهاد وعفة عن المطامع ، أو يشبه أن يكون كراهة له وممالة على الغض من قدره ، ولم يزل من غرائز النفوس أن يسوءها القدح فيها والخط من مزاياها ومواجهتها بالنفرة والكراهة ..

(١) اي عيبا . (٢) ماله على كذا ممالة : ساعده .

الا ان الخلافة الاسلامية ، مسألة عالمية لا توزن بميزان واحد ، ولا يؤتم فيها برأى واحد ولا بحق واحد . وقد يضحى في سبيلها بالعظيم والعظماء ، اذا تعارضت الحقوق وتشعبت الآراء ..  
ويشاء القدر أن تكون المزية الأولى في ميزان على هي العائق الأول في سائر الموازين ، ومنها ميزان النبي صلوات الله عليه ..

فقد كان عليه السلام يأبى أن يثير العصبية في قريش ، وفي القبائل العربية عامة ، لعلمه بخطر هذه العصبية على الدعوة الجديدة ، وكرهته أن يصور الاسلام للعرب كأنه سيادة هاشمية تتوارثها عصبية هاشم دون العصب من سائر العرب والمسلمين . وقد رضي في سبيل هذا المقصد الحكيم ، أن يجعل بيت أبي سفيان صنواً<sup>(١)</sup> للكعبة في أمان اللاجئين اليه ، وأصهر الى أبي سفيان وندب ابنه معاوية للكتابة له بين النخبة المختارة من كاتبه ، وربما حسن لديه أن تتول الخلافة<sup>(٢)</sup> الى على بعده اذا شاء المسلمون ذلك ، ولكن على أن تكون خلافته اختياراً مرضياً كاختيار غيره من أنصاره وأصحابه ، ويستوى منهم القريب والبعيد

\*\*\*

ولم تكن الحكمة النبوية هي وحدها التي تأبى إثارة العصبية وتصوير الاسلام للعرب وللناس عامة في صورة السيادة الهاشمية ، بل كانت الدعوة كلها في صميم أصولها تأبى هذا الذي أبتة الحكمة النبوية وتجتنبه غاية ما في وسعها اجتنابه .. لأن الدعوة الاسلامية دعوة عالمية ، تشمل الأمم كافة من عرب الى عجم ومن مشرق الى مغرب ، وتقوم في أساسها على المساواة بين الناس ورد المفاضلة بينهم الى الأعمال والأخلاق دون الأحساب والأعراق<sup>(٣)</sup> . فليس من المعقول أن تسود العالم كله أسرة هاشمية ، ولا من المعقول أن يبنى الأساس على المساواة ، وأن يقام الحكم على هذا التفضيل ..

وان أحق الناس أن يفتن الى هذه الحكمة لهم أولئك الغلاة الذين زعموا ان وراثة الخلافة في بنى هاشم حكم من أحكام الله وضرورة من

(١) أي مماثلاً • (٢) آل : رجع • (٣) أي الاصول •

ضرورات الدين ..

فلو أنها كانت حكما من أحكام الله ، لكان أعجب شيء أن يموت النبي عليه السلام وليس له عقب من الذكور ، وأن يختم القرآن وليس فيه نص صريح على خلافة أحد من آل البيت ..

ولو أنها كانت ضرورة من ضرورات الدين ، أو ضرورات القضاء ، لنفذت في الدنيا كما ينفذ القضاء المبرم ، وحبطت كل خلافة تنازعها كما تحبط كل بدعة تناقض السنن الكونية ..

فلا النصوص الصريحة ، ولا دلالة الحوادث على الإرادة الإلهية ، مما يؤيد أقوال الغلاة عن ترجيح الخلافة بالقرابة ، أو حصر الخلافة في الأسرة الهاشمية ..

وهذا هو العائق الأول الذي حال بين علي<sup>(١)</sup> وبين الخلافة ولا قدرة له عليه ، وقد لحظه العرب ولحظته قريش خاصة ، وذكره الفاروق حين قال : « ان قريشا اختارت لنفسها فأبت أن تجمع لبني هاشم بين النبوة والخلافة » ..

### \*\*\*

ويرى بعض المؤرخين ، ان قريشا كانت تحقد على الامام وتنحيه عن الخلافة لعلة أخرى تقتزن بهذه العصبية التي أوقعت التنافس بين بيوتها وبين بني هاشم ، فقد بطش الامام بنفر من جلة البيوت القرشية في حروب المسلمين والمشركين ، وقتل من أعلام بني أمية وحدهم عتبة بن ربيعة جد معاوية ، والوليد بن عتبة خاله وحظلة أخاه ، وجميعهم من قتلاه في يوم بدر .. عدا من قتلهم في الوقائع والغزوات الأخرى ، فحفظ أقاربهم له هذه الترات بعد دخولهم في الاسلام ، وزادهم حقدا أنهم لا يملكون الثأر منه لقتلهم من الكفار . وكانت حاله بعد تلك المدة كما قال ابن أبي الحديد : « ... كأنها حاله لو أفضت الخلافة اليه يوم وفاة ابن عمه ، من اظهار ما في النفوس وهيجان ما في القلوب ، حتى الأخلاق<sup>(٢)</sup> من قريش والأحداث والفتيان الذين لم يشهدوا وقائعهم وفكاته في

(١) ولد . (٢) المحكم . (٣) بطلت . (٤) الاعقاب .

أسلافهم وآبائهم ، فعلوا به ما لو كانت الأسلاف أحياء لقصرت عن فعله»  
وقد علم الامام هذا من قريش ، عندما يتس من مودتها وابتلى  
بالصريح والدخيل من كيدها ، فقال : « .. ما لى ولقريش ؟ .. أما والله  
لقد قتلتهم كافرين ولأقتلهم مفتونين .. والله لأبقرن<sup>(١)</sup> الباطل حتى يظهر  
الحق من خاصرته .. فقل لقريش ، فلتضج ضجيجها »

\*\*\*

ولو أن قريشا وادعته فى سرها وجهرها ، ووقت بينه وبين منافسيه  
على الخلافة لأ تصده عنها ولا تدفعهم اليها ، لقد كانت تلك عقبة أى  
عقبة ..

فأما وهى تحاربه بعصبيتها وتحاربه بذحولها<sup>(٢)</sup> ، فتلك هى العقبة التى  
لا يذللها الا بحزب أقوى من حزب قريش بعد وفاة النبى صلوات الله  
عليه ، ولم يكن حزب قط أقوى يومئذ من قريش فى أرجاء الدولة  
الاسلامية بأسرها ..

ولقد سبق الامام الى الخلافة ثلاثة من شيوخ الصحابة هم : أبو بكر  
وعمر وعثمان ..

فاذا نظرنا الى عائق العصبية الذى قدمناه ، فلا نرى شيئا أقرب الى  
طبائع الأمور من سبق هؤلاء الثلاثة بأعيانهم<sup>(٣)</sup> الى ولاية الخلافة بعد النبى  
عليه السلام ، لأنهم أقرب الناس أن يختارهم المسلمون بعد خروج  
العصبية الهاشمية من مجال الترجيح والترشيح ..

فليس أقرب الى طبائع الأمور فى بلاد عربية اسلامية من اتجاه الأنظار  
الى مشيخة الاسلام فى السن والوجاهة والسابقة الدينية ، لاختيار  
الخليفة من بينها على السنة التى لم تتغير قط فى تواريخ العرب  
الأقدمين ، ولم يغيرها الاسلام بحكم العادة ولا بحكم الدين  
ولم يكن الامام عند وفاة النبى من مشيخة الصحابة التى تتول إليها  
الرئاسة بدهاء بين ذوى الأسنان ، ممن مارسوا الشورى والزعامة فى  
حياته عليه السلام .. لأنه كان يومئذ قتي يجاوز الثلاثين بقليل . وكان

(١) لأشمن . (٢) ذحولها : حقدتها وعداوتها ونأرها . (٣) أى أشخاصهم .

أبو بكر وعمر وعثمان قد لبثوا في جوار النبي بضع عشرة سنة قبل ظهور علي<sup>ؑ</sup> في الحياة العامة ، وهم يشيرون على النبي ويخدمون الدين ويجمعون الأنصار ويدان لهم بالتوقير والولاء ..

والعائق الذي قام بين علي<sup>ؑ</sup> وبين الخلافة هو في طريق هؤلاء الثلاثة السابقين تمهيد وتقريب ..

ونعني به عائق العصبية الهاشمية ..

لأن قريشا لا تنفس على بنى تيم ، ولا بنى عدى ، ولا بنى أمية ، في رئاسة عثمان خاصة .. كما تنفس على بنى هاشم ، اذ تجتمع لهم النبوة والخلافة ..

### \*\*\*

والامام نفسه لم يفته أن يدرك هذا بثاقب نظره ، حين قال وقد تجاوزته الخلافة للمرة الثالثة بعد موت الفاروق : « ان الناس ينظرون الى قريش ، وقريش تنظر الى بيتها فتقول : « ان ولى عليكم بنو هاشم لم تخرج منهم أبدا .. وما كانت في غيرها من قريش تداولتموها بينكم » وإذا اجتمع هذا العائق الى عائق السن والتوقير للمشيخة المقدمة ، فهما مبعدان للامام عن الخلافة بمقدار ما يقربان سواه ..

نعم ان فارق السن قد تقارب بعد موت الفاروق ، وبلغ الامام الحامسة والأربعين ، وسبقت له في المشورة سوابق ماثورات .. فأصبح الفارق بينه وبين من يكبرونه مزية تعين على العمل والجهد وتنفي مظنة الضعف والتواكل . ولكن الذي كسبه بهذه المزية خسر به بازدياد المطامع الدنيوية وبأس الرؤساء من الوف<sup>(١)</sup> والنعمة على يديه ، واعتقاد الطامعين أنهم أقرب الى بعض الأمل في لين عثمان وتقدم سنّه منهم الى أمل من الآمال في شدة الإمام وعسر حسابه ..

وبقيت الجفوة<sup>(٢)</sup> بينه وبين قريش على حالها ، لم يكفكف منها تقادم العهد كما قال ابن أبي الحديد ..

وعلى هذه الجفوة في القبيلة كلها ، دخلت في الأمر دخلة البواعث

(١) المراد بالوفر هنا : كثرة المال • (٢) الجفاء : نقيض الصلة •

الشخصية التي لا يسلم منها عمل من أعمال بنى الانسان في زمن من الأزمان .. فقد اجتمع رهط الشورى الذين ندبهم الفاروق لاختيار الخليفة من بعده ، فتقدم بينهم عبد الرحمن بن عوف فخلع نفسه من الأمر كله ليتاح له أن يستشير الناس باسمهم ويعلن البيعة على عهدتهم . وقيل : انه أنس مع الزبير وسعد بن أبي وقاص ميلا موقوتا الى عليؑ وانحرفا موقوتا عن عثمان ، فسارع الى المنبر وباع عثمان وجاراه الحاضرون مخافة الفتنة والشقاق ..

وكان عبد الرحمن بن عوف صهرا لعثمان ، لأنه زوج أخته لأمه أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط .

\*\*\*

ويقضى الحق أن يقال في هذا المقام : ان بيعة عثمان قد تمت باتفاق بين المسلمين لم ينقضه خلاف محدود ، فليست كلمة عبد الرحمن بن عوف هي التي خذلت عليا وقدمت عثمان عليه ، اذ لو كانت هناك مغالبة شديدة بين حزينين متكافئين لما استقامت البيعة لعثمان بكلمة من عبد الرحمن بن عوف .. وهو واحد من خمسة أو ستة اذا أشركنا معهم عبد الله بن عمر بن الخطاب ..

ثم بويح الامام بعد مقتل عثمان ، فهل تحولت قريش عن جفوتها ، أو نظرت الى السياسة الهاشمية نظرة غير نظرتها ؟

كلا . . .

بل جاءت البيعة في المدينة ، يوم خفت فيها صوت قريش ، وهبطت سمعة حكامها .. يوم أصبحت البيعة ثورة على قريش ، تنكر عليها الاثرة بالملك والاثرة بالغنائم والأمصار .. ويوم انقسم المجتمع الاسلامي قسميه اللذين التبسا وتداخلا حينما حتى فصلتهما الحوادث فصلها الحاسم في خلافة عثمان : قسم يريد الرجعة الى الخلافة والآداب النبوية ، وقسم يريد المضي في الملك والدولة الدنيوية ..

فأى القسمين ، كان قسم عليّ كائنا ما كان سعيه واجتهاده ؟ .. وأية سياسة كانت تعينه على مشكلة الخلافة منذ بدايتها بعد وفاة النبي الى ختامها الفاجع بعد مقتل عثمان ؟

كل سياسة له لم تكن لتحيد به عن الخاتمة المحتومة أقل محيد وكل ما كان من تدبير الحوادث أو من تديره ، فهو على هذا الملتقى الذى يتلاحق عنده الاسراع والابطاء ..

وعلى هذا ينبغى أن نرجع الى علة غير سياسة عليّ لتعليل العوائق التى قامت دون مبايعته بالخلافة قبل الصديق والفاروق وعثمان .. فهو غير مسئول عن نظرة العصبية التى نظرت بها قريش الى السيادة الهاشمية ..

وهو غير مسئول عن سنّته التى تأخرت به عن مشيخة الصحابة من ذوى السابقة فى الجهاد والزعامة والاصالة بين ذوى الأسنان والأخطار.. وهو غير مسئول عن الصفة العالمية التى جعلت تأسيس الاسلام على أسرة واحدة فى العالم كله أمرا ملحوظا بالتوجس والاحجام منذ اللحظة الأولى ..

نعم قد يسأل الامام عن علاقته بالناس وقدرته على تألفهم بالآمال والمجاملات ، ليأنسوا اليه ويرفعوا حجاب الجفوة بينهم وبينه ، ويؤثروه على غيره بالخلافة ، أملا فى بره واطمئنانا الى حفاوته ووده وقد يرد على بعض الخواطر ، ان سياسة الدولة الدنيوية أو سياسة الارضاء بالمنافع والوعود ، كانت أجدى<sup>(١)</sup> عليه من آداب الخلافة الدينية وأخلق بتمكينه أولا وآخرها بين قريش وقبائل العرب عامة ..

فهذا فى رأيهم مأخذ يرجع الى شخصه وأعماله ، ويسأل عنه كما يسأل الانسان عن عمله وتصريف ارادته وفكره . ولا يجوز أن نرجع به الى حكم الحوادث القاهرة ، وسلطان المصادفات التى لا قبل له بتبديلها ولكن الواقع ان هذه السياسة - سياسة المنافع الدنيوية - لم تكن لتجديه شيئا بعد وفاة النبي ، ولا بعد مقتل عثمان ..

(١) أي التخوف • (٢) أكثر فائدة ونفعا •

فبعد النبی علیه السلام ، لم تكن ذخائر الفتوح قد استنفذت في الأیدی وأنشأت في المجتمع الاسلامی طبقة مسموعة الصوت تحرص عليها وتستزيدها ..

فالذى يناضل في سبيل الحكم بسلاح هذه المنافع<sup>(١)</sup> ، انما كان يناضل بسلاح غير موجود .. بل كان يناضل سلاحا ماضيا ينهزم أمامه لا محالة وهو سلاح الحماسة الدينية التي غلبت في ضرباتها الأولى كل سلاح

أما بعد مقتل عثمان ، فأبعد الأمور عن التخيل أن يغلب على معاوية في سوق المنافع الدنيوية ، لأن معاوية قد أهب<sup>(٢)</sup> لها أهبتة قبل عشرين سنة ، وجمع لها أنصاره وكنز لها كنوزه في بلاد وادعة بين جند مطيع ولو توافرت لعلی<sup>(٣)</sup> مادة هذه السياسة ، لما توافر له أعوانها والمساعدون عليها .. فليس أقل نفعا في هذا المضمار من أعوانه الذين ثاروا على سياسة المنافع وباءوا<sup>(٤)</sup> من أجلها بدم خليفة ، واجتمعوا على التمرد قاصدين أو غير قاصدين .. فلا يديرون أنفسهم الى نهج كنهج معاوية ولو أرادوه وأغلب الظن ان علیا كان يخسر بهذه السياسة أولئك الذين أحبوه ، ولا يربح بها أولئك الذين أبغضوه ..

فقد حببته آداب الخلافة الى كل طبقة تكره استغلال الحكم ، ولا مطمع لها فيه .. فكل بلاد خلت من عصبة المرشحين للحكم ، فقد كانت من حزبه وشيعته بغير استثناء ، فكان من حزبه شعب اليمن ومصر وفارس والعراق ، ونشأت في اليمن — وقد عهدت حكمه قديما — تلك الطائفة السبئية التي غلت في حبه حتى ارتفعت به الى مرتبة التقديس ، وانتشرت في مصر وفارس بذور تلك الشيعة الفاطمية والامامية التي ظلت كامنة في تربتها حتى أخرجت شطأها بعد أجيال ، وشذت الشام لأنها كانت في يد معاوية ، وشذت أطراف من العراق أول الأمر لأنها كانت في يد طلحة والزبير ، ولم يشذ عن هذه القاعدة بلد من البلدان الاسلامية من أقصاها الى أقصاها .. فلولا ان سواد الناس لا يعملون بغير عصبة من القادة ، وان العصب من القادة كانوا كلما وجدوا في بقعة من

(١) أي قاطعا . (٢) أعد . (٣) أي رجعوا . (٤) من المغالة ، أي

تجاوزت الحد . (٥) شطء الزرع والنبات : فراخه ، وقال الاخنس : طرفه .



البقاع وجد معهم النفع والاستغلال . لقد كانت محبة أولئك السواد  
أنفع له من عصب معاوية أجمعين ..  
فأغلب الظن — كما أسلفنا — ان علياً كان يخسر هؤلاء باتباعه  
سياسة الدولة الدنيوية ، ولا يكسب العصب التي ناصبته العدا ،  
وأيقنت أنه حائل بينها وبين ما طمحت اليه من الصولة والثراء ..  
وهذا على تقدير المقدرين ان علياً يؤاخذ لاجتنابه هذه السياسة ،  
وانه لو اتبعها لكانت أجدى عليه ..  
وليست هي أجدى عليه لو اتبعها ، ولا هو على اجتنابها بعلوم ..  
وتفرض بنا هذه التقديرات جميعا الى نتيجة واضحة نلخصها في  
كلمات وجيزة ، ونعتقد انها أعدل الأقوال في وصف تلك السياسة التي  
كثرت فيها مطارح النقد والدفاع ..  
فسياسة علي<sup>(١)</sup> لم تورطه في غلطات كان يسهل عليه اجتنابها باتباع  
سياسة أخرى ..  
وهي كذلك لم تبلغه مأرب مستعصية ، كان يعز عليه بلوغها في  
موضعه الذي وضع فيه وعلى مجراه الذي جرى عليه ..  
فليست هي علة فشل منتزع ، ولا علة نجاح منتزع ، أو هي لا  
تستدعي الفشل من حيث لم يخلق ، ولا تستدعي النجاح من حيث لم  
يسلس<sup>(٢)</sup> له قياد ..  
ورأينا في سياسته فهما وعلم ، ولكننا لم نر فيها الحيلة العملية التي  
هي الى الغريزة أقرب منها الى الذكاء ..  
فكان نعم الخليفة ، لو صادف أوان<sup>(٣)</sup> الخلافة ..  
وكان نعم الملك لو جاء بعد توطيد<sup>(٤)</sup> الملك واستغنائه عن المساومة  
والاسفاف ..  
ولكنه لم يأت في أوان خلافة ولا في أوان ملك موطد ، فحمل  
أعباء النقيضين ، وأخفق حيث ينبغي أن يخفق أو حيث يعيبه أن ينجح ..  
وتلك آية الشهيد ..

(١) أي يسهل . (٢) أي قوي راسخ .

## حكومته

كانت الدولة الاسلامية الناشئة على شفا الخطر في ابان الفتنة<sup>(١)</sup> الداخلية بين عليٍّ ومعاوية .. ولكنها وقيت منه لأن عوامل الأمان الذي يحيط بها كانت أقوى من عوامل الخطر الذي يهددها .. وتتلخص عوامل الأمان في وقاين اثنين :

أحدهما ، ان الاسلام كان دعوة طبيعية تلقاها العالم وهو مستعد لها مستريح اليها ؛ فرسخت دعائمه وامتنعت حدوده بعد أعوام قليلة من ظهوره ، وسكن<sup>(٢)</sup> اليه الناس مؤمنين بدوام ظنه<sup>(٣)</sup> وشمول عدله ، سواء منهم من دخل فيه ومن أوى الى حكمه وهو باق على اعتقاده ..

وثانيهما ، ان أعداء الاسلام كانوا في شاغل عنه بما أصابهم من الوهن وأحرق بهم من المخاوف ، وربما صح في الفتنة الإسلامية يومئذ ما يصح في كثير من الطوارق التاريخية الكبرى ، وهي انها لن تكون شرا محضا في جميع عواقبها ، ولا تخلو من الخير على غير قصد من ذويها .. فان هذه الفتنة قد أغرت أعداء الاسلام بالانتظار ، وأوقعت في روعهم انهم غنيون عن التحفز والوثوب الذي يشق عليهم جهده ، وهم في تلك الحالة من الجهد والاعياء .. فقنعت دولة الروم بهجمات ضعيفة تلقاها معاوية بالجلد والاناة ، وألهى القوم عنه ببعض الإتاوات والنوافل .. فتراجعوا متربصين الى أن يقضى الخلاف بين المسلمين قضاءه ، وهم وادعون مكفيون شر القتال .. فكان هذا الانتظار الخادع جانبا من جوانب الخير في الفتنة الاسلامية التي فاضت يومئذ بالشروع

---

(١) أي حافة . (٢) أي اطمأن . (٣) يستعمل الظن بمعنى العلم .

—١٢١—

وعلى هذا انقضت أيام عليؑ ، وليس للحكومة الاسلامية سياسة خارجية تحسب من سياسة الفتوح ، أو سياسة الدفاع ، أو سياسة المفاوضة والاستطلاع ..

وكل ما يدور الكلام عليه عن حكومة عليؑ ، فهو من قبيل سياسة الحكم بينه وبين رعاياه ، أو هو السياسة الداخلية كما نسميها في العصر الحديث ..

\*\*\*

ومن اليسير أن نعرف سياسة الامام بينه وبين رعاياه ، بغير حاجة الى الاطالة في التعريف وسرد الأمثال ..

لأنها سياسة الرجل الذي شاء القدر أن يجعله فدية للخلافة الدينية في نضالها الأخير مع الدولة الدنيوية

فنحن نتخذ ما شئنا من طريقين متقابلين ، فإذا طريق عليؑ هي طريق الخلافة المنزهة ، حين تقابل الدولة الدنيوية مقابلة الخصم للخصم أو النقيض للنقيض ، أو هي أقرب الطريقين الى المساواة وأدناها الى رعاية الضعفاء ..

فالناس في الحقوق سواء ..

لا محابة لقوى ولا اجحاف بضعيف ، وقد عمد الى القطاعات التي وزعت قبله على المقرين والرؤساء ، فانتزعها من القابضين عليها وردّها الى مال المسلمين لتوزيعها بين من يستحقونها على سنة المساواة ، وقال : « والله لو وجدته قد تزوج به النساء وملك به الاماء لرددته ، فان في العدل سعة .. ومن ضاق عليه العدل فالجور عليه أضيق »

وفرض الرفق بالرعية على كل وال ، فلا ارهاق ولا استغلال ولو كانت الحكومة هي صاحبة الحق في المال

فمن وصاياه المكررة لولاته : « انصفوا الناس من أنفسكم واصبروا لحوائجهم فانهم خزان الرعية .. ولا تحسبوا أحدا عن حاجته ولا

تجسوه عن طلبته ، ولا تبعين للناس في الخراج كسوة شتاء ولا صيف ولا دابة يعتملون عليها ، ولا عبدا ، ولا تضربن أحدا سوطا لمكان درهم» ومن وصاياه في تحصيل الخراج والصدقات : « .. امض اليهم بالسكينة والوقار حتى تقوم بينهم فتسلم عليهم ، ولا تخدج<sup>(١)</sup> بالتحية لهم ، ثم تقول : عباد الله . أرسلنى اليكم ولى<sup>٢</sup> الله وخليفته لآخذ منكم حق الله في أموالكم ، فهل لله في أموالكم حق فتؤدوه الى وليه<sup>٣</sup> ؟ .. فان قال قائل : لا ، فلا تراجع .. وان أنعم لك منعم ، فانطلق معه من غير أن تخيفه وتتوعده أو تعسفه أو ترهقه ، فخذ ما أعطاك من ذهب أو فضة ، فان كان له ماشية أو ابل فلا تدخلها الا باذنه ، فان أكثرها له .. فاذا آتيتها فلا تدخل عليها دخول متسلط عليه ولا عنيف به .. ولا تنفرن بهيمة ولا تفزعها ، ولا تسوئن صاحبها فيها ، وأصدع المال صدعين ، ثم خيره ، فاذا اختار فلا تعرضن لما اختاره ، فلا تزال كذلك حتى يبقى ما فيه وفاء حق الله في ماله .. فاقبض حق الله منه ، فان استقالك فأقله .. »

وكان دستورہ في تحصيل الضرائب المفروضة على الناس ، ان النظر في عمارة الأرض أبلغ من النظر في استجلاب الضريبة ، فكان يكتب الى واليه : « تفقد أمر الخراج بما يصلح أهله .. فان في صلاحه وصلاحهم صلاحا لمن سواهم ، ولا صلاح لمن سواهم الا بهم .. لأن الناس كلهم عيال على الخراج وأهله وليكن نظرك في عمارة الأرض أبلغ من نظرك في استجلاب الخراج ، لأن ذلك لا يدرك الا بالعمارة ، ومن جلب الخراج بغير عمارة أخرج البلاد وأهلك العباد ، ولم يستقم أمره الا قليلا ، وانما يؤتى خراب الأرض من اعواز<sup>(٤)</sup> أهلها ، وانما يعوز أهلها اسراف الولاة على الجمع ، وسوء ظنهم بالبقاء وقلة انتفاعهم بالعبر .. »

أما دستورہ في الولاة والعمال ، فخلاصته ما كتب به الى الأشر النخعي يقول له : « انظر في أمور عمالك ، فاستعملهم اختبارا ولا تولهم محابة واثرة .. فانهم جماع من شعب الجور والحيانة ، وتوخ<sup>(٥)</sup> منهم أهل التجربة والحياء من أهل البيوتات الصالحة والقدم في الاسلام ، فانهم

(١) لا تخدج بالتحية : أي لا تلق التحية ناقصة . (٢) أي حاجة وفقير (٣) تمر

—١٢٣—

أكثر أخلاقا وأصح اعراضا وأقل في المطامع اسرافا ، وأبلغ في عواقب الأمور نظرا .. ثم أسبغ<sup>(١)</sup> عليهم الأرزاق ، فان ذلك قوة لهم على استصلاح أنفسهم ، وغنى لهم عن تناول ما تحت أيديهم ، وحجة عليهم ان خالفوا أمرك أو ثلموا<sup>(٢)</sup> أمانتك ، ثم تفقد أعمالهم وابعث العيون<sup>(٣)</sup> من أهل الصدق والعيون عليهم .. فان تعاهدك في السر لأموارهم حدوة لهم على استعمال الأمانة والرفق بالرعية »

وعلى هذه العناية باستطلاع أحوال الولاة والعمال ، كان ينهى أشد النهي عن كشف معائب الناس ، أو كما كان يقول في وصية ولاته : « وليكن أبعد رعييتك منك وأشأنهم<sup>(٤)</sup> عندك أطلبهم لمعائب الناس .. فان في الناس عيوباً ، الوالى أحق من سترها .. فلا تكشفن عما غاب عنك منها ، فانما عليك تطهير ما ظهر لك » .

وكان ينهى عن بطانة السوء مع حثه على اتخاذ العيون والجواسيس ، فقال في وصيته لمحمد بن أبى بكر : « لا تدخلن في مشورتك بخيلا يعدل بك عن الفضل ويعدك الفقر ، ولا جباناً يضعفك عن الأمور ، ولا حريصاً يزين لك الشره بالجور .. فان البخل والجبن والحرص غرائز شتى يجمعها سوء الظن بالله .. ان شر وزراءك من كان للأشرار قبلك وزيرا ، ومن شركهم في الآثام فلا يكونن لك بطانة ، فانهم أعوان الأئمة واخوان الظلمة ، وأنت واجد منهم خير الخلف ، ممن له مثل آرائهم ونفادهم .. وليس عليه مثل آصارهم<sup>(٥)</sup> وأوزارهم » ..

ولم ينكر قط شيئا من سياسة التولية ، ثم صنع مثله في عهده ، على كثرة الاغراء حوله باصطناع التقية والمداواة والهوادة قليلا مع الأقرباء وذوى الأخطار ..

ومن زعم غير ذلك ، من ناقديه في عصره أو بعد عصره ، فانما هو أخذ في المقارنة بالأشكال والحروف دون البواطن والغايات ..

اذ كان مما قيل مثلا ان علياً أقام عبد الله بن عباس على البصرة ، وعبيد الله بن العباس على اليمن ، ومحمد بن أبى بكر ابن زوجته على

(١) أتم . (٢) الثلمة : الخلل . (٣) أي الجواسيس . (٤) أبغضهم . (٥) غلبة الحرص . (٦) أي ذنوبهم .

مصر .. وهم أقرباؤه وخاصة أهله ، فهو اذن يصنع ما أنكره على حكومة عثمان من ايثار الأقرباء بالولايات واقصاء الآخرين عنها .. ولكنها كما قلنا مقارنة بالأشكال والحروف دون البواطن والغايات ، لأن المقارنة الصحيحة بين العاملين تسفر<sup>(١)</sup> عن فارق بعيد كالفارق بين النقيض والنقيض ..

فبنو هاشم لم يكن لهم متسع لعمل أو ولاية في غير حكومة الامام ، ولم يكن للامام معتمد على غيرهم بعد آن حاربه قريش ، وشاعت الفرقة والشغب بين أعوانه من أبناء الأمصار ..

وهم مع هذا لم يؤثروا بالولايات كلها ، ولم يؤثروا بالذى خصهم منها ليستغلوه ويجمعوا الثراء من غنائمه وأرزاقه .. بل كانوا يحاسبون على ما في أيديهم أعسر حساب ، وكانوا لتضييقه عليهم في المراقبة يتركون ولاياتهم ويستقيلون منها ، كما فعل ابن عباس حين هجر البصرة الى مكة ..

وقد بلغ من حسابه للولاة انه كان يحاسبهم على حضور الولايم التي لا يجمل بهم حضورها .. فكتب الى عثمان بن حنيف الانصاري عامله على البصرة : « أما بعد يا ابن حنيف ، فقد بلغنى ان رجلا من فتية أهل البصرة دعاك الى مأدبة .. فأسرعت اليها تستطاب لك الألوان وتنقل اليك الجفان<sup>(٢)</sup> .. وما ظننت انك تجيب الى طعام قوم عائلهم مجفو وغنيهم مدعو ، فانظر الى ما تقضيه من هذا المقضم .. فما اشتبه عليك علمه فالفظه وما أيقنت بطيب وجوهه فنل منه » .

واستكثر على شريح قاضيه أن يبنى دارا بشمانين دينارا ، وهو يرزق خمسمائة درهم .. وحاسب على أقل من هذا من هو أقل من شريح أمانة في القضاء وحرجا في الدين ..

فلو أن الامام اختص أقرباءه بالولايات التي يحاسبون عليها هذا الحاسب ، لما كان في اختصاصه اياهم مستبجح حق ولا مستبجح مال .. فكيف وهو لا يختصهم الا بالقليل منها ، ولا يختصهم وله مئذوحة<sup>(٣)</sup>

(١) ي تقضح وتكشف • (٢) جمع جفنة وهي : القصعة • (٣) أي سبعة •

عنهم ، أو يختصهم وهم دون غيرهم في القدرة والأمانة ؟  
 فالمقارنة هنا مقارنة أشكال وحروف ، وكل ما توحى الى الناقد بها  
 أنه يذكر الأقرباء هنا والأقرباء هناك ..  
 وقد انقسمت طريق الخلافة ، وطريق الدولة الدينيوية في كل أمر من  
 الأمور على عهد الامام ولم تنقسم في مسألة الولاية أو مسألة الاستغلال وكفى  
 وأكبر ما يذكر من انقسام الطريقين في عهده قيام الفكرة العالمية الى  
 جانب العصبية بالقبيلة أو بالوحدة الوطنية ..  
 فالدولة الدينيوية تشد ازرها بالعصبية الجنسية ، والخلافة الدينية  
 تشد ازرها بالأخاء بين الشعوب وبطلان الفوارق بين الأجناس ..  
 وقد كانت القبيلة من أنصار الامام ، تقاتل القبيلة من أنصار معاوية  
 في سبيل الرأي والعقيدة ..  
 وكان أنصار الامام أبدا من الفرس والمغاربة والمصريين أكثر من  
 أنصاره بين قريش خاصة ، وبين بنى هاشم على الأخص ، وبين قبائل  
 العرب على التعميم ..  
 وهذا الامتزاج بين الفكرة العالمية وبين إمامة عليٍّ أو خلافته ، هو  
 أقطع الأدلة على الوحدة بين أوانه وأوان الخلافة .. فإذا ذهب هذا  
 وجب أن يذهب ذاك ، أيا كانت السياسة المتوخاة ، وبالغا ما بلغ نصيبها  
 من السداد والصواب ..  
 ولنا أن نعمم هذا الحكم الانساني في كل شأن من شئون الحكومة ،  
 قضى به عليٌّ في عهده أو عهود الخلفاء من قبله ..  
 فالروح الانساني هو قوام الحكومة الامامية ، كما ينبغي أن يكون ،  
 وهو قوامها كما كانت على يديه جهد الطاقة الآدمية .. وهي طاقة لها  
 ما لها من حدود ..  
 جىء الى عمر بن الخطاب بامرأة زانية يشتبه في حملها ، فاستفتى  
 الامام .. فأفتى بوجوب الإبقاء عليها حتى تضع جنينها ، وقال له : « ان  
 كان لك سلطان عليها ، فلا سلطان لك على ما في بطنها » .

(١) الأزر : القوة • (٢) أي المقصودة • (٣) قوام الامر : نظامه وعماده •

وانتزع امرأة من أيدي الموكلين باقامة الحد عليها .. وسأله عمر فقال : « أما سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول : رفع القلم عن ثلاثة : عن النائم حتى يستيقظ ، وعن الصغير حتى يكبر ، وعن المبتلى حتى يعقل ؟ » قال : « بلى » قال : « فهذه مبتلاة بنى فلان .. فلعله أتاها وهو بها » قال عمر : « لا أدري » قال : « وأنا لا أدري » فترك رجمها للشك في عقلها ..

وأتى عمر بامرأة أجهدا العطش ، فمرّت على راع فاستسقته .. فأبى أن يسقيها الا أن تمكنه من نفسها .. ففعلت ، فشاور الناس في رجمها ، فقال علي : « هذه مضطرة الى ذلك .. فخلّ سبيلها »

وهذه أمثلة قليلة من أمثلة كثيرة في القصص وتفسير الشريعة .. الا انه قد حاذ عن هذه السنّة<sup>(١)</sup> في أمر واحد خالفه فيه بعض فقهاء عصره ، ومنهم ابن عمه عبد الله بن عباس

وذلك هو احراقه الروافض الذين عبدوه ووصفوه بصفات الآلهة ، وأبوا أن يتوبوا عن ضلالتهم مرة بعد مرة ، وقيل : انهم أصروا على عنادهم وهم يحرقون .. فاتخذوا من تعذيبه لهم بالنار دليلا على أنه هو الاله المعبود .. اذ لا يعذب بالنار الا الله

فهؤلاء المفسدون المفتونون ، قد استحقوا عقوبة الموت بقضاء الشريعة وقضاء الدولة التي لا يقوم لها نظام على هذه الضلالة .. ولكن الاحراق بالنار صرامة لا توجبها ضرورة العقاب ، وليس في اجتنابها خطر على الشريعة ، ولا على النظام ..

انما شفيع الامام في هذه الصرامة انه كان هو المستهدف لتلك الضلالة ، وهو مظنة الريبة في الهوادة فيها .. فهو ينزه عدله عن كل ظن حيث تظن بالهوادة جميع الظنون ، وقد أحرق الذين ألّهوه .. ونهى عن قتال الخوارج الذين حكموا بكفره ، الا أن يفسدوا في الأرض أو يبدؤوا بالعدوان على برىء . وفي هذا الانصاف بين مؤلّيه ومكفريه شفاعة من تلك الصرامة في العقاب .

(١) مال وعدل . (٢) أي الطريقة .



وكان الامام يذكر أبدا في حكومته ان الحقوق العامة لها شأن لا ينسى مع حقوق الأفراد ..

ومن ذلك ما نقله الطبرى عن بعض الأسانيد ، حيث قال : « رأيت عليا عليه السلام خارجا من همدان ، فرأى فتين يقتتلان ففرق بينهما .. ثم مضى فسمع صوتا : يا غوثا بالله فخرج يحضر نحوه حتى سمعت خفق نعله ، وهو يقول : « أتاك الغوث .. » فاذا رجل يلازم رجلا ، فقال : « يا أمير المؤمنين .. بعت هذا ثوبا بتسعة دراهم وشرطت عليه ألا يعطينى مغموزا ولا مقطوعا ، فأتيته بهذه الدراهم ليبدلها لى فأبى فلزمته فلفظنى » فقال : « ابدله » ثم قال : « بينتك على اللطمة » فأثام بالبينة .. قال : « دونك فاقترض » قال : « انى قد عفوت يا أمير المؤمنين » قال : « انما أردت أن أحتاط فى حقك » .. ثم ضرب الرجل تسع درات ، وقال : « هذا حق السلطان » .

وكان يكرر هذا الحكم فى كل ما شابهه من أمثال هذا العدوان ، وهو أشبه المذاهب بمذهب الحكومات العصرية فى القصاص ويقال الكثير عن مناهج الامام فى الحكومة وسياسة الرعية مما يغنى فيه هذا الاجمال عن التوسع فى التفصيل ..

ولكن الذى لا ينسى فى سياق الكلام عن الامامة والدعوة العالمية ، انه رضى الله عنه كان أول من خرج بالعاصمة من المدينة الى أرض غير أرض الحجاز ، وهو الحجازى سليل<sup>(١)</sup> الحجازيين .. وقد اختار الكوفة ، فكانت أوفق عاصمة للامامة العالمية فى تلك المرحلة من مراحل الدولة الاسلامية ..

لأنها كانت ملتقى الشعوب من جميع الأجناس ، وكانت مثابة التجارة بين الهند وفارس واليمن والعراق والشام ، وكانت العاصمة الثقافية التى ترعرت فيها مدارس الكتابة واللغة والقراءات والأنساب والأفانين الشعرية والروايات .. فهى أليق العواصم فى ذلك العصر بحكومة امام ، وما زالت الامامة لاحقة بعلي<sup>(٢)</sup> ومحيطه به حيث تحول وحيث أقام ..

(١) أي معبيا . (٢) الابن والابنة .

## النبي والامام والصحابة

أحاديث النبي عليه السلام في فضل عليٍّ ومحبته متواترة في كتب الحديث المشهورة .. منها ما انفرد به ، وهو حديث الخيمة الذي رواه الصديق رضي الله عنه حيث قال : « رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم خيم خيمة ، وهو متكئ على قوس عريضة ، وفي الخيمة علي وفاطمة والحسن والحسين ، فقال : معشر المسلمين .. أنا سلم لمن سالم أهل الخيمة ، حرب لمن حاربهم ، ولي لمن والاهم ، لا يجبههم الا سعيد الجد طيب المولد ، ولا يبغضهم الا شقي الجد رديء الولادة »  
ومنها ما اشترك فيه وغيره ، وهو الذي روته السيدة عائشة حيث سئلت : « أى الناس أحب الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ .. قالت : فاطمة ! .. فقيل : من الرجال ؟ .. قالت : زوجها .. ان كان ما علمت صواما قواما »<sup>(١)</sup>.

وقد روى حديث في هذا المعنى ، حيث سئل رسول الله عن أحب الناس اليه ، فقال : « من النساء عائشة ، ومن الرجال أبوها » ولا تناقض بين الحديثين ، اذ كانت السيدة عائشة هي التي تروى الحديث الأول ، وتخرج من كلامها كما يخرج المتكلم من عموم كلامه ، أو كانت تروى عن أقرباء النبي من لحمه ودمه ، فتقول ما تعلم عن غيرها وهذان نموذجان من الأحاديث النبوية في فضل عليٍّ ومحبته ومنزلته عند الله ونبيّه ، وهي تعد بالعشرات

وأصحاب المذاهب يختلفون في تأويل هذه الأحاديث ، وفي أسانيدها ، ويوجهونها حيث اتجهوا من التشيع للامام أو التشيع عليه .. وهو شرح طويل لا يهمننا منه هنا أن ننصر فيه فريقا على فريق ، أو نرجح مذهبا

---

(١) أي كثير الصيام والصلاة .

على مذهب . . اذ ليس فهم الامام موقوفا على تغليب أى الفريقين وتعزير أى المذهبين ، وفهم الامام على حقيقته النفسية والتاريخية هو كل ما نعنيه ..

فهما يختلف الرواة فى تأويل الأحاديث ، فالذى يسعك أن تجزم به من وراء اختلافهم ، ان عليا كان من أحب الناس الى النبى ، ان لم يكن أحبهم اليه على الإطلاق ..

لقد كان النبى عليه السلام يغمر بالحلب كل من أحاط به من الغرباء والأقربين .. فأى عجب أن يخص بالحلب من بينهم انسافا ، كان ابن عمه الذى كفله وحماه ، وكان ربيبه الذى أوشك أن يتبناه ، وكان زوج ابنته العزيزة عنده ، وكان بديله فى الفراش ليلة الهجرة التى همّ المشركون فيها بقتل من يبيت فى فراشه . وكان نصيره الذى أبلى أحسن البلاء فى جميع غزواته ، وتلميذه الذى علم من فقه الدين ما لم يعلمه ناشئ فى سنّته ؟ ..

حب النبى لهذا الانسان حقيقة لا حاجة بها الى تأويل الرواة ولا الى تفسير النصوص ، لأنها حقيقة طبيعية ، أو حقيقة بديهية قائمة من وراء كل خلاف ..

ومما لا خلاف فيه كذلك ، انه عليه السلام كان لا يكتفى بحبه اياه .. بل كان يسره ويرضيه أن يحبّه الى الناس ، وكان يسوؤه ويغضبه أن يسمع من يكرهه ويجفوه ..

بعث رسول الله عليا فى سرية ليقبض الخمس ، فاصطفى منه سبية ، واتفق أربعة من شهود السرية أن يبلغوا ذلك الى رسول الله . وكان المسلمون اذا قدموا من سفر بدءوا بالرسول ، فسلموا عليه وأبلغوه ما عندهم ، ثم انصرفوا الى رحالهم .. فقام أحد الأربعة وحدث الرسول بما رأى فأعرض عنه ، وظن أصحابه أنه لم يسمعه .. فتناوبوا الحديث واحدا بعد واحد فى معنى كلامه . فلما فرغ الرابع من حديثه أقبل عليه رسول الله وقد تغير وجهه فقال : « ما تريدون من على ؟ .. ما تريدون

من عليّ؟ .. ما تريدون من عليّ؟ .. عليّ منى وأنا منه وهو ولى كل مؤمن بعدى» وقال لأحدهم فى روايات أخرى : «أتبغض عليّا؟» قال : «نعم!» قال : « لا تبغضه ، فإن له فى الخمس أكثر من ذلك ، أى أكثر من السبية التى اصطفاها .. لا تبغضه ، وإن كنت تحبه فازدد له حبا »

\*\*\*

وبعث رسول الله عليّا الى اليمن ، فسأله جماعة من أتباعه أن يركبهم ابل الصدقة ليريحوا ابلهم ، فأبى.. فشكوه الى رسول الله بعد رجعتهم . وتولى شكايتهم سعد بن مالك بن الشهيد ، فقال : « يا رسول الله .. لقينا من عليّ من الغلظة وسوء الصحبة والتضييق .. » ومضى يعدد ما لقيه ، حتى اذا كان فى وسط كلامه ضرب رسول الله على فخذه ، وهتف به : « ياسعد بن مالك بن الشهيد ، بعض قولك لأخيك عليّ؟ فوالله لقد علمت انه جيش فى سبيل الله »

وشكا بعض الناس مثل هذه الشكوى ، فقام رسول الله فيهم خطيبا يقول لهم : « أيها الناس .. لا تشكوا عليّا ، فوالله انه لجيش فى ذات الله » ..

ويلوح<sup>(١)</sup> لنا أن النبى عليه السلام كان يجب عليّا ويحببه الى الناس ، ليمهد له سبيل الخلافة فى وقت من الأوقات ، ولكن على أن يختاره الناس طواعية<sup>(٢)</sup> وجبا .. لا أن يكون اختياره من حقوق العصية الهاشمية ، فانه عليه السلام قد اتقى هذه العصية جهد اتقائه ، ولم يحذر خطرا على الدين أشد من حذره أن يحسبها الناس سبيلا الى الملك والدولة فى بنى هاشم ، وقد حرم نفسه الشريفة حظوظ الدنيا وأقصى<sup>(٣)</sup> معظم بنى هاشم عن الولاية والعمالة لينفى هذه الظنة .. ويدع الحكم للناس يختارون من يرضونه له بالرأى والمشئّة ..

فالتزم فى التمهيد لعليّ وسائل ملموحة لا تتعدى التدريب والكفالة الى التقديم والوكالة ، أرسله فى سرية الى فدك لغزو قبيلة بنى سعد اليهودية ، وأرسله الى اليمن للدعوة الى الاسلام ، وأرسله الى منى

(١). يظهر . (٢) أى غير مكرهين . (٣) أبعد .

ليقرأ على الناس سورة براءة ، ويبين لهم حكم الدين في حج المشركين  
وزيارة بيت الله ، وأقامه على المدينة حين خرج المسلمون الى غزوة  
تبوك .. ولم يفته مع هذا كله أن يلصح الجفوة بينه وبين الناس ، وأن  
يكله الى السن تعمل عملها مع الأيام ، ويكلهم في شأنه الى ما ارتضوه ،  
عسى أن تسنح<sup>(١)</sup> الفرصة لمزيد من الألفة بينهم وبينه ..  
هذه فيما نعتقد أصح علاقة يتخيلها العقل ، وتنبئ عنها الحوادث  
بين النبي وابن عمه العظيم ..

\*\*\*

وربما كانت أصح العلاقات المعقولة لأنها هي وحدها العلاقة الممكنة  
المأمولة ، وكل ما عداها فهو بعيد من الامكان بعده من الأمان  
فهو يحبه ويمهد له وينظر الى غده ، ويسره أن يحبه الناس كما  
أحبه ، وأن يحين الحين الذي يكلون فيه أمورهم اليه ..  
وكل ما عدا ذلك ، فليس بالممكن وليس بالمعقول ..  
ليس بالممكن أن يكره له التقدير والكرامة ..  
وليس بالممكن أن يحبها له ، وينسى في سبيل هذا الحب حكمته  
الصالحة للدين والخلافة ..

واذا كان قد رأى الحكمة في استخلافه ، فليس بالممكن أن يرى ذلك  
ثم لا يجهر به في مرض الوفاة أو بعد حجة الوداع ..  
واذا كان قد جهر به ، فليس بالممكن أن يتألب أصحابه على كتمان  
وصيته وعصيان أمره . انهم لا يريدون ذلك مخلصين ، وانهم ان أرادوه  
لا يستطيعونه بين جماعة المسلمين ، وانهم ان استطاعوه لا يخفى شأنه  
ببرهان مبين ، ولو بعد حين ..

فكل أولئك ليس بالممكن ، وليس بالمعقول ..  
وانما الممكن والمعقول هو الذي كان ، وهو الحب والايثار ، والتمهيد  
لأوانه ، حتى يقبله المسلمون ويتهيأ له الزمان  
أما العلاقة بين علي<sup>٢</sup> وسائر الصحابة من الخلفاء وغير الخلفاء ، فهي

(١) يسلمه ويتركه . (٢) تتاح وتتهيأ .

علاقة الزمالة المرعية والتنافس الذى يشوب الى الصبر والتجمل والتقية..  
فليس فيما لدينا من الأخبار والملاحم ما يدل على ألفة حميمة بينه  
وبين أحد من الصحابة المشهورين ، وليس فيها كذلك ما يدل على عداوة  
وبغضاء .. بل ليس فى أخباره جميعا ما يدل على طبيعة تحقد على  
الناس ، وان دلت أحيانا على طبيعة يحقد الناس عليها ويفرطون

فمن المعلوم أن عليا كان يرى انه أحق بالخلافة من سابقه ، وانه  
لم يزل مدفوعا عن حقه هذا منذ انتقل النبى عليه السلام الى الرفيق  
الأعلى . واحتج المهاجرون على الأنصار فى أمر الخلافة بالقرابة منه  
صلوات الله عليه . قال : « ولما احتج المهاجرون على الأنصار يوم  
السقيفة برسول الله صلى الله عليه وسلم فلجوا (١) عليهم .. فان يكن  
الفلج به فالحق لنا دونكم ، وان بغيره فالأنصار على دعواهم »

كذلك كان رأيه فى الخلافة يوم بويع بها الصديق ، ثم بويع بها  
الفاروق ، ثم بويع بها عثمان ..

وجاءت قضية الارث بعد قضية الخلافة فى أوائل عهد الصديق ،  
فباعدت الفرجة بين القلوب ، وأطالت العزلة بين الأصحاب .. وخلاصة  
هذه القضية ، ان فاطمة والعباس رضى الله عنهما طلبا ميراثهما فى أرض  
فدك وسهم خيبر ، فذكر لهما الصديق حديث النبى عن ارث الأنبياء ،  
ونصه فى روايته : « نحن معاشر الأنبياء ، لا نورث .. ما تركناه فهو  
صدقة .. انما يأكل آل محمد من هذا المال »

فغضبت فاطمة ، ولم تكلمه حتى ماتت .. ودفنها علي ليلا ، ولم يؤذن  
بها أبا بكر .. وقيل ان عليا تخلف عن البيعة ستة أشهر الى ما بعد  
وفاتها . ثم أرسل الى أبى بكر أن ائتنا ولا يأتنا معك أحد .. وتلقاه  
وعنده بنو هاشم ، فقال : « انه لم يمنعنا من أن نبايعك يا أبا بكر  
انكار لفصيلتك ، ولا نقاسة عليك بخير ساقه الله اليك ، ولكننا كنا  
نرى أن لنا فى هذا الأمر حقا فاستبددتم به علينا »

(١) فلجوا : أي انتصروا عليهم .

ومع هذا اليقين الراسخ عنده في حقه وحق غيره ، نرجع الى سيرته وأحاديثه .. فنرى ولا ريب انها أقل ما تشعر به النفس الإنسانية في هذه الحالة من النفرة والنقمة ، ولا نجد في خطبه ومساجلاته<sup>(١)</sup> التي ذكر فيها الخلفاء السابقين كلمة تستغرب من مثله ، أو يتجاوز بها حد الحجة التي تنهض بحقه .. بل الغريب انه لزم هذا الحد ولم يجاوزه الى جمحة غضب تفلت معها بواحد اللسان ، ولو جاوزه لكان عاذروه أصدق من لائمه..!

\*\*\*

وقد أعان أسلافه الثلاثة برأيه وعمله ، وجاملهم مجاملة الكريم بمسلكه ومقاله . ولم ييدر منه قط ما ينم على كراهية وضغن مكتوم .. ولكنه كان يأنف أن ينكر هذه الكراهية اذا رمى بها كما يأنف العزيز الكريم . وفي ذلك يقول من خطاب الى معاوية : « ذكرت ابطائي عن الخلفاء وحسدى اياهم والبغى عليهم ، فأما البغى فمعاذ الله أن يكون ، وأما الكراهية لهم فوالله ما أعتذر للناس من ذلك »

وأولى أن يقال ان دلائل وفائه في حياتهم ، وبعد ذهابهم ، كانت أظهر من دلائل جفائه . فانه احتضن ابن أبى بكر محمدا وكفله بالرعاية ورشحه للولاية ، حتى حسب عليه وانطلقت الألسنة بانتقاده من أجله ، وقد سمى ثلاثة من أبنائه بأسماء الخلفاء الذين سبقوه ، وهم : أبو بكر ، وعمر ، وعثمان ..

ويخطيء جدا من يتخذ فتواه في مقتل الهرمزان دليلا على كراهيته لعمر أو نقمة منه في أبنائه .. فقد أسرع عبيد الله بن عمر الى الهرمزان ، فقتله انتقاما لأبيه ، ولم ينتظر حكم ولى الأمر فيه ولا أن تقوم البيعة القاطعة عليه . فلما استفتى في هذه القضية أفتى بالقصاص منه ، ولم يغير رأيه حين تغير رأى عثمان ، فأعفاه من جريمة<sup>(٢)</sup> عمله .. لأنه هو الرأى الذى استمده من حكم الشريعة كما اعتقده وتحراه ، وبهذا الرأى دان قاتله عبد الرحمن بن ملجم ، فأوصى وكرر الوصاية ألا يقتلوا أحدا غيره لمظنة المشاركة بينه وبين رفقاءه في التآمر عليه

(١) أي مناظراته . (٢) الجريمة : الذنب والجناية .

وانك لن تجد انسانا أعرف بالعهد ، ولا أصون له ممن يتذكره في حومه الحرب ، ويرى ان التذكير به ينزع السلاح من الأيدي ، ويعود بالخصمين المتناجين<sup>(١)</sup> الى الصفاء والأخاء ..

فما حارب على عدوا له سابقة مودة به الا أن يذكره بتلك السابقة ، ويستنجد بالصدقة الأولى فيه على العداوة الحاضرة .. ومن ذلك موقفه مع الزبير وطلحة في وقعة الجمل ، وهما ملجان في حربه وانكار بيعته ..

فخرج حاسرا<sup>(٢)</sup> لا يحمي بدرع ولا سلاح ، ونادى :

يا زبير ، اخرج الى .. فخرج اليه شاكا في السلاح ، وسمعت السيدة عائشة فصاحت : وا حرباه ! .. اذ كان خصم علي مقضيا عليه بالموت كائنا ما كان حظه من الشجاعة والخبرة بالنضال

فلما تقابل علي والزبير اعتنقا ، وعاد علي يسأله : « ويحك يا زبير ما الذي أخرجك ؟ .. »

قال : « دم عثمان »

قال : « قتل الله أولانا بدم عثمان »

وجعل يذكره عهوده وعهود رسول الله ، ومنها مقالة النبي : « والله ستقاتله وأنت له ظالم »

فاستغفر الزبير وقال : « لو ذكرتها ما خرجت »

ولما وقف على جثة طلحة بكى أحر بكاء ، وجعل يمسح التراب عن وجهه وهو يقول : « عزيز علي أن أراك أبا محمد مجندلا تحت نجوم السماء » وتمنى لو قبضه الله قبل هذا اليوم بعشرين سنة ..

والمودة عند فارس كعلي عهد محفوظ وموثق مذكور ، ان فاتها ان تكون حنان قلب أو ألفة شعور

ويخيل اليها انه لم يرزق قط صداقة الالقاء الذين يرعاهم ويرعونه لأنه يحبه ويحبونه ، ولكنه عامل الناس وعاملوه على سنّة العهود وديدن<sup>(٣)</sup>

(١) حومة الشيء : معظمه ، أو أشد موضع فيه . (٢) المتقاتلين .

(٣) الحاسر : من لا يغفر له ولا درع ، أو لا حنة له . (٤) طريقة .



الفروسية ، فلم تزل بينه وبينهم لئاءة الى سلاح مغمد أو سلاح مشهور  
ومثل علي لا يرزق صداقة الالفاء ، لأنه من أصحاب المزايا التي  
تغرى بالمنافسة أو بالحسد ولا تحميها المنافع ولا المسائرة والمداراة<sup>(١)</sup>  
فهو شجاع ، عالم ، بليغ ، ذكي ، موصل النسب بأعرق الارومات..  
فان لم يحسد هذا ، فمن يحسد ؟ ..

وان حسد ، فما الذي يفل<sup>(٢)</sup> من غرب<sup>(٣)</sup> حاسديه ؟ .. وما الذي يقى<sup>(٤)</sup>  
بهم الى القصد<sup>(٥)</sup> في عدائه والتأليب عليه ؟ ..

انهم يستبعدون يومه في الامارة والسلطان ، واذا استقربوا يومه في  
الامارة والسلطان فلا مطمع لهم في النفع على يديه وهو قوام بالقسط  
على الأموال والحقوق ، فنصيبه اذن منهم نصيب المحسود الذي لا رجاء  
له في هودة من حاسديه ، وليس أحقد من الناس على صاحب عظمة لم  
يطمعوا في نفعه ولم يزالوا على طمع في النفع من خصومه ، وبليته بهم  
أكبر وأدهى حين لا يصطنع الدهان<sup>(٦)</sup> ولا يعمد معهم الى الختل<sup>(٧)</sup> والروغان..  
وعلى انه لو داهنهم وراوغهم لما اغتفروا له ذنب العظمة التي لا تحميها  
حماية من طمع أو نكاية ، أو كما قال الحكيم الغربي : « ان نسى انه  
أسد لم ينسوا أنهم كلاب »

وهكذا فترضت على الرجل العظيم ضريبة العظمة الغريبة في ديارها  
وبين آلهما وأنصارها ..

فالعلاقة بينه وبين كرام الصحابة ، كانت علاقة الزمالة التي يتوب  
فيها الواجب مناب الالفه ..

والعلاقة بينه وبين الخصوم ، كانت علاقة حسد غير مكفوف ، وبغض  
غير مكتوم ..

والعلاقة بينه وبين سواد العامة ، كانت علاقة غرباء يجهلونه ولا  
ينفذون الى لبابه ، وان قاربه اناس معجبين ، وباعده أناس نافرين ..  
وتلك أيضا آية الشهيد ..

(١) جمع أرومة ، وهي : الاصل . (٢) فله وفلله : ثلمه . (٣) من  
معاني الغرب : حد الشيء ، والحدة ، والتمادي . (٤) يرجع . (٥) عدم  
الاسراف . (٦) النفاق . (٧) الخداع .

## ثقافته

السنة الخلق أقلام الحق ..  
كلمة سائغة<sup>(١)</sup> ليس أصدق منها ان صدقت ، وهى صدق فى كثير من  
الأحيان ..

ونحن نعلم صدقها الأصيل حين نسمع الكلمة من هذه الكلمات التى  
ينقلها لسان عن لسان ويتلقاها جيل عن جيل ، فيخيل إلينا أنها خاطر  
عابر يسمع ويستملح ويشفع له القدم .. فنقبله كرامة له كما تقبل الثمين  
والغث<sup>(٢)</sup> أحيانا من وقار المشيب ، ولكنه بعد كل هذا لا يثبت على النقد  
ولا يصبر على مراجعة العلم والقياس ، ثم نعرضه اتفاقا على العلم  
والقياس .. فإذا به قد احتل من النقد العسير ما ليست تحتمله آراء  
العلماء وقضايا الحكماء ، وإذا بالخطأ فى هذه القولة الشائعة أو فى هذا

اللقب المرتجل أقل من كل خطأ يحصى على كلام مخلوق ..  
من هذه الألقاب الشائعة ، لقب الامام الذى اختص به علي<sup>٣</sup> بين جميع  
الخلفاء الراشدين ، والذى يطلق اذا أطلق فلا ينصرف الى أحد غيره ،  
بين جميع الأئمة الذين وسموا بهذه السمة من سابقه ولاحقه ..

ولم وليس هو بفرد فى الامامة بجملة معانيها ؟ ..  
ألم يكن الصديق اماما كعلي<sup>٣</sup> ؟ .. ألم يكن الفاروق اماما كعلي<sup>٣</sup> ؟ ..  
ألم يكن عثمان اماما كعلي<sup>٣</sup> ؟ .. ألم يكونوا خلفاء راشدين اذا قصدت  
الخلافة الراشدة بعد النبوة ؟ ..  
يلى كانوا أئمة مثله ، وسبقوه فى الامامة ..

---

(١) أي مقبولة مستساغة . (٢) الغث من اللحم : المهزول ، ومن  
الكلام : الرديء الفاسد .

ولكن الامامة يومئذ كانت وحدها في ميدان الحكم بغير منازع ولا شريك ، ولم يكتب لأحد منهم أن يحمل علم الامامة ليناضل به علم الدولة الدنيوية ، ولا أن يتحيز بعسكر يقابله عسكر ، وصفة تناوئها<sup>(١)</sup> صفة ، ولا أن يصبح رمزا للخلافة يقتزن بها ولا يقتزن بشيء غيرها .. فكلهم امام حيث لا اشتباه ولا التباس ، ولكن الامام بغير تعقيب ولا تذييل هو الامام كلما وقع الاشتباه والالتباس ..

وذاك هو عليّ بن أبي طالب ، كما لقبه الناس وجرى لقبه على الألسنة .. فعرفه به الطفل وهو يسمع أماديحه المنعومة في الطرقات ، بغير حاجة الى تسمية أو تعريف ..



وخاصة أخرى من خواص الامامة ، ينفرد بها عليّ ولا يجاريه فيها امام غيره ، وهي اتصاله بكل مذهب من مذاهب الفرق الاسلامية منذ وجدت في صدر الاسلام ، فهو منشئ هذه الفرق أو قطبها الذي تدور عليه . وندرت فرقة في الاسلام لم يكن عليّ معلما لها منذ نشأتها ، أو لم يكن موضوعا لها ومحورا لمباحثها ، تقول فيه وترد على قائلين وقد اتصلت الحلقات بينه وبين علماء الكلام والتوحيد ، كما اتصلت الحلقات بينه وبين علماء الفقه والشريعة ، وعلماء الأدب والبلاغة .. فهو أستاذ هؤلاء جميعا بالسند الموصول ..

أما الفرق التي جعلته موضوعا لها ومحورا لمباحثها ، فحسبك أن تذكر الخوارج والروافض والشيعة والناصبين وأهل السنة ، فتكون قد ذكرت جميع الفرق الاسلامية بلا استثناء أو باستثناء جد يسير وهنا تشتبك الفروع وتتأشب<sup>(٢)</sup> الأفانين ، فترى الفرقة الواحدة مزيجا من التصوف والسياسة ، كالباطنية على اختلافها .. وقد تتراعى بها الفروع حتى تصل الى القائلين بمذهب الباب أو مذهب البهاء ، وهم طرف مقطوع أو موصول ، من بعض تلك الأصول .. فالامام أحق لقب به ، وهو أحق الأئمة بلقب الامام ! ..

(١) تعاديا . (٢) أي تختلط .

ولقد كانت له آية من آيات الشهداء في كثير من صفاته ، وكثير من معارض حياته ، وطوارئ أوقاته ..  
وكانت له في الامامة آية أخرى من هذه الآيات ..  
فآية الشهداء أنهم يخسون<sup>(١)</sup> حقهم في الحياة ، ثم يعطون فوق حقوقهم بعد الممات ..

أو هم يعرضون لنا عجائب الدنيا في اقبالها وادبارها ، كما قال الامام رضى الله عنه : « انها اذا أدبرت عن انسان سلبته محاسن نفسه ، واذا أقبلت عليه أعارته محاسن غيره »

وكذلك اتفق للامام في صفة الامامة ، كما اتفق له في معظم الصفات ..  
فقل أن سمعنا بعلم من العلوم الاسلامية أو العلوم القديمة لم ينسب اليه ، وقل أن تحدث الناس بفضل لم ينحلوه<sup>(٢)</sup> اياه ، وقل أن توجه الثناء بالعلم الى أحد من الأوائل الا كانت له مساهمة فيه ..  
نحلوه ديوانا من الشعر فيه عشرات من القصائد ، وليس بينها الا عشرات من الأبيات تصح نسبتها اليه ..

ونحلوه علما سموه علم « الجفر » وزعموا انه علم النجوم والازياج الذى يكشف عن حوادث الغيب الى آخر الزمان  
ونحلوه مقامات تخلو من أشيع الحروف في الكلمات وهو حرف الألف ، ولا يعقل أن تظهر أشباه هذه المقامات قبل عصر الصناعة في أيام العباسيين وما تلاها ..

ونحلوه من مصطلحات علم الكلام أقوالا لم تعرف ، ولا يعقل أن تعرف قبل ترجمة المفردات الاغريقية بما لها من غرائب النحت والاشتقاق  
وبعض ما نحلوه يزيده قدرا ويرفعه شأننا ، الا تصح نسبته اليه .. !  
وبعض ما بقى له غير مشكوك فيه ولا مختلف عليه .. كاف لتعظيم قدره واثبات امامته في عصره ، وبعد عصره

وعندنا انه رضى الله عنه كان ينظم الشعر ويحسن النظر فيه ، وكان تقده للشعراء فقد عليم بصير ، يعرف اختلاف مذاهب القول واختلاف

(١) ينقصون • (٢) يعطوه •

وجوه المقابلة والتفضيل على حسب المذاهب ، ومن بصره بوجوه المقابلة بينهم انه سئل : « من أشعر الناس ؟ » قال : « ان القوم لم يجروا في حلقة تعرف الغاية عند قصبتها .. فان كان ولا يد فالملك<sup>(١)</sup> الضليل<sup>(٢)</sup> »  
وهذا فيما نعتقد أول تقسيم لمقاييس الشعر على حسب « المدارس »  
والإغراض الشعرية بين العرب . فلا تكون المقابلة الا بين أشباه وأمثال ولا يكون التعميم بالتفضيل الا على التغليب

لكنه رضى الله عنه لم يرزق ملكة الاجادة في شعره ، والنبي عليه السلام يرى ذلك حيث سألوه أن يأذن لعلي في هجاء المشركين فقال : « ليس بذلك » .. وأحالهم الى حسان بن ثابت ، وندب له من يصره بمثالب<sup>(٣)</sup> القوم ..

وكل شعره الذى رجحت نسبته اليه من قبيل هذه الأبيات التى وصف بها قبيلة همدان فى وقعة صفين :

ولما رأيت الخيل ترجم بالقنا<sup>(٤)</sup> فوارسها حمر النحور دوام  
وأعرض تقع<sup>(٥)</sup> فى السماء كأنه عجاجة<sup>(٦)</sup> دجن<sup>(٧)</sup> ملبس بقتام<sup>(٨)</sup>  
ونادى ابن هند فى الكلاع وحمير وكندة فى لحم وحى جذام  
تيممت همدان الذين هم هم اذا ناب دهر جنتى<sup>(٩)</sup> وسهامى  
فجاوبنى من خيل همدان عصابة فوارس من همدان غير لثام  
فخاضوا لظاها واستطاروا شرارها وكانوا لدى الهيجا<sup>(١٠)</sup> كشرب مدام  
فلو كنت رضوانا على باب جنة لقلت لهمدان : ادخلوا بسلام  
أو من قبيل هذه الأبيات :

محمد النبى أخى وصهرى وحمة سيد الشهداء عمى  
وجعفر الذى يمسى ويضحى يطير مع الملائكة ابن أمى  
وبنت محمد سكنى وعرسى منوط لحما بدى ولحمى  
وسبطا<sup>(١١)</sup> أحمد ولدائى منها فأيكم له سهم كسهمى

(١) أي امرؤ القيس . (٢) أي عيوب . (٣) بالرماح . (٤) غبر .  
(٥) دخان . (٦) الدجن : الباس الغيم السماء . (٧) الغبار . (٨) وقايتي .  
(٩) الحرب . (١٠) ولد الولد .

سبقتكم الى الاسلام طرا صغيرا<sup>(١)</sup> ما بلغت أوان حلمي  
وصليت الصلاة وكنت فردا فمن ذا يدعى يوما كيومي  
وقد نظم شعرا ولا ريب ، كما يدل سؤالهم النبي عليه السلام أن  
يأذن له في هجاء من هجاهم ، ولم ينسب اليه شعر .. صح أو لم يصح ،  
أجود مما قدمناه . وليس فيه ما يسلكه بين المجودين من الشعراء ، أو  
يلحق بطبقته<sup>(٢)</sup> بين الكتاب والخطباء ..



أما كتاب الجفر أو علم الجفر ، فالقول الفصل فيه أقرب من القول  
الفصل في جميع ما نحلوه وأضافوا اليه .. فمثل علي<sup>٣</sup> في تقواه وفضله ،  
لا يشتغل بعلم مزعوم هو السحر القديم بعينه ، وليس هو مما يليق  
بورعه ولا ذكائه . وقد نهى وشدد النهى عن تعلم النجوم واستطلاع  
الغيب بأمثال هذه العلوم ، ومن المحقق الذي لا خلجة فيه من الشك  
عندنا أن النبوءات التي جاءت في نهج البلاغة عن الحجاج بن يوسف  
وفتنة الزنج وغارات التتار وما اليها ، هي من مدخول الكلام عليه ..  
ومما أضافه النساخ الى الكتاب بعد وقوع تلك الحوادث بزمن قصير  
أو طويل ..

ولا نجزم مثل هذا الجزم في أمر المقامات التي خلت من بعض  
الحروف ، لأن العقل لا يمنعها قطعا كما يمنع استطلاع الغيب المفصل من  
ازياج النجوم ، ولكننا نستبعد جدا أن تكون هذه المقامات من كلام  
الامام لاختلاف الأسلوب واختلاف الزمن ، وحاجة النسبة هنا الى  
سند أقوى من السند الميسر لنا بكثير

وكذلك نستبعد انه قال لكاتبه ليظهر علمه بغريب اللغة : « الصق  
روافك بالجبوب وخذ المزبر بشناترك واجعل حندورتك الى قيلى  
حتى لا أنقى نفية الا أودعتها بحماطة حلجلانك »

أى « الصق مقعدك بالأرض وخذ القلم بما بين أصابعك واجعل عينيك  
الى وجهى حتى لا ألفظ بلفظة الا وعيتها في سواد قلبك »

(١) جميعا . (٢) طبقته : منزلته ومكانته .

فان الولع باظهار العلم بالغريب بدعة لم تعرف في صدر الاسلام ، ولم يلتفت الناس الى ادعائها الا بعد استعجام العرب وندرة العارفين ومثل هذا ، ما نسبوه اليه حيث زعموا انه قال : « ماتر بعلبت قط » أى ما شربت اللبن يوم الأربعاء ، و « ما تسبتسمكت قط » أى ما أكلت السمك يوم السبت « وما تسرولقمت قط » أى ما لبست السراويل قائما .. الى أشباه هذه المخترعات التى تستغرب لفظا ومعنى واعتقادا من رجل كالامام فى صدر الاسلام

\*\*\*

الا ائنا نسقطها جميعا ، فلا نسقط بها فضلا ترجح به موازين الامام فى حساب الثقافة .. بل نحسبها فضلا - ان شئنا - ونسقطها فيبقى له بعدها السهم الراجح فى تلك الموازين .. تبقى له الهداية الأولى فى التوحيد الاسلامى ، والقضاء الاسلامى ، والفقه الاسلامى ، وعلم النحو العربى ، وفن الكتابة العربية .. مما يجوز لنا أن نسميه أساسا صالحا لموسوعة المعارف الاسلامية فى جميع العصور ، أو يجوز لنا أن نسميه موسوعة المعارف الاسلامية كلها فى الصدر الأول من الاسلام .. وتبقى له مع هذا فرائد الحكمة التى تسجل له فى ثقافة الأمة الاسلامية ، على تباين<sup>(١)</sup> العصور ..

ففى كتاب نهج البلاغة ، فيض من آيات التوحيد والحكمة الالهية تتسع به دراسة كل مشغل بالعقائد وأصول التأليه وحكمة التوحيد وربما تشكك الباحث فى نسبة بعضها الى الامام لغلبة الصيغة الفلسفية عليها وامتزاجها بالآراء والمصطلحات التى اقتبست بعد ذلك من ترجمة الكتب الاغريقية والأعجمية ، ولا سيما الكلام على الأضداد والطبائع والعدم والحدود والصفات والموصوفات ، ولكن الذى يقرؤه الباحث ولا يشك فى نسبته الى الامام أو فى جواز نسبته اليه ، قسط واف لتحقيق رأى القائلين بسبق الامام فى مضمار علم الكلام ، واعتراف

(١) أى اختلاف .

المعترفين له بالاستاذية الرشيدة لكل من لحق به من أصحاب الآراء والمقولات . وهو على جملته خير ما يعرف به المؤمن ربه وينزه به الخالق في كماله ، ومن أمثلته قوله : « الحمد لله الذي لم يسبق له حال حالا ، فيكون أولا قبل أن يكون آخرًا ، ويكون ظاهرا قبل أن يكون باطنا ، كل مسمى بالوحدة غيره قليل ، وكل عزيز غيره ذليل ، وكل قوى غيره ضعيف ، وكل مالك غيره مملوك ، وكل عالم غيره متعلم ، وكل قادر غيره يقدر ويعجز ، وكل سميع غيره يصم عن لطيف الأصوات ، ويصمه كبيرها ، ويذهب عنه ما بعد عنها ، وكل بصير غيره يعمى عن خفى الألوان ولطيف الأجسام ، وكل ظاهر غيره باطن ، وكل باطن غيره ظاهر ، لم يخلق ما خلقه لتشديد سلطان ولا تخوف من عواقب زمان ، ولا استعانة على من شاور ، ولا شريك مكاثر ، ولا ضد منافر ، ولكن خلائق مربوبون وعباد داخرون — أى ضارعون — لم يحل في الأشياء فيقال هو فيها كائن ، ولم ينأ عنها فيقال هو منها بائن ، لم يؤده خلق ما ابتدأ ولا تدير ما ذرأ<sup>(١)</sup> ، ولا وقف به عجز عما خلق ، ولا ولجت عليه شبهة فيما مضى وقدر ، بل قضاء متقن ، وعلم محكم وأمر مبرم<sup>(٢)</sup> . »

أما القضاء والفقه ، فالمشهور عنه انه كان أقضى أهل زمانه وأعلمهم بالفقه والشرعية .. أو لم يكن بينهم من هو أقضى منه وأفقه وأقدر على اخراج الأحكام من القرآن والحديث والعرف المأثور . وكان عمر ابن الخطاب يقول كلما استعظم مسألة من مسائل القضاء العويصة<sup>(٣)</sup> ، قضية ولا أبا حسن لها : لأنه كان في هذه المسائل يتجاوز التفسير الى التشريع ، كلما وجب الاجتهاد بالرأى الصائب والقياس الصحيح ..

وفي أخباره ، ما يدل على علمه بأدوات الفقه كعلمه بنصوصه وأحكامه .. ومن هذه الأدوات علم الحساب الذي كانت معرفته به أكثر من معرفة فقيهه يتصرف في معضلات المواريث ، لأنه كان سريع الفطنة الى حيله التي كانت تعد في ذلك الزمن ألغازا تكذ<sup>(٤)</sup> في حلها العقول ، فيقال : ان امرأة جاءت اليه وشكت اليه أن أخاها مات عن ستمائة دينار ، ولم

(١) خلق . (٢) أي دخلت . (٣) أبرم الامر : أحكمه . (٤) أي الصعبة

الحل . (٥) تتعب .



يقسم لها من ميراثه غير دينار واحد .. فقال لها : لعله ترك زوجة وابنتين وأما واثني عشر أخا وأنت ؟ .. فكان كما قال .

وسئل يوما في أثناء الخطبة عن ميت ترك زوجة وأبوين وابنتين . فأجاب من فوره : صار ثمنها تسعا . وسميت هذه الفريضة بالفريضة المنبرية ، لأنه أفتى بها وهو على منبر الكوفة ..

وفي هذه الاجابات ، دليل على الذكاء وسرعة البديهة .. فضلا عن الدلالة الظاهرة على العلم بالمواريث والحساب ..

واذا قيل في قضائه انه لم يكن أقضى منه بين أهل زمانه ، صح أن يقال في علم النحو انه لم يكن أحد أوفر سهماً<sup>(١)</sup> في انشاء هذا العلم من سهمه . وقد تواتر أن أبا الأسود الدؤلي شكاه اليه شيوع اللحن على ألسنة العرب ، فقال له : أكتب ما أملئ عليك ، ثم أملاه أصولاً منها : ان كلام العرب يتركب من اسم وفعل وحرف ، فالاسم ما أنبأ عن المسمى ، والفعل ما أنبأ عن حركة المسمى ، والحرف ما أنبأ عن معنى ليس باسم ولا فعل .. وان الأشياء ثلاثة : ظاهر ، ومضمر ، وشيء ليس بظاهر ولا مضمر .. وانما تتفاوت العلماء في معرفة ما ليس بظاهر ولا مضمر .. يعنى اسم الاشارة على قول بعض النحاة ، ثم قال لأبى الأسود : انح هذا النحو يا أبا الأسود .. فعرف العلم باسم النحو من يومها

وهذه رواية تخالفها روايات شتى تستند الى المقابلة بين اللغات الأخرى في اشتقاق أصولها النحوية ، ولا سيما السريانية واليونانية .. ولكن الروايات العربية لا تنتهى بنا الى مصدر أرجح من هذا المصدر ، وغيرها من الروايات الأجنبية والفروض العلمية لا يمنع عقلا أن يكون الامام أول من استنبط الأصول الأولى لعلم النحو العربى من مذاكرة العلماء بهذه الأصول بين أبناء الأمم التى تغشى الكوفة وحواضر العراق والشام ، وهم هنالك غير قليل ، ولا سيما السريان الذين سبقوا الى تدوين نحوهم ، وفيه مشابهة كبيرة لنحو اللغة العربية

وليس الامام على أول من كتب الرسائل ، وألقى العظات ، وأطال

(١) أوفر سهما : أكثر حظا .

الخطب على المنابر في الأمة الاسلامية ..

ولكنه ولا ريب أول من عالج هذه الفنون معالجة أديب ، وأول من أضفى<sup>(١)</sup> عليها صبغة الانشاء الذي يقتدى به في الأساليب .. لأن الذين سبقوه كانوا يصوغون كلامهم صياغة مبلغين لا صياغة منشئين ، ويقصدون الى أداء ما أرادوه ولا يقصدون الى فن الأداء وصناعة التعبير، ولكن الامام عليا تعلم الكتابة صغيرا ودرس الكلام البليغ من روايات الألسن وتدوين الأوراق ، وانتظر بالبلاغة حتى خرجت من طور البدهة الأولى الى طور التفنن والتجويد.. فاستقام له أسلوب مطبوع مصنوع ، هو فيما نرى أول أساليب الانشاء الفني في اللغة العربية ، وأول أسلوب ظهرت فيه آثار دراسة القرآن والاستفادة من قدوته وسياقه ، وتأتى له بسليقته<sup>(٢)</sup> الأدبية أن يأخذ من فحولة البداوة ومن تهذيب الحضارة ، ومن أنماط التفكير الجديد الذي أبدعته المعرفة الدينية والثقافة الاسلامية .. فديوانه الذي سمي « نهج البلاغة » أحق ديوان بهذه التسمية بين كتب العربية ، واشتماله على جزء مشكوك فيه لا يمنع اشتماله على جزء صحيح النسبة اليه صحيح الدلالة على أسلوبه ، وربما كانت دلالة الأخلاق والمزاج فيه أقوى وأقرب الى الاقتناع من دلالة الأسانيد التاريخية ، لأن طابع « الشخصية العلوية » فيه ظاهر من وراء السطور ومن ثنايا الحروف ، يوحى اليك حيثما وغيته أنك تسمع الامام ولا تسمع أحدا غير الامام ، ويعز عليك أن تلمح فيه غرابة بين صاحب التاريخ وصاحب الكلام ..

على اننا نبالغ ما نبالغ في تمحيص المنحول وغير المنحول من أقوال الامام ومن فنون ثقافته العامة ، ثم تبقى لنا بقية تسمح لنا — بل توجب علينا — أن نسأل : كيف يتسنى العلم بهذا لأى كان من الناس في مثل ذلك الزمان ؟ ..

والسؤال لا بد منه ، ولا نظن قارئاً من قراء تاريخ الامام لم يخطر هذا السؤال بباله ولم يرد على لسانه

(١) أضفى : أسبغ • (٢) سليقته : أي طبيعته •

—١٤٥—

ولكن لابد معه من تصحيح الباعث<sup>(١)</sup> عليه لتصحيح الجواب عنه بعد ذلك ..

فالباعث عليه أننا نبالغ في تجريد البداوة العربية من الصلات المعقولة بالثقافة العالمية ، سواء كانت من ثقافة العلم والدرس أو ثقافة التواتر والتلقين ..

لكن البداوة العربية لم تكن في الواقع معزولة عن ثقافة الأمم المحيطة بها تلك العزلة التي تخطر لنا للوهلة الأولى ، فقد كانت على اتصال بعقائد الهند وفارس والروم ، وكانت للمعارف الانسانية أشعتها التي تتخلل الجزيرة العربية من قديم العصور

وحسبنا من أمثلة ذلك ، مثال واحد في معسكر الامام نفسه يغنى عن الأمثلة من قبيله ..

وذلك هو مثال عبد الله بن سبأ المشهور بابن السوداء ، وهو يهودى ابن زنجية مولود في بلاد اليمن ، ومذهبه الذى اشتهر به هو مذهب الرجعة الذى يجمع فيه بين قول اليهود بظهور المنتقد من أبناء داود ، وقول أهل الهند بظهور الاله الذى يتقمص جسم انسان ، وقول النصارى بظهور المسيح ، وقول أهل فارس بتقديس الأوصياء من أقرباء الملوك والأمراء ..

فهذه عقيدة لا تظهر من رجل عمنى من أهل الجزيرة ، اذا تخيلنا أن الجزيرة في حضارتها أو بداوتها بمعزل عن ثقافات الهند والفرس والروم وبنى اسرائيل ، وأن الأمة العربية تخلو من أناس سمعوا بالعقائد والفلسفات من طريق القدوة الدينية ، أو طريق المحاكاة الاجتماعية ، أو طريق الدراسة والسماع ..

وقد كانت عاصمة الامام في الكوفة<sup>(٢)</sup> وكانت مثابة الغادين والرائحين من أبناء الحضارات المعروفة في العالم بأسره ، ومن المسلمين الذين عاشوا بها أو بجوارها أناس كانوا ينظرون في كتب الفرس ويمجبون بحكمتها كما جاء في سيرة عمر بن الخطاب ، ومنهم من كان

(١) أي الدافع (٢) المثابة : الموضع الذي يرجع اليه مرة بعد أخرى .

ينظر في النجوم على طريقة الفرس والروم ، وحذر بعض هؤلاء الامام أن يسير الى حرب الخوارج في طالع كوكب من الكواكب المنحوسة ، فقال له : « أتزعم أنك تهدي الى الساعة التي من سار فيها صرف عنه السوء ؟ » فمن صدق بهذا فقد كذب القرآن ، واستغنى عن الاستعانة بالله في نيل المحبوب ودفع المكروه ..

\*\*\*

ثم أقبل على الناس بالنصح والموعظة ، قائلاً : « اياكم وتعلم النجوم ، الا ما يهتدى به في بر أو بحر .. فانها تدعو الى الكهانة ، والمنجم كالكاهن ، والكاهن كالساحر ، والساحر كالكافر ، والكافر في النار ! » وقد لبث على بن أبي طالب زهاء ثلاثين سنة منقطعاً أو يكاد ينقطع عن جهاد الحكم والسياسة ، متفرغاً أو يكاد يتفرغ لفنون البحث والدراسة .. يتأمل كل ما سمع ، ويراجع كل ما قرأ ، ويعرف كل ما يعرف ، ممن يلقاه ، ويستطلع أنباءه وآراءه وقضاياه .. فمهما يكن قسط الثقافة العالمية قليلاً في بلاد الاسلام على تلك الأيام .. ففيه ولا ريب الكفاية للعقل اليقظان والبصيرة الواعية أن تفهم ما قد فهمه الامام ، وأن يثبت ما أثبتته نهج البلاغة من الخواطر والأحكام .. على أن هذه الفنون من الثقافة — أو جلتها<sup>(١)</sup> — انما تعظم بالقياس الى عصرها والجهود التي بذلت في بدايتها

فحصه الامام من علم النحو — مثلاً — عظيمة لأن الابتداء بها أصعب من تحصيل المجلدات الضخام التي دونها النحاة بعد تقدم العلم وتكاثر الناظرين فيه ..

\*\*\*

وهكذا يقال في الحساب والمسائل العلمية التي من قبيله ، فلا يجوز لنا أن نقيسها بمقياس العصر الحاضر .. وهي في ابتدائها أصعب جداً منها في أطوارها التي لحقت بها بعد نمائها واستفاضة البحث فيها .. أما فن الثقافة الذي يقاس بمقياس كل زمن ، فاذا هو عظيم في جميع

(١) أي معظمها .

—١٤٧—

هذه المقاييس ، قليل الفوارق بين البدايات منه والنهايات ، فذلك هو فن الكلم الجامعة أو فرائد الحكمة التي قلنا أننا نسجل له في ثقافة الأمم عامة كما نسجل له في ثقافة الأمة الإسلامية ، على تباين العصور فالكلم الجوامع التي رويت للامام طراز لا يفوقه طراز في حكمة السلوك على أسلوب الأمثال السائرة

وقد قال النبي عليه السلام : « علماء أمتي كأنبياء بنى اسرائيل »

فهذا الحديث الشريف أصدق ما يكون على الامام علي في حكمته التي تقارن بحكم أولئك الأنبياء ..

فهي من طراز الحكم الماثورة عن أشهر أولئك الأنبياء بالمثل السائر وهو سليمان بن داود .

\*\*\*

ويزيد عليها أنها أبدع في التعبير ، وأوفر نصيبا من ذوق الجمال ، كقوله مثلا : « نفس المرء خطاه الى أجله » .. أو قوله : « من يعط باليد القصيرة يعط باليد الطويلة » .. أو قوله : « المرء مخبوء تحت لسانه » أو قوله : « الحلم عشيرة » .. أو قوله : « من لان عوده كنفث أغصانه » أو قوله : « كل وعاء يضيق بما جعل فيه الا وعاء العلم فانه يتسع » الى أشباه هذه التعبيرات الحسان التي تحار فيها أى مزاياها أفضل وأقوم : صدق المعنى ، أو بلاغة الأداء ، أو جودة الصناعة ..

وبعض أقواله ينضح بدلائل « الشخصية » التي تلازم صاحب الفن الأصيل ، فتلبس معانيه لباسا من خوالج نفسه وأحداث زمانه ، كما قال : « صواب الرأى بالدول . يقبل باقبالها ويذهب بذهابها » أو كما قال : « ما أكثر العبر وأقل الاعتبار » .. أو كما قال : « شاركوا الذى أقبل عليه الرزق فانه أخلق للغنى وأجدر باقبال الحظ عليه » .. أو كما قال : « اذا هبت أمرا فقع فيه ، فان شدة توقيه أعظم مما تخاف منه » .. أو كما قال : « لا يقيم أمر الله سبحانه الا من لا يصانع ولا يضارع ولا يتبع المطامع » ..

وله عدا هذه الحكم التي تلونت بألوان نفسه أو ألوان زمانه ، حكم كثيرة تصدر من كل قائل يقدر عليها ، وتنفذ الى كل سامع يظن لها كقوله : « كل معدود منقض وكل متوقع آت » أو قوله : « اذا كثرت القدرة قلت الشهوة » أو قوله : « أفضل الأعمال ما أكرهت نفسك عليه » .. أو قوله : « من نصب نفسه للناس اماما ، فليبدأ بتعليم نفسه قبل تعليم غيره .. وليكن تأديبه بسيرته قبل تأديبه بلسانه ، ومعلم نفسه ومؤدبها أحق بالاجلال من معلم الناس ومؤدبهم » أو قوله : « الفقيه كل الفقيه من لم يقتط الناس من رحمة الله ولم يؤثسهم من روح الله ، ولم يؤمنهم من مكر الله » .. أو قوله : « قيمة كل امرئ ما يحسنه » أو قوله : « العاقل هو الذى يضع الشئ مواضعه » أو قوله : « الصبر صبران : « صبر على ما تكره ، وصبر على ما تحب » أو قوله : « من ملك استأثر » أو قوله : « الناس أعداء ما جهلوا » .. أو قوله : « القرابة الى المودة أحوج من المودة الى القرابة » ..

وله فى المواقف المرتجلة كلمات هى أشبه الكلمات بأسلوب الحكمة السائرة .. فلما خرج وحده لبعض المهام التى تردد فيها أنصاره ، قالوا له يشيرون الى أعدائه : « يا أمير المؤمنين نحن نكفيكم » فقال : « ما تكفوننى أنفسكم فكيف تكفوننى غيركم ؟ .. ان كانت الرعايا قبلنى لتشكو حيف رعاتها ، واننى اليوم لأشكو حيف رعيتى ، كأنتى المقود وهم القادة ، أو الموزوع وهم الوزعة<sup>(١)</sup> » ورثى محمدا بن أبى بكر حين بلغه مقتله على أيدي أصحاب معاوية فقال : « ان حزننا عليه قدر سرورهم به ، الا أنهم نقصوا بغيضا ونقصنا حبيا » ..

فكل نعط من أنماط كلامه ، شاهد له بالملكة الموهوبة فى قدرة الوعي وقدرة التعبير .. فهو ولا شك من أبناء آدم الذين علموا الأساء وأوتوا الحكمة ، وفصل الخطاب

وقد أخطأ « موير » Moyer المؤرخ الانجليزى حين قال : ان عليا

(١) أي ظلم . (٢) جمع وازع ، وهو من يتقدم الصف فيصلحه ، ويقدم ويؤخر .

—١٤٩—

حكيم كسليمان ، وهو مثله حكمته لغيره .. يعنى أنه ينصح الناس ولا ينتفع بالنصيحة ، فان « موير » أحسن<sup>(١)</sup> أن يفرق بين عمل الانسان بنصحه وبين انتفاعه بنصحه . ولا شك أن علياً كان من العاملين بما يقولون ومن المتصحين بما ينصح به الناس . أما انه ينتفع بحكمته ، فالطبيب لا يقدح<sup>(٢)</sup> في علمه أنه قد أعياه علاج نفسه بطبه .. فقد يكون الاخفاق من استعصاء الداء لا من صحة الدواء .

ولا يفوتنا ان بعض هذه النصائح ، قد نسب الى قالة من الأوائل غير الامام رضى الله عنه ، وهذا يستطرد بنا مرة أخرى الى الصحيح والمنحول من كلام الامام الذى جمعه الشريف الرضى فى « نهج البلاغة » وفرغ من جمعه بعد مقتله بزهاء أربعة قرون ، وهو بحث يخرج بنا من موضوع هذا الكتاب الى دراسة أدبية ليست من أغراضنا الخاصة فى التعريف بعبقريّة الامام .. فحسبنا أن أسلوب الامام معروف فى بعض ما ثبت له من رسائله وخطبه ، وان طابع هذا الأسلوب شائع فى الكتاب لا تقدر فيه كلمة ظاهرة التلقيق هنا أو كلمة ظاهرة الاحكام هناك ، أو كلمات يقع فيها الالتباس لاختلاف الصناعة أو اختلاف التفكير . فنحن لا نخطئ أن نرى فى هذه الخطب والرسائل والأمثال وحدة تتصل حيناً ، وتنقطع حيناً ، كالوحدة التى نراها بغير انقطاع فى كتب الجاحظ وابن المقفع وعبد الحميد .. وهذه الوحدة وحدها مغنية لنا فى تبيان ثقافة الامام ، أو تذوق أسلوبه الذى لا تخطئ فيه مرة جزالة البادية وصقل الحضارة وحسن البداهة وامتزاج الصناعة بالطبع الذى لا تكلف فيه ..

ولا يتم القول فى ثقافة الامام علي رضى الله عنه ، ما لم تنمى بالقول فى نصيبه من الثقافة العسكرية أو فن الحرب ، الذى هو مضماره<sup>(٣)</sup> الأول ومناطق شهرته التى تبرز فيها صفة الشجاعة قبل كل صفة ، وكفاءة المناضل قبل كل كفاءة ..

فجيلة ما يقال فى هذا الصدد ، أن فن الامام العسكري هو فن

(١) أي أجدر . (٢) يطعن . (٣) أي استعصى عليه . (٤) المضمار :

الموضع تضمر فيه الخيل ، وغاية الفرس في السباق .

البطل المغوار الذي يناضل الأفراد وينفع الجيش الذي هو فيه بقودة الشجاعة واذكاء الحماسة وتعزيز الثقة بين صفوفه ، وانه يعرف كيف يكون الهجوم حيث يجب الهجوم ، وكيف يحتال علي عدوه بما يخلع قلبه ويفت في عضده<sup>(٦)</sup> .. ومن حيله المشهورة في توهين<sup>(٧)</sup> عزم عدوه ، انه أمر بعقر الجمل في الوقعة المعروفة باسمه ، لأنه كان علم القوم الذين كانوا يلتفون به ويثبتون بثبوتهم ..

وهذا كله فن البطل المغوار الذي يفرق العسكريون بينه وبين خطط القيادة وفنون التعبئة وتحريك الجيوش ..

ولم يرد لنا من أبناء الامام في هذا الباب ما نحكم به على قيادته العسكرية بهذا الاعتبار ..

نعم .. انه كان يقسم جيشه الى ميمنة وميسرة وقلب وطليلة ومؤخرة ، وأشباه ذلك من التقسيمات التي جرى عليها في وقعة صفين على التخصيص ..

وكانت له وصاياه المحفوظة في تسيير الجيوش وتأديب الجند ومعاملتهم لسكان البلاد ، ومنها قوله : « اذا نزلتم بعدو أو نزل بكم ، فليكن معسكركم من قبل الاشراف وسفاح الجبال ، أو أثناء الأنهار ، كيما يكون لكم رداء ودونكم ردا ، ولتكن مقاتلتكم من وجه واحد أو اثنين ، واجعلوا لكم رقباء في صياصي<sup>(٨)</sup> الجبال ومناكب الهضاب ، لئلا يأتيكم العدو من مكان مخافة أو أمن ، واعلموا أن مقدمة القوم عيونهم ، وعيون المقدمة طلائعهم ، واياكم والتفرق فاذا نزلتم فانزلوا جميعا واذا ارتحلتم فارتحلوا جميعا ، واذا غشيتكم الليل فاجعلوا الرماح كفة — أى محيطه بكم — ولا تذوقوا النوم الا غارا أو مضمضة ..

ومنها قوله : « ولا تسر أول الليل ، فان الله جعله سكنا وقدره مقاما لا ظعنا<sup>(٩)</sup> » ومنها قوله للولاء : « انى سيرت جنودا هى مارة بكم ان شاء الله ، وقد أوصيتهم بما يجب لله عليهم من كف الأذى وصرف

(١) أي اشعالها • (٢) أي يضعف في قوته • (٣) أي تضعيف • (٤) أي الاماكن المرتفعة • (٥) الحصون • (٦) الظعن : السير والرحال •



الشذى<sup>(١)</sup> ، وأنا أبرأ اليكم والى ذمتكم من معرة الجيش الا من جوعة المضطر لا يجد عنها مذبحا الى شعبه ، فنكلوا من تناول منهم شيئا ظلما عن ظلمهم ، وكفوا أيدي سفهائكم عن مضارتهم والتعرض لهم .. « وهذه وما هو من قبيلها ، مناهذ موروثة أو أدب هو أقرب الى نظام الادارة منه الى خطط التعبئة وقيادة الميدان .. وعلى كونه قد اتبع هذه التقسيمات والمناهج في وقعة صفين ، لم تكن الوقعة كلها الا مناوشات هجوم ودفاع بين طوائف متفرقة في أوقات متباعدة .. كأنها ضرب آخر من ضروب فن الحرب على طريقة الفارس المناضل والبطل المفرد في موقف المبارزة أو في غمار الصفوف .

\*\*\*

وخلاصة ذلك كله ، ان ثقافة الامام هي ثقافة العلم المفرد والقيمة العالية بين الجماهير في كل مقام ..  
وانها هي ثقافة الفارس المجاهد في سبيل الله ، يداول بين القلم والسيف ، ويتشابه في الجهاد بأسه وتقواه .. لأنه بالبأس زاهد في الدنيا مقبل على الله ، وبالتقوى زاهد في الدنيا مقبل على الله ..  
فهو فارس يتلاقى في الشجاعة دينه ودينه ، وهو عالم يتلاقى في الدين والدنيا بحته ونجواه ..

(١) بمعنى الأذى أيضا .

## في بيته

خلاصة رأى الامام في المرأة أنها « شر كلها .. وشر ما فيها انه لا بد منها » ..

كان يرى لها فضائل خاصة تليق بها غير الفضائل التي تليق بالرجال وتحمد منه .. « فخير خصال النساء شرار خصال الرجال .. الزهو ، والجبن ، والبخل .. فاذا كانت المرأة مزهوة لم تمكن من نفسها ، واذا كانت بخيلة حفظت مالها ومال بعلها ، واذا كانت جبانة فرقت<sup>(١)</sup> من كل شئ يعرض لها » ..

والامام صائر الى رايه هذا في المرأة من كلتا طريقيه ، وهما طريق الحكيم الذي ينظر اليها على سنة الحكمة القديمة ، وطريق العابد الذي ينظر اليها على سنة العبادة في جميع العصور .. ولكنه لا رأى الحكيم ولا حس العابد قد حجه قط عن فطرته الغالبة عليه ، وهى فطرة الفارس المطبوع على آداب الفروسية ، ومنها التلطف بالمرأة والصنح عن عدوانها .. فما انتقم قط من امرأة لأنها أساءت اليه ، ولا غفل قط عن الوصية بها في موطن يستدعى هذه الوصية . ومن أمثلة وصاياه في هذا المعنى خطبته بين جنوده قبل لقاء العدو بصفين ، حيث يقول :

« لا تهيجوا النساء بأذى وان شتمن أعراضكم وسببن أمراءكم ، فانهن ضعيفات القوى والأنفس والعقول ، ان كنا لنؤمر بالكف عنهن وانهن لمشركات ، وان كان الرجل ليتناول المرأة في الجاهلية بالقهر — أى الحجر — أو الهراوة فيعير بها وعقبه من بعده .. »  
وقد كانت ميوله نحو المرأة قوية ، كما يظهر من غير حادث واحد ..

ومن ذاك صبية السبي التي استولى عليها وبنى بها لساعتها ، وجعلها  
قسمه من الخمس قبل تقسيمه .. فرأى بعض أصحابه في ذلك ما شكوه  
الى النبی علیه السلام من أجله ، وربما كان هذا سبب تحذيره منها في  
الغزوات خيفة على الجيش من شواغلها ، فكان يقول لسراياه وجيوشه  
إذا شيعها : « اعزبوا<sup>(١)</sup> عن النساء ما استطعتم » ويوصى في أمثال هذه  
المواطن باجتنابها ..

الا أنه كان يرى على ما يظهر أن امرأة تغنى عن سائر النساء ، فلم  
يعرف له هوى لامرأة خاصة من نسائه غير الهوى الذي اختص به  
السيدة فاطمة رضى الله عنها كرامة لمنزلتها عنده ومنزلتها عند أبيها ،  
وهو غير الهوى الذي تبعته المرأة بمغريات جنسها .

كان جالسا في أصحابه ، فمرت بهم امرأة جميلة ، فرماها القوم  
بأبصارهم .. فقال رضى الله عنه : « ان أبصار هذه الفحول طوامح<sup>(٢)</sup> ..  
وان ذلك سبب هياجها .. فاذا نظر أحدكم الى امرأة تعجبه قليلا من  
أهله ، فأنما هي امرأة كامرأة »

وعلى الجملة ، يمكن أن يقال ان آراء الامام في المرأة هي خلاصة  
الحكمة القديمة كلها في شأن النساء ..

فهن شر لا بد منه باتفاق آراء الأقدمين ، سواء منهم حكماء الهند  
واليونان أو الحكماء الذين نظروا الى المرأة بعين الدين من أبناء بنى  
اسرائيل وآباء الكنيسة المسيحية وأئمة الاسلام .

لأنهم كانوا جميعا يمزجونها بالشهوات التي تثيرها عامدة أو غير  
عامدة ، ويلقون عليها تبعة الشرور التي تنجم عنها بمكيدتها أو على الرغم  
منها ، ولم تتغير هذه النظرة بعض التغير الا في الأزمنة الحديثة التي  
فطرت في استقلال التبعات على أساس « الحرية الشخصية » .. فحاسبت  
المرأة بما تجنيه ، وأوشكت أن تبالغ في تبرئتها من جنایاتها .

فمن السهو عن الحقيقة ، أن تتخذ آراء الأقدمين في المرأة دليلا على  
نصيهم من الغبطة أو السكينة في حياتهم البيتية .. لأننا خلقاء أن

(١) اعزبوا : ابتعدوا . (٢) كناية عن الجماع .

تجسبهم جميعا من الأشقياء المعذيين في بيوتهم ، وهو ما تأباه البدهة  
وتأباه أبناء التاريخ عن كثير من الأزواج والزوجات النابهات

وليس من اللازم في حياة الامام خاصة ، أن يستمد آراءه في المرأة  
من حياته البيتية .. فقد كانت تجاربه في الحياة العامة مددا لا ينفد  
لهذه الآراء التي شاعت بين الأقدسين حتى أوشكت ألا تحتاج الى  
تجربة مكررة ، وشاعت المقادير أن تنقضى حياة الامام عليؑ وللرأة يد  
في القضاء عليها ، فكانت حياته الغالية مهرا لقطام التي قال فيها  
ابن أبي مياس المرادى :

ولم أر مهرا ساقه ذو سماحة كمهر قطام من فصيح وأعجم  
ثلاثة آلاف وعبد وقينة وضرب عليؑ بالحسام المسمم  
فلا مهر أغلى من عليؑ وان غلا ولا فتك الا دون فتك ابن ملجم  
والذى يجزم به مؤرخ الامام أن حياته البيتية خلت من شكاة لم  
يألفها الأزواج في زمانه ، وانها كانت على أحسن ما وصفت به الحياة  
الزوجية بين أمثاله ..

عاش مع فاطمة رضى الله عنها ، لا يقرن بها زوجة أخرى .. حتى ماتت  
بعد موت النبی عليه السلام بستة أشهر .. وهى رعاية لها ورعاية لمقام  
أيها لاشك فيها ، فقد كان النبی عليه السلام كما جاء في الاثر يغار لبناته  
غيرة شديدة ، وروى عنه انه قال وهو على المنبر مرة : « ان بنى هشام  
ابن المغيرة استأذنونى فى أن ينكحوا ابنتهم علي بن أبى طالب ، فلا آذن ،  
ثم لا آذن ، ثم لا آذن ، الا أن يريد علي بن أبى طالب أن يطلق ابنتى  
وينكح ابنتهم .. فانها بضعة منى يريبنى ما رابها ويؤذنى ما آذاها »  
وربما كان من وفائه لها غضبه لغضبها ، فأحجم عن مبايعة أبى بكر  
الى ما بعد وفاتها على بعض الروايات ، وهجره كما هجرته مدة حياتها .  
وقد ولدت له أشهر أبنائه وبناته : الحسن ، والحسين ، ومحسن ،  
وأم كلثوم ، وزينب ، وماتت ولم تبلغ الثلاثين .

وتزوج بعدها تسع نساء رزق منهن أبناء وبنات يختلف فى عددهم

—١٥٥—

المؤرخون ، ويؤخذ من احصائهم في « الرياض النضرة » للمحب الطبري انه رضى الله عنه وافر الحظ من الذرية ، بقى منهم بعده كثيرون وكان على ما يفهم من خلائقه ، ومن سيرته وأخباره ، أبا سمحا يستريح الأبناء الى عطفه ، ويجترئون على مساجلته الرأى فى أخطر ما ينوبه من الأحداث الجسام ..

لما توجه طلحة والزبير نحو العراق ، ومعهما السيدة عائشة رضى الله عنها ، جاءه ابنه الحسن بعد صلاة الصبح فقال له : « قد أمرتك فعصيتنى ، فتنقتل غدا بمعضية لا ناصر لك فيها » فسأله : « وما الذى أمرتنى فعصيتك ؟ » قال : « أمرتك يوم أحيط بعثمان رضى الله عنه أن تخرج من المدينة فيقتل ولست بها ، ثم أمرتك يوم قتل ألا تباع حتى تأتيك وفود العرب وبيعة أهل كل مصر .. فانهم لن يقطعوا أمرا دونك فأبيت .. ثم أمرتك حين فعل هذان الرجلان ما فعلا أن تجلس فى بيتك حتى يصططحا .. فان كان الفساد كان على يدى غيرك ، فعصيتنى فى ذلك كله ! » ..

فلم يأنف أن يساجله الرأى ليقنعه ، وجعل يقول له : « أى بنى ! .. أما قولك لو خرجت من المدينة حين أحيط بعثمان فوالله لقد أحيط بنا كما أحيط به ، وأما قولك لا تباع حتى تأتى بيعة الأمصار فان الأمر أمر أهل المدينة وكرهنا أن يضيع هذا الأمر ، وأما قولك حين خرج طلحة والزبير فان ذلك كان وهنا على أهل الاسلام .. وأما قولك : اجلس فى بيتك فكيف لى بما قد لزمنى ؟ .. ومن تريدنى ؟ .. أتريد أن أكون مثل الضبع التى يحاط بها ويقال : دباب دباب .. ليست هنا حتى يحل عرقوبها ثم تخرج .. واذا لم أنظر فيما لزمنى من الأمر ويعيننى ، فمن ينظر فيه ؟ .. فكف عنك أى بنى »

وهذه معاملة « أخوة » تستغرب فى الأجيال الماضية التى كان للأبوة فيها على البنين سيادة تقرب من سيادة المولى على الرقيق ، ولا ينقضها انه لطم الحسن يوما لأنه ظن به تقصيرا فى الدفاع عن عثمان .. فتلك

سورة الغضب في موقف من أندر المواقف التي لا يقاس عليها في سائر الأحوال ..

وكان رضى الله عنه ، يزهيه أن يحيط به أبناءه في محافل الروع<sup>(١)</sup> ومشاهد الزخرف .. فيخرج اليها وهم حافون به عن يمينه وشماله ، ومنهم من يحمل اللواء بين يديه ، وذلك زهو الشجاع الفخور بأشباه الشجعان ..

واشتهر بالعطف على صغارهم ، كما اشتهر بمودة كبارهم .. فكان أحب شيء اليه أن يداعبهم أو يرى من يداعبونهم ، وكانت له طفلة ذكية ولدتها له زوجة من بنى كلب يخرج بها الى المسجد ويسره أن يسألها أصحابه : من أخوالك ؟ .. فتجيب : « وه .. وه » محاكاة لعواء الكلاب ..

وكان يقول : « ان للوالد على الولد حقا ، وان للولد على الوالد حقا .. فحق الوالد على الولد أن يطيعه في كل شيء الا في معصية الله سبحانه ، وحق الولد على الوالد أن يحسن اسمه ويحسن أدبه ويعلمه القرآن » ..

ومن احسان التسمية ، انه هم بتسمية ابنه حربا لأنه يرشحه للجهاد وهو أشرف صناعاته ، لولا أن رسول الله سماه الحسن ، وهو أحسن .. فجرى على هذا الاختيار في تسمية أخويه الحسين والحسن . وأتم حق آبائهم في احسان أسمائهم ، فاختر لهم أسماء النبي وأسلافه من الخلفاء : أبى بكر ، وعمر ، وعثمان

أما معيشته في بيته بين زوجاته وأبنائه ، فمعيشة الزهد والكفاف .. وأوجز ما يقال فيها : انه كان يتفق له أن يطحن لنفسه ، وأن يأكل الخبز اليابس الذى يكسره على ركبته ، وأن يلبس الرداء الذى يرعد فيه ، وأن أحدا من رعاياه لم يمت عن نصيب أقل من النصيب الذى مات عنه وهو خليفة المسلمين .. وكان الخليفة يوم كانت الخلافة تناقض ملك الدنيا .. فكان بيته تقيض القصر الذى تعرض الدنيا المملوكة بين أركانه وزواياه ..

(١) سورة : أي حدة . (٢) من معاني الزهو : المنظر الحسن ، والفخر ، والكبر . (٣) أي مجتمعات . (٤) الفزع .

## صورة مجملة

من كلمات الامام التى لم يقلها أحد غيره كلمته فى خطاب الدنيا حيث  
يقول : « يا دنيا غرى غرى .. غرى غرى ! »  
وانها لأكثر من كلمة ، وأكثر من دعاء ..  
انها لسان قدر ، وعنوان حياة ..  
فقد خلق الامام ، وفى كل خليفة من خلائقه الكبار اجترأ على  
الدنيا ، على ضرب من ضروب الاجترأ  
خلق شجاعا بالغا فى الشجاعة ، وزاهدا عظيم الزهد ، ودارسا محبا  
للحقيقة الدينية يتحرأها حيث اهتدى اليها ..  
والشجاع جرىء على الدنيا لأنه لا يبالي الحياة ..  
والزاهد جرىء على الدنيا لأنه لا يبالي النعيم ..  
وطالب الحقيقة جرىء على الدنيا لأنها طريق عنده الى غاية من  
ورائها ..  
فأى مصير لهذا الرجل غير الشهادة فى زمن لم يعرف بطارىء من  
الطوارئ ، كما عرف بالاقبال على الدنيا ؟ ..  
صام الناس قبله عن الدنيا ، ثم أقبلوا على الدنيا العريضة  
بحذافيرها ..  
هدأت حماسنة الدعوة النبوية ، وثابت<sup>(١)</sup> الطوائع الى مألوفها الذى  
اشرجت عليه ، وتدفقت الأموال من الأمصار المفتوحة على نحو لم تعهده  
الجزيرة العربية قط فى تاريخها القديم ..  
وأقبل الناس على الدنيا ، بل هروا الى الدنيا ..

---

(١) ثابت : رجعت \*

واذا بخليفة جرى عليها زاهد فيها ، يقف لهم في طريقها  
ويصد هم عنها ..  
يصد ماذا ؟ ..  
يصد الطوفان ، وهو مندفع من وراء السدود ..  
يصد الطبيعة الانسانية ، وهى منطلقة من عقال التقوى ..  
يصد ما لا سبيل الى صده بحال ..  
فهو مستشهد لا محالة ولو مات على سرير .. فان الانسان قد يعيش  
عيشة الشهداء ، ولا يلزم بعد ذلك أن يموت ميتة الشهداء ..  
وقد لزمته آية الشهادة في كل قسمة كتبت له ، وكل حركة سعى اليها  
أو سعت اليه ..  
فمن آيات الشهادة أن يساق الى الخلافة ، ولا حيلة له في اجتنابها ..  
ومن آيات الشهادة أن يساق اليها في ساعة الفصل بينها وبين الملك ،  
وتقوم الحوائل كلها بينه وبينها قبل الأوان ..  
ومن آيات الشهادة أن يساق اليها ، ولا حيلة له في تحقيق أغراضها  
ولا في الخروج من مأزقها ..  
ومن آيات الشهادة أن يتلى بأنصاره أشد من بليته بأعدائه ، ولا  
حيلة في تبديل أولئك الأنصار ..  
ومن آيات الشهادة ألا تغره الدنيا ، وقد غرت حوله كل انسان ..  
فهو شهيد ، شهيد ، شهيد ..  
خرج الى الدنيا والشهادة مكتوبة على جبينه ، وخرج منها والشهادة  
مكتوبة على ذلك الجبين بضربة حسام<sup>(١)</sup> ..  
وصورته المجملية لا تشق على مصور ولا على متفرس ، لأنها صورة  
المجاهد في سبيل الله بيده وقلبه وعقله ، أو صورة الشهيد ..  
وكل امتحان لقدرته أو لعمل من أعماله ، ينبغي أن ينزل عن محنة  
القدر التي لا يغلبها غالب ..  
وقد كان له رأى عالم ، وفطنة حكيم ، ومشورة مدبر .. ولكننا اذا

(١) سيف



قلنا: انه أخفق في العمل لأنه لم يغلب القدر ، فذلك تكليف بما لا يطاق  
وانما نقول انه أخفق في العمل ونمسك ، ولعله لو تولى الخلافة قبلها  
أو تولى الملك بعدها لما ظهر منه ذلك الاخفاق ..

\*\*\*

وحق لا شك فيه انه أخفق حيث يشرفه اخضاقه ، وحيث يخفق  
الآخرون لو نصبتهم الأقدار في مثل مكانه ..

ومات وقد حل مشكلة الخلافة بلسانه ، وهو الى اليوم موضع الخلاف  
عليها وعليه بين أصحاب المذاهب وأصحاب الأقوال في التاريخ ..

فقد كان يود لو أن رسول الله استخلفه من بعده ، ولكنه لم يطلب  
اليه ذلك .. ولا رأى من الحكمة أن يطلبه اليه . قال ابن عباس ورسول  
الله في مرض الوفاة : « اذهب الى رسول الله ، فسله فيمن يكون هذا  
الأمر .. فان كان فينا علمنا ذلك ، وان كان في غيرنا أمر به فأوصى بنا ؟ ..  
قال : « والله لئن سألتها رسول الله فمنعناها لا يعطيناها الناس أبدا ..  
والله لا أسأله رسول الله أبدا » ..

آمن الامام بحكمة الرسول ايمان محبة وتصديق ، ولكنه لم يفارق  
الدنيا حتى كان قد آمن بها ايمان تعليم وتطبيق . فلما سأله : « أنبايع  
الحسن ؟ » قال : « لا آمركم ولا أنهاكم » فأ نصف الذين سبقوه ولم  
يفرضوا على الناس استخلافه ، لأنهم رأوا في موقفه منها مثل ما رأوه  
في موقف الحسن ابنه ، على حكم سواء ..

\*\*\*

أي ختام أشبه بهذا الشهيد المنصف من هذا الختام ..  
لقد ولد كما علمنا في الكعبة ، وضرب كما علمنا في المسجد .. فأية  
بداية ونهاية أشبه بالحياة التي بينهما من تلك البداية وتلك النهاية ! ..

## فهرس

### صفحة

١٥	... .. تقديم
١٩	... .. صفاته
٣٣	... .. مفتاح شخصيته
٣٩	... .. اسلامه
٤٧	... .. عصر الامام
٥٨	... .. البيعة
٩٢	... .. سياسته
١٢٠	... .. حكومته
١٢٨	... .. النبي والامام والصحابة
١٣٦	... .. ثقافته
١٥٢	... .. في بيته
١٥٧	... .. صورة مخيلة





المكتبة العصرية للطباعة والنشر  
للمصاحف  
شريف عبد الرحمن الانصاري

الناشر الوحيد خارج مصر منذ عام ١٩٧٢ يكتب الكتاب الإسلامي الكبير

عبد الرحمن بن محمد العقاد

بنيان [ مكيفات - ص.ب. ٨٣٥٥ - تلفون : ٧٧٧٤٥  
مبدا - ص.ب. ٢٢١ - تلفون : ٧٢٠٦٢٤ - ٧٢١٦١٢ ]